
عبد الله بن المقفع
الآثار الكاملة
• الأدب الصغير • الأدب الكبير • رسالة الصحابة
الدرة اليتيمة في الأدب • كتاب اليتيمة في الرسائل
• حكم ابن المقفع
حققها وشرحها وقدم لها
الدكتور عمر الطباع

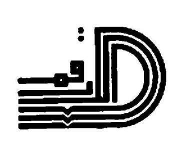
الآثار الكاملة

عبد الله بن المقفع

الآثار الكاملة

• الأدب الصغير • الأدب الكبير • رسالة الصحابة
الدرة اليتيمة في الأدب • كتاب اليتيمة في الرسائل
• حكم ابن المقفع

حققها وشرحها وقدم لها
الدكتور عمر الطباع





شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٨٣٤٩٧٣/٤ - ص.ب: ٣٨٧٤
فاكس ٦٠٣٠١٣ كود بيروت ٠٠٩٦١١ -

القسم الأول

الفصل الأول
ابن المقفّع وآثاره

(١) بيئة العصر
(٢) حياة ابن المقفّع
(٣) زندقة ابن المقفّع
(٤) أثر الثقافة الفارسية

ابنُ المُقَفَّع وآثارُهُ

بقلم: الدكتور عمر الطبّاع

●

(١)

بيئة العصر

● قيام الدولة العبّاسية

كانت معركة «الزاب»، بين جند مروان بن محمد، وجند أبي مسلم الخراساني حدّاً فاصلاً بين عهدين، وإيذاناً بإنتهاء عصر وبداية آخر: **فلقد ارتفعت راية العباسيين السوداء وأشرق مع إرتفاعها نجم بني العباس في المملكة الإسلامية ومزّقت راية الأمويين وأفل مع تمزقها نجم بني مروان.**

وكما أرّخت هذه المعركة زوال عصر وقيام عصر جديد، فقد أعقبت اضمحلال نفوذ وسيطرة نفوذ:

فلئن كانت دولة بني أمية على حد قول الجاحظ **«عربية أعرابية»** ـ ساد فيها العنصر العربي، وتسنّم العرب مناصب الدولة الرفيعة، وطبعوا مرافق الحياة بطابعهم، ونشروا لواء ثقافتهم، وعززوا جانبهم، وفرضوا سلطانهم ـ فإن دولة بني العباس بدت **«خراسانية أعجمية»**، **لأن الأعاجم** الذين حقدوا على الأمويين بسبب تعصبهم للعرب **هم الذين ساروا بالدعوة العباسية** إلى أن كتبوا لها الأنتصار والغلبة، فأفادوا من تأييدهم لآل العباس عزّة بعد ذلّة، وقوّة بعد ضعف، وعنجهية بعد ضعة، وكان من الطبيعي أن يقطفوا ثمرة جهودهم، وأن يجنوا حصيلة تضحياتهم **فاحتلوا المراتب العالية**، وأمسكوا بزمام الأمور في الدولة الجديدة وتحكموا في المقدرات. **فكان منهم الوزراء**، إليهم يرجع الخلفاء في حلّ مشكلات الملك، وعند رأيهم ينزلون

في اقرار الأمور وبوحيهم يتصرفون، ويتآمرهم ينكلون بالعرب ويضعفون من شأنهم وكأنهم يعملون على تقلّص ظلّهم. ولئن كانت حركة هؤلاء الشعوبيين في ظل الأمويين، قد عملت في الخفاء، ومن وراء أستار غير قادرة على الجهر، فقد باتت بعد أن قويت شوكتها، وطالت مخالبها تسفر عن أغراضها وتكشف عن نواياها فتتهجم على العرب وتنال من ثقافتهم بل وتدسّ على الإسلام نفسه، وترسخ قواعد المجوسية وتغذّي مذاهب المانوية والمزدكية وتضع كتب «المثالب» في ذم العرب وقدحهم والتطاول عليهم.

● **الجانب الإجتماعي**

وقد إستتبع تحول الحكم من الدولة الأموية إلى الدولة العباسية، **نقل حاضرة الخلافة إلى العراق**، الأقليم الذي كان متأثراً منذ القدم بطقوس الحياة الفارسية وتقاليد الأعاجم وثقافتهم.

وحين بنى أبو جعفر المنصورمدينة **بغداد** وجعلها عاصمة ملكه، كان من البديهي **أن تصطبغ بطوابع الحضارة الفارسية المادية منها والمعنوية، لتسود عادات الفرس في الطعام والشراب والزيّ، كما تتغلغل معتقداتهم وأفكارهم في المجتمع الجديد، لتزاحم التيّار العربي فتؤثّر فيه وإن لم تتمكن من إخماد جذوته.**

على أن نجاح الدعوة العباسية لم يؤد إلى هذه الأوضاع الجديدة في الحياة السياسية والإجتماعية بسبب نفوذ الفرس وحده، فقد كانت هناك عوامل عديدة ساعدت على التحول السياسيّ والإجتماعيّ من ناحية، وأحدثت تطوراً ملحوظاً في طقوس العيش وأنظمة الإدارة من جانب، وفي الحياة العقليّة والأخلاقيّة والدينيّة من جانب آخر.

● **الجانب الفكري**

كان إقليم العراق منذ فتوحات الأسكندر المقدوني ملتقى الحضارات القديمة: **الفارسية** من ناحية، **واليونانية والهندية** من ناحية أخرى، وقد إجتاحته قبيل الفتح الإسلامي تيارات **الفلسفة «الهلّلينية»**، التي هي مزيج من الثقافة اليونانيّة المبنيّة على منطق العقل، والثقافات الشرقيّة المبنيّة على منطق الروح والعواطف الدينية.

وبذلك اصبح العراق في ظل الإسلام مسرحاً لحركة علمية واسعة

النطاق لا سيما بعد أن أصبحت الترجمة ـ التي بدأت بصورة جزئيّة في أواخر العصر الأموي ـ عملاً منظّماً من أعمال الدولة يدعو له الخلفاء وينفقون عليه من خزانة بيت المال. وكان من نتائج نقل الكتب عن اليونانيّة والفارسيّة ـ وفيها كتب أرسطو في المنطق، ومذاهب الفرس كالزرادشتية والمزدكية والمانوية ـ **ظهور علم الكلام في الإسلام ونشأة الفرق الدينية، من مشبّهة ومعتزلة، وقدرية وجبرية**، راحت جميعها تناقش شؤون الإيمان وتصطدم في الرأي. ولقد **أصاب العلوم اللسانية، من لغة ونحو وبيان** ما أصاب العلوم الدّينيّة من عمق في البحث، **وشهدت سوق المربد في البصرة تنافسَ علماء اللغة والنحو في الأتصال بالرواة والأعراب** والأخذ عنهم وتدوين ما أثر عن العرب من شعر وخطابة وأمثال، وكان من ثمار هذه المنافسة إنصراف العلماء في حواضر العراق، ولا سيما في البصرة والكوفة إلى وضع المعاجم اللغوية، واستنباط الأصول الصرفية والنحوية، ودراسة طرائق التعبير والبيان التي درج عليها العرب.

● **دواعي التطور**

ومن جملة الأسباب التي أتاحت لهذه الحركة العلمية المختلفة الشعاب أن تقوى وتتدّعم، **استقرار الفتوح، والقضاء على الفتن والثورات، واضمحلال الأحزاب.**

ومن هنا يعتبر العصر العباسي امتداداً للعصر الأموي، في التطور العقلي عند العرب: فقد انشغل الأمويون في الداخل بصراع مناوئيهم من الخوارج والشيعة والزبيريين، وانهمكوا في الخارج بتوجيه الجيوش لفتح الأمصار.

وحين زال سلطانهم السياسيّ، ورث العباسيون ملكاً عظيماً وتدفقت على بيت المال الثروات الطائلة، **فاتجهوا نحو العمران والبناء، فازدهرت التجارة، وكثر الكسب، وتوفّر المال بين أيدي الناس.**

ومع أسباب الطمأنينة ودواعي الوفر والغنى نشر اللهو رواقه، فعقدت مجالس الشراب، **وأمدّ النخاسون هذه المجالس بالرقيق من الجنسين**، فكانت الحانات في بغداد تزخر بالجواري قياناً وساقيات، وبالغلمان. وقد لا يتسع المجال لوصف حياة البيئة الجديدة من كافة جوانبها، **فقد كانت بوجه عام**

جامعة للنقائض والأضداد، دافعة على التنافس بين العناصر والثقافات والمذاهب والنحل، مؤدية إلى التصادم والصراع بين قديم ـ يريد الدفاع عن نفسه ومواجهة التطور ـ وحديث يريد أن يثبِّت أركانه وينشر ظلاله.

وفي حدود هذا وذاك، تموج حواضر العراق وفارس وسائر أقاليم الخلافة بألوان من العيش: ففي جانب زهد وورع، وتزّمت وتصوّف، وفي آخر إباحية وفسق، ومجون وتهتك.

والناس موزعون في أهوائهم، منهم من يناصر القديم ويدعو إلى المحافظة ويستنكر أزياء الحياة الجديدة، ومنهم من يؤيد الإنطلاق ويدعو إلى الثورة على التقاليد ويستنكر الجمود. ومن خلال ذلك كله يشهد الفكر العربي صفحة رائعة وعهداً زاهياً، وتشهد البيئة العربية والإسلامية بدايةَ أكثر أدوارها قوّة وحيوية.

●

لقد عاش ابن المقفع وسط هذه الأحداث الضخام، بين أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، فرافق بدء الدعوة العباسية ونجاحها، وشهد انتصار العباسيين، وقيام دولتهم، وانهيار بني أمية وذهاب شوكتهم. وهو لم يعش هذه الظروف في عزلة أو شبه عزلة، بل في صميمها، ولم يتتبعها بحواسه وحسب، بل بعقله: يتأثر وينفعل، ثم يؤثّر ويبعث على الأنفعال: يدرس ويمحص، ويتغلغل في الوقائع، ثم يعمد إلى خزانة أدبه يحاول أن يعبر عن إنطباعاته ويدلي بنتائج تشخيصه للأوضاع وعللها، فيتجاوز بعطائه الفكري حدود التأثير في مجتمعه إلى الأعصر التالية، وتبقى آثاره شاهد شخصية قوية في الإصلاح الأخلاقي والإجتماعي.

(٢)

حياته

● أصله

هو روزبة بن داذويه. فارسيّ الأصل. كانت ولادته في البصرة سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) على ما يذكر المؤرخون في خلافة هشام بن عبد الملك. وقتل في زمن أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) كما هو مرّجّح بعد إتهامه بالزندقة.

والمقفَّع، لقب غلب على أبيه داذويه، قال ابن خلّكان في تفسيره: «كان الحجّاج بن يوسف الثقفيّ في أيام ولايته العراق وبلاد فارس قد ولَّى ـ داذويه ـ خراجَ فارس فمدّ يده وأخذ الأموال. فعذّبه **فتقفّعت يده** فقيل له: المقفَّع»[1].

وقيل خلاف ذلك **المقفِّع** ـ بكسر الفاء ـ، **لأنه يعمل القفاع**[2] ويبيعها، كما روى ابن مكّي في كتاب «تثقيف اللسان»[3] ولكن الرأي الأول هو الشائع والمشهور، وعلى أساسه عرف روزبه بابن المقفع.

●

نشأ ابن المقفّع على المجوسية، وكان لها عند ظهورها عدة مذاهب من أشهرها «المانويّة» وأصحابها هم أتباع «ماني». **وتعتبر المانويّة مزيجاً من الزردشتية وبعض فضائل المسيحية**: **فهي تقول** كالزردشتية **بوجود إلهين** هما: «**اهورا مزدا**» منبع النور وأصل الخير في العالم، و «**أهرمن**» وهو رمز الظلمة ومبدأ الشرّ في الوجود. **وتنزع المانوية من ناحية ثانية إلى حياة الزهد والتقشّف** على نحو قريب من طقوس الرهبنة المسيحية وقد حارب الإسلام معتقد المانوية لما فيها من ثنائية تتنافى مع التوحيد.

وقد ظلّ ابن المقفّع معتنقاً المجوسية ـ والمانوية منها على الأغلب ـ حتّى أسلم على يد عيسى بن علي عمّ السفّاحُ: فدعي«**عبد الله**» وتكنّى بأبي محمّد. على أن فترة إسلامه لم تطل، إذ قتل متّهماً بالزندقة، فما هي الزندقة وما حقيقة إتهام ابن المقفع بها؟

● **الزندقة**

تعتبر هذه اللفظة من الكلمات الفارسية المعرّبة، جاء في لسان العرب «**الزنديق القائل ببقاء الدهر**، فارسيّ معرّب: زندكر» وجاء في الصحاح للجوهري: «الزنديق من الثنوية وهو معرَّب والجمع الزنادقة. . والإسم الزندقة».

ويفهم من كلام لإبن قتيبة أن **الزندقة مذهب من مذاهب المجوسية**

---

(١) **ابن خلّكان**: وفيات الأعيان (١/ ٤١٧).

(٢) **القِفاع**: جمع قفعة وهي شيء يعمل من الخوص شبيه الزنبيل، لكنّه بغير عروة.

(٣) **ابن خلّكان**: وفيات الأعيان (١/ ٤١٧).

الثنوية القائلة بوجود أصلين للعالم هما النور والظلمة.

وفي رأي صاحب الفهرست **الزنادقة هم أصحاب ماني اتباع «زند»** وهو أحد كتبهم المقدَّسة واستناداً إلى هذه الدلالة، لا تعني اللفظة شيئاً من الإلحاد أو الكفر.

ولكنّ الكلمة استعملت في الإسلام بمعانٍ متعدِّدة وأطلقت على فئات ثلاث:

ـ **فئة الماجنين الذين أسرفوا في اللهو والعبث**، وتساهلوا في شؤون العقيدة الدينية، وأغلب هؤلاء من الشعراء الذين جهروا بالدعوة إلى ملاذ العيش ونبذ التقاليد وخرجوا عن حدود المحافظة. ومثل هذه الطائفة لم تتهم بالكفر إلا نادراً، **إذ كان نعتها بالزندقة وصفاً لها بالظرف والدعابة.**

على أن بعض هؤلاء أوغلوا في سخريتهم بالفرائض والتعاليم فتعقبهم المسؤولون وأمعنوا فيهم اضطهاداً.

ـ **وهناك معنى آخر للزندقة**، ولعلّه المعنى الأصلي، **وكان يطلق على المانويين** وغيرهم من المجوس **الذين استمروا على مذاهبهم ورفضوا الدخول في الإسلام.**

ـ **وأما الزنادقة الذين لحقتهم تهمة الكفر**، ولاحقتهم السلطة الحاكمة ـ وخاصة زمن العباسيين ـ **فهم الذين اعتنقوا الإسلام على غير إيمان صحيح**، واتّخذوه وسيلة للتقرب من أصحاب الدولة والسلطان. في حين **استمروا باطناً على عقائدهم السابقة ومجوسيّتهم.**

وهذه الضروب من الزندقة كانت متفشيّة في العصر العباسي، لا سيما بعد أن نقل الفرس، ومنهم ابن المقفع، تعاليم المجوسية من زردشتيّة ومانويّة ومزدكيّة إلى العربيّة، وراحوا يروّجون لها، حقداً على الإسلام الذي قوّض ملكهم وقضى على دولتهم.

وقد نشط الخلفاء العباسيون لمحاربة الزندقة والقضاء على الزنادقة، **غيرة على الدين في جانب، ولأغراض سياسية، في جانب أخر**. ومع أن أبا جعفر المنصور لم يحمل بشدّة على هذه الفئة، إلا أنه لم يتردد عن **إتخاذ الزندقة أداة إتهام خطيرة، لتبرير قضائه على بعض الشخصيات التي لا تتفق وسياسته.** ويذكر المؤرخون أمثال أبي الفرج[1] والطبري[2] أن المهدي أول من خصَّ رجلاً

(١) **انظر الأغاني**: لأبي الفرج.

(٢) **تاريخ الطبري.**

بمحاربة هذه الجماعة والتنكيل بها سمّاه «صاحب الزنادقة» **كما طلب إلى العلماء الردَّ على أقوالها، وعلى سنته سار إبنه الهادي وسواه من الخلفاء العباسيين.**

وتعتبر **محاكمة الأفشين** قائد جيوش المعتصم، وقتله بإتهامات الزندقة التي وجهت إليه، من الأحداث التي تكشف عن خطورة هذه الظاهرة في العصر العباسي فقد إتخذت الزندقة سلاحاً في يد المتخاصمين سياسياً أو دينياً، فتبادلها أصحاب المذاهب والأدباء.

●

زندقة ابن المقفّع؟

كان ابن المقفع قبل إسلامه **يؤمن بالمجوسية، وكان له نشاط في نشر تعاليمها وترجمة آثارها إلى العربية**، ومنها كتاب في سيرة «**مزدك**» أحد دعاة الثنوية ومن زعمائها المجدّدين لمبادئها. فهو من هذه الناحية، وفي الفترة السابقة لإعتناقه الإسلام «زنديق» مؤمن لا تحوم حوله شبهة، ثم أسلم على يد عيسى بن عليّ عمّ السفّاح والمنصور، ولم يمضِ زمن قصير على إسلامه، حتى قتل على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلّب بإيعاز من المنصور، **وكان من مبرّرات قتله أنه زنديق من الفئة التي تتظاهر بالإسلام مراءاة وخداعاً**، بينما هي لا تزال على معتقدها السابق. فما هو مدى هذا الإتهام من الصحة؟

ليس في آثار بن المقفع التي وصلتنا ما يدل على زندقته، وعلى هذا أجمع النقّاد المحدثون. كذلك لم يكن من دليل ماديّ يوّجه إليه لإثبات زندقته وتبرير قتله ولو توفّر لحوكم ابن المقفع ـ كما حوكم «الأفشين» في عهد المعتصم ـ ومثّل به في العلن. فالزندقة ليست الباعث الحقيقي على القتل، **وإنما كانت تغطية له.**

ومع هذا، **فكون ابن المقفع زنديقاً، بعد إسلامه ليس أمراً بعيد الإحتمال لا سيما** «وهو حديث العهد بالإسلام، لم يزل يحنّ إلى ديانته الأولى تلك التي نشأ عليها، وانتحلها معظم حياته. وهو لم يسلم إلا حفاظاً على كرامته وطمعاً في الشهرة والجاه وتقرباً إلى مواليه العباسيين»[1].

ومما يؤكد هذا الكلام أنه فيما نقل من آثار الفرس **شعوبي يكره العرب، وشديد التمسّك بدينه**، وقد تعدّدت روايات المؤرّخين في هذا

---

(١) بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر العبّاسية ص ١٥٣ ط ٤.

الصدد، فقيل أنه لما أراد الإسلام قال له عيسى: ليكن ذلك بمحضر من القوّاد ووجوه الناس فإذا كان الغد فاحضر».

وحضر ابن المقفع مأدبة عيسى يومذاك، **وراح يأكل ويزمزم على عادة المجوس،** فقال له عيسى: «أتزمزم وأنت على عزم الإسلام»؟ فقال ابن المقفع: **«أكره أن أبيت على غير دين».**

وكان المهدي يقول: **«ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع».** ويؤيّد هذا القول، ما قاله المسعودي من أن المهدي «أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم بإعتقادهم في خلافته لما إنتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون **مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره».** فإسم الرجل متواتر على ألسنة المؤرخين ومشهور في ترجمة كتب الزنادقة من الفارسية إلى العربية، **وينسب إليه معارضة القرآن على نحو ما نقل الباقلاني في** «إعجاز القرآن».

وهناك أخبار أخرى كثيرة تتعلق بزندقة ابن المقفع وغيره أمثال حماد عجرد وبشّار، ومطيع بن أياس، وقد أورد صاحب الأغاني غير قليل منها. ويذهب الجاحظ إلى **«أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يُتّهمون في دينهم».**

● أسباب قتله

اعتمد العباسيّون، في قتلهم ابن المقفع على زندقته، وحدّثوا أن سفيان بن معاوية لما قتله قال: **«ليس عليّ في هذه المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس».**

ويشبه ذلك ما رواه الجهشياري من أن سفيان قال له حين أقدم على قتله: **«والله يا ابن الزنديقة لأحرقنّك بنار الدنيا قبل نار الآخرة».** ولكنّ هذا الإدعاء، كان في نظر الكثيرين الباحثين مجرد ذريعة، تكمن وراءها أسباب سياسية وخصومات شخصية، كانت الدافع الحقيقي لقتله، من أهمها كراهية المنصور له وحقده عليه. وإجتماع سفيان بن معاوية على هذا السخط، سهّل على الخليفة تحقيق غرضه في قتل ابن المقفع والتخلّص منه.

أما غضب أبي جعفر فيرجع إلى:

ـ تشدد ابن المقفع في كتابه «صيغة الأمان»: فقد لجأ عبد الله بن علي

عمّ المنصور بعد فشله في طلب الخلافة إلى أخيه سليمان في البصرة، فجدّ أبو جعفر في طلبه، ورفض سليمان تسليم أخيه إليه إلا إذا أخذ عهداً على الخليفة بأن لا يغدر به. وقبل أبو جعفر أن يوقع على صيغة أمان، وبالغ ابن المقفع ـ الذي عهد إليه بكتابة هذه الصيغة ـ في الحرص، وتشدّد في الشروط، وكان منها أن يكون «المسلمون في حلّ من بيعة»[1] أبي جعفر لو أنه غدر بعمّه عبد الله بن علي. فأغاظ هذا الموقف أبا جعفر، وكان من دواعي الإيعاز بقتله. وإذا صحّ نصّ هذه الوثيقة كما أوردها الجهشياري[2]، دلّ بحق على رغبة ابن المقفع في إحراج الخليفة، وإثارة الناس عليه إن هو لم يحفظ عهده، وكان هذا مبرراً لكراهية المنصور للكاتب.

ـ ويروي الجاحظ سبباً آخر وهو أن ابن المقفع هو الذي أغرى عبد الرحمن بن علي بالخليفة المنصور، وأن المنصور فطن لذلك فقتله.

ـ ويرى طه حسين من المحدثين، أن السبب في قتله يتصل بآرائه في رسالة الصحابة، قال: «أما أنا فأرجح جداً أن الذي قتل ابن المقفع ليست الزندقة، ولم يقتله تشدّده في الأمان الذي كتبه لعبد الله بن عليّ، لأنه يوشك أن يكون أسطورة ليس لدينا منها نصّ. ولكن لإبن المقفع رسالة أخشى أن تكون هي التي قتلته لأنها توشك أن تكون برنامج ثورة، وهي موجهة إلى المنصور.. هذه الرسالة تسمى رسالة الصحابة»[3].

وسواء هذا السبب أو ذاك، فمقتل ابن المقفع يتصل بمخالفته لسياسة المنصور الذي كان يسرع إلى التنكيل بخصومه ومناوئيه، وبمن يرى فيهم خطراً على الخلافة العباسية، كما فعل بأبي مسلم الخراساني

● **ثقـافتـه**

كان لإبن المقفع من سعة العلم وعمق المعرفة، ما جعله أحد كبار المثقفين في عصره وتعتبر ثقافته مزيجاً من جوانب ثلاثة: فارسي، وعربي، ويوناني:

---

(١) أي أبي جعفر المنصور.

(٢) قال الجهشياري في «الوزراء والكتاب»: «وإن أنا نِلْتُ عبد الله بن عليّ أو واحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير.. فأنا نفي من محمد بن علي بن عبد الله، ومولود لغير رشده وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعي من طاعتي وإعانة من ناوأني من جميع الخلق... الخ».

(٣) من حديث الشعر والنثر ص: ٤٧ .

فقد كان طويل الباع بلغة قومه وآدابهم وتاريخهم ـ عني أبوه بتعليمه وهيأه للمناصب العالية تهذيباً وتأديباً

وكان ملمّاً إلماماً جيداً بلسان العرب فصاحةً وبياناً وأساليبَ كتابة، **لنشأته في ولاء آل الأهتم** ـ وهم عرب اشتهروا بالفصاحة واللسن ـ، **ولمخالطته الأعراب في «المربد»**.

وعرف من أساتذته ثور بن يزيد المكنّى بأبي جاموس ـ كذلك كان متأثراً بفلسفة اليونان وأصول منطقهم وجدلهم، وسائر علومهم العقلية، بطريق «الفارسية» التي وعت كثيراً من نتاج العقلية اليونانية، منذ فتوحات الإسكندر، **وعن طريق المدارس الفكرية التي قامت في جنديسابور وحرّان، تلك المدارس التي كانت ملتقى الحضارات الأغريقية والهندية والرومانية والفارسية**.

وقد أقرّ المؤرخون بما كان لأبن المقفع من حظّ عظيم في البلاغة والعلوم:

قال الجاحظ: **«ومن المعلّمين ثم البلغاء المتقدّمين عبد الله بن المقفع** كان مقدّماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة، واختراع المعاني، وابتداع الشِرع».

وضعه **«الجمحي»** بين العجم، **بمنزلة «الخليل بن أحمد»** بين العرب، **في الذكاء والعلم**.

وهو في نظر «**ابن النديم**» **في عداد كبار البلغاء**.

● **إشتغاله بالكتابة**

وليس أدلّ على نبوغ ابن المقفع، ومقدرته من توليه شؤون الكتابة، في أواخر العصر الأموي، ومطلع العصر العباسي، متفوّقاً في هذه الصناعة التي زاولها أبوه داذويه من قبل:

ـ ففي عهد مروان بن محمد نهض ابن المقفّع بالكتابة لوالي العراق يزيد بن عمر بن هُبَيره، واستكتبه بعد ذلك أخوه داود بن عمر بن هبيرة، وقام بينه وبين **عبد الحميد الكاتب، إخاء ووفاء حدّث عنهما رواة الأخبار**. وفي هذا دليل على بدء إشراق نجم إبن المقفع في دواوين الولاة

ـ وحين آلت الخلافة إلى بني العباس ظل نجمه صاعداً، **فكتب وعمل لحساب أبناء علي بن عبد الله بن العباس**: ـ عيسى وإسماعيل وسليمان ـ وأظهر لهم الإخلاص، ولعلّ غيرته عليهم كانت من أسباب قتله:

أما عيسى فكان والي كرمان، إحدى مقاطعات فارس. . .

وأما **إسماعيل** فكان يتولى مقاطعة الأهواز، ثم بلاد الموصل، وكان ابن المقفع يؤدِّب له أولاده. . .

وأما **سليمان** فكان على البصرة قبل أن يخلعه المنصور ليولّي سفيان بن معاوية بن يزيد الذي أنفذ إرادة أبي جعفر وأودى بابن المقفّع وهو في مقتبل العمر والشهرة، لا يتجاوز السادسة والثلاثين، لا سيما وأنه كان حانقاً على سفيان، **وكان يستخف بقدره، ويمعن في التندّر عليه**[1].

● شخصيته الأخلاقية

جمع ابن المقفع ـ إلى الذكاء الحادّ والثقافة المتعددة الآفاق ـ **خلقاً كريماً** وصفات نبيلة كشف هو عنها في الجانب الأبرز من سيرته، ودعا إليها في أدبه ومعطيات فكره، وأطراها الدارسون في القديم والحديث:

اشتهر بالكرم والإيثار، والحفاظ على الصديق والوفاء للصحب، والتشدّد في الخلق وصيانة النفس. حدّث عنه الجهشياري[2] فقال: «**كان سرياً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من إحتاج إليه**. وكان قد أفاد من الكتابة لداود بن عمر مالاً، فكان يجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسماية إلى الألفين في كل شهر».

وجاء في «محاضرات الأدباء» للأصفهاني، أن سعيد بن مسلم قال: قصدت الكوفة، فرأيت ابن المقفع فرحب بي، وقال: ما تصنع هنا؟ فقلت: ركبني دين. فقال: هل رأيت أحداً؟ قلت: رأيت ابن شبرمة فوعدني أن أكون مربيّاً لبعض أولاد الخاصّة، فقال: أف! أيجعلك مؤدِّباً في آخر عمرك؟ أين منزلك؟ فعرّفته. فأتاني في اليوم الثاني، وأنا مشغول بقوم يقرأون عليّ، فوضع بين يديّ منديلاً فإذا فيه إسورة مكسورة، ودراهم متفرقة مقدار أربعة آلاف درهم، فأخذت ذلك ورجعت إلى البصرة واستعنت به»[3].

---

(١) كان سفيان بن معاوية ذا أنف طويل، وكان ابن المقفّع إذا دخل على سفيان يقول: **السلام عليكما**. وروي أن ابن المقفع سمع سفيان يقول: «**ما ندمت على سكوتي قطّ، فقال له: الخرس زين لك، فكيف تندم عليه**». وهناك غير هذا من وجوه تندر ابن المقفع بسفيان هذا.

(٢) **الجهشياري**: الوزراء والكتاب ص ١١٧.

(٣) **الأصفهاني** محاضرات الأدباء ج ١ ص ٢٩ ـ ضحى الإسلام، الجزء الأول.

ومن الشواهد على إيثاره الصديق والبذل في سبيله خبره مع عبد الحميد الكاتب: حين ألحّ جند بني العباس في طلبه، فكأنّه لم يقتصر على السخاء بماله، فتجاوز إلى السخاء بحياته تجاوباً مع قيمه الأخلاقية ومثله. وقد أكبره الجاحظ حين نعته بقوله: «**كان جواداً فارساً جميلاً**».

ولا شك في أن هذا الخلق الرفيع **ثمرة إرادة واعية، ومعرفة دقيقة بالنفس واستقصاء عيوبها، والاجتهاد في إصلاحها**. قال الأصمعي: سئل ابن المقفع من أدبك؟ **فقال: نفسي! إذا رأيت من غيري حسنا أتيته، وإن رأيت قبيحا أبيته**»[1].

هذه طائفة من أخبار ابن المقفّع، في نشأته، وعقيدته، وثقافته، وصناعته وأخلاقه وأبرز ما في صفاته، وسيكون لنا في دراسة آثاره مزيد من الإطلاع على شخصيّته القويّة، وآرائه في الإصلاح الخلقي والإجتماعي.

●

أثر الثقافة الفارسيّة

كان للفرس أثر كبير في العصر العباسي، تجاوز الحياة الإجتماعية والأخلاقية، ونظم الإدارة والسياسة، إلى الحياة العقلية. **فلعبت الثقافة الفارسية دوراً خطيراً في الفكر العربي**. إلى جانب الثقافات اليونانية والرومانية والهندية.

وكان طبيعياً أن يحدث الفرس مثل هذا النشاط في مرافق الحياة العباسية، لأسباب عديدة من أبرزها:

- **سابقتهم في الحضارة**، وما توفّر لهم في دولتهم الغابرة من تراث ضخم في العلم والأدب، وخبرات طويلة في طرائق العيش، وشؤون الحكم. يقول الجاحظ في تعداده طبائع ومزايا الشعوب في الدولة الإسلامية آنذاك: «**وميزة آل ساسان: في الملك والسياسة**».

ولا يخفى ما يحتاجه الإضطلاع بأعباء الملك وأصول السياسة من معارف وتجارب ونضوج، ظهرت ثمارها في دولة بني العباس، حتى كان جلّ الوزراء والكتاب من العنصر الفارسي.

- **شعورهم بقيمة عونهم في نقل الخلافة إلى بني العباس، واعتدادهم**

(١) ابن خلّكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٣ ـ طبعة مكتبة النهضة المصرية.

بالقسط العظيم الذي قدّموه في نجاح الدعوة العباسية، وما بذلوا في سبيل ذلك من جهود ماديّة ومعنوية.

هذا الشعور، أخرجهم من حالة الكبت والإنزواء، والهوان والإضطهاد التي عانوا منها في ظل الخلافة الأموية، ودفعهم إلى إثبات جدارتهم والكشف عن كفاءاتهم في الدولة الجديدة.

ـ اضطرار العباسيين للإعتماد على الفرس في ترسيخ قواعد حكمهم لعدم ثقتهم بعرب الشام، ورغبة منهم في إثابة هؤلاء الأعاجم ـ ولا سيمّا أهل خراسان منهم ـ على ما بذلوه في تحقيق عزتهم ومدّ سلطانهم. وقد دعا هذا إلى أن يجعل العبّاسيون مركز حكمهم في العراق لا في الشام، لقربه من أنصارهم، والعراق «تداولت عليه دول خلفت فيه مدنيتها وثقافتها، وكان يسكنه قبيل الفتح الإسلامي بقايا من الأمم القديمة مثل الكلدان والسريان.. **وكانت مدنيّة الفرس غالبة عليه لأن آخر من حكمه قبل الإسلام هم الساسانيون من الفرس، وظلّ في أيديهم زمناً طويلاً إلى أن استولى عليه المسلمون في أيام عمر، وكانت فيه «المدائن» عاصمة الساسانيين ـ كلّ هذا جعل العراق أكثر ما يكون اصطباغاً بالفارسية**[1]».

●

هذه الأسباب، التي قوّت شوكة الفرس، **عززت بالتالي الشعوبية الحاقدة على العرب، ودفعت أقطابها، بالسرّ أو العلن، إلى إظهار دفائن الثقافة الفارسية لإثبات عظمة العنصر الفارسي،** بتشجيع ترجمة الكتب من الفارسية إلى العربية. وقد نهض بهذا العبء الفرس الذين أتقنوا أساليب الكتابة العربية، وعلى رأسهم؛ عبد الله بن المقفع ـ وذكر منهم المؤرخون: **«آل نوبخت، وموسى ويوسف ابني خالد، وأبا الحسن علي بن زياد التميمي، والحسن بن سهل، والبلاذري، وجبلة بن سالم، وإسحاق بن يزيد، ومحمد بن الجهم البرمكي، وهشام بن القاسم، وموسى بن عيسى الكردي، وزادويه بن هاشويه الأصفهاني، ومحمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني، وبهران بن مردان شاه، وعمر بن الفرُّخان»**[2].

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ١٨١ ـ ١٨٢ ـ ط ٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٤٤ ـ ضحى الإسلام ١ ـ ١٨٥ ط ٥.

ونتيجة لحركة النقل هذه، **استقبلت اللغة العربية حشداً من المؤلفات الفارسية، في التاريخ والعلوم والسياسة والدين والأدب والحكم**[١]. ومن هذه الكتب المترجمة، عدا التاريخية منها هزار إفسانه[٢]، وعهد أردشير، وتوقيعات كسرى، وكتاب أدب الحرب.

●

(٣)

آثار ابن المقفع

يعتبر ابن المقفع في مقدمة النقلة الفرس، وأغزرهم معرفة، وأكثرهم ترجمة، **كما تعتبر ترجماته أبقى ما نقل عن الفارسية، وأحسنها أسلوباً، وأنقاها عبارة**، لأنه كان من أبرز الأعاجم في حذقه لغة العرب وإلمامه بأصول الكتابة فيها. حدّث صاحب «**زهر الآداب**» فقال: «**كان قلم ابن المقفع، يقف ـ على الرغم من تعثر عبارته أحياناً كما أشار إلى ذلك الدكتور طه حسين**[٣] **ـ. فقيل له في ذلك، فقال: إن الكلام يزدحم في صدري، فيقف قلمي لتخيّره**». وقارن جعفر بن يحيى بين الكتبة فقال «عبد الحميد أصل، وسهل بن هارون فرع، **وابن المقفع ثمر**».

وقد غلبت الترجمة على آثار الرجل، **لطبيعة الحركة الفكرية في بداية** العصر العباسي وشغفه بنتاج قومه الفرس، **وقصر أجله. وقد حال قصر أجله دون اكثاره من العطاء الذاتي**، ولذ قال فيه الخليل بن أحمد: «**علمه أكثر من عقله**».

وفيما يلي ثبت بما ذكره المؤرخون من آثاره:

١ ـ الآثار الضائعة

ـ كتاب «**النسكين**»: ويتضمن أخباراً عن الفرس وسير ملوكهم[٤].

ـ كتاب «**خداينامة**»: وهو كتاب آخر في تاريخ الفرس وسير ملوكهم

---

(١) راجع: **مروج الذهب** للمسعودي ج ١، ص ١٠٩، ـ أيضاً: **كتاب التنبيه والإشراف** ص ١٠٦، **والفهرست** لابن النديم ص ٣٠٥ وضحى الإسلام لأحمد أمين: ١ ـ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) **ومعناه**: ألف خرافة وهو أساس روايات ألف ليلة وليلة.

(٣) **طه حسين**: من حديث الشعر والنثر ص:٤٩ ـ ٥٠ .

(٤) راجع: المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ١٠٩. أما أحمد أمين فأورده على هذا الشكل «**الكيكيين**»، على أن ما أثبتناه هو الأصح في دراسة المستشرقين ـ راجع كتاب ابن المقفّع لعبد اللطيف حمزة.

وقد سمّاه «تاريخ ملوك الفرس».

- كتاب **«آيين نامة»**: وفيه عرض للنظم الفارسية، وعادات الفرس وتقاليدهم، ويقال أنه «كتاب كبير يقع في آلاف الصفحات»[1].

- كتاب **«مزدك»**: وهو من كتب السير، وفيه تاريخ **«مزدك»** صاحب أحد المذاهب الدينية الفارسية المعروفة باسمه وهي **«المزدكية»**.

- كتاب **«التاج»**: عرض فيه سيرة **«أنو شروان»** أحد ملوك الفرس.

- كتاب **«اليتيمة»** أو **«الدرّة اليتيمة»**: وهو غير كتاب **«الأدب الكبير»** المعروف باسم اليتيمة خطأً[2]. ولابن المقفع ترجمات عن الفارسية، لعدد من الكتب اليونانية ومنها:

- كتب أرسطو في المنطق **«قاطيغورياس أي المقالات العشر»** و **«باري أرمينياس أي العبارة»** و **«أنا لوطيقا أي تحليل القياس»**.

- كتاب **«إيساغوجي أو المدخل»** لفورفيوس الصوري.

٢ ـ الآثار الباقية

- كتاب **«الأدب الصغير»**[3].
- كتاب **«الأدب الكبير»**[4].
- **«كليلة ودمنة»**.
- **«رسالة الصحابة»**.
- **«الدرّة اليتيمة والجوهرة الثمينة في الأدب»**.
- كتاب **«اليتيمة في الرسائل»**.

وعلى هذه الآثار اعتمد المحدثون في دراسة شخصية ابن المقفع، والتعرّف إلى مراميه الإصلاحية.

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ١ ص ١٨٥، نقلاً عن مروج الذهب للمسعودي.
(٢) أحمد أمين ضحى الإسلام ج١ ص ٢٠٨.
(٣) و (٤) الصغير، والكبير، نعت للكتاب لا لأديب.

الفصل الثاني

أضواء على آثار ابن المقفّع[1]

(١) الأدب الصغير
(٢) الأدب الكبير
(٣) رسالة الصحابة

(١) استثنينا كليلة ودمنة في هذا السياق، لأن المؤسسة أفردته بإصدار خاصّ.

(١)
الأدب الصغير

●

● غرض الكتاب

عقد ابن المقفع لهذا الكتاب فاتحة تكشف عن نظرته المنطقية إلى الوجود الإنساني، وترمي إلى بناء هذا الوجود على أساس من العقل الواعي، الباحث عن حقائق الأشياء.

والمدرك لجوهر كلامه، يرى فيه رجلاً حكيماً، خبيراً بالنفس، متفهماً لطبيعتها. ويرى في حكمته مثاليّة العالم الفيلسوف ممتزجة بشخصية المتدّين الورع، وكأنه اعتزالي المذهب: لإكباره وظيفة العقل من ناحية، وحضّه على محامد الأخلاق من ناحية ثانية.

وهو في هذا وذاك، يقرّ للإنسان بالإرادة، وحرية الإختيار، ويحمّله تبعة واقعه الدنيوي، ولا يغفل العناية الإلهية والمعاد. وتتضح معالم هذه الشخصية الجامعة للفلسفة والحكمة والمثالية والإيمان في إطار روح علمية تربط الحقائق برباط الأسباب كما في قوله: فـ:

«لكل: مخلوق حاجة، ولكلّ حاجة غاية، ولكلّ غاية سبيلاً. فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد. والسبيل إلى دركها العقل الصحيح، وأمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر، وتنفيذ البصر بالعزم».

فلا طفرة في الوجود، في نظره، ما دام السبيل إلى الغايات بصحة العقل، وما دامت صحة العقل حسن الإختيار والإرادة العاملة.

●

ويخلص ابن المقفع من هذا التحليل المنطقي إلى تبيان دور «الأدب

النفسي»، في تنمية العقل وإحلاله المرتبة التي يتفق له معها تحمل تبعات الوجود. فالعقل عنده طاقة كامنة مليئة بالاستعدادات، قادرة على المنطق الصالح إذا أحياها الأدب، وأمدها بأسباب النماء والعطاء، يقول: «فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر أن تخلع يبسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها.. إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت، ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة، فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها من القلب: لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعملها الأدب الذي هو ثمارها وحياتها ولقاحها».

على ضوء هذا التفنيد، لجانب من فاتحة «**الأدب الصغير**»، بوسعنا التعرف إلى موضوع الكتاب، ومفهوم الأدب الذي قصد إليه ابن المقفّع.

فالكتاب على هذا النحو يتجاوز في غايته التهذيب الخلقي ليدور حول «التربية» بمدلولها الأعم والأشمل، وهو الأعداد للحياة، ما دام يقرن الوجود بـ «العقل الصحيح». و «الإختيار بالبصر» و «تنفيذ البصر بالعزم».

وسمة أخرى من سمات ابن المقفع المثاليّة، عدم تنكره لقيمة الأدب المهذّب للنفس تبعاً لمصدره. **فنظرته إنسانية سمحة، تتجاوز كلّ حواجز الفردية والأنانية والعصبية**، فمن حق الإنسان أن يفيد من حكم الأولين السابقين ومن تجاريبهم، لأن جوهر الذات واحد، والأدب علاج النفوس في كل زمان ومكان، والسبيل إليه: المنطق السليم، والتعلم القويم «**وجلّ الأدب بالمنطق، وجلّ المنطق بالتعلّم، ليس منه حرف من حروف معجمه، ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو مرويّ، متعلم مأخوذ عن إمام سابق: من كلام أو كتاب**».

● **هوية الكتاب**

وعلى أساس ما تقدم، يقرّ ابن المقفع بانتهاله «الأدب»، سواء أكان حكمة ومثلاً، أو نصحاً وموعظة، من مناهل الألباب والعقلاء بدون تحديد. **فمادة الكتاب ليست من ابتداع عقله، أو عطاء فكره الخالص** لقوله:

«وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق».

فالكتاب ليس تأليفاً خالصاً، كذلك ليس هو ترجمة خالصة، إنه انتقاء

لبعض جواهر الأدب، صاغها ابن المقفع بمهارته وحذقه، وأعطاها في لغة العرب قالباً وأسلوباً.

وكأنه حدَّد طريقته في الكتاب وساق فضله فيه خلف برقع من التواضع وترك الغرور، حيث يقول:

«فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل، وأن يقولوا قولاً بديعاً، فليعلم الواصفون المخبرون أنَّ أحدهم ـ وأن أحسن وأبلغ ـ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً، فنظمه قلائد، وسموطا، وأكاليل ووضع كل فصّ موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه وما يزيده بذلك حسناً فسمي بذلك صانعاً رفيقاً.. وكصاغة الذهب والفضّة: صنعوا منها ما يعجب الناس من الحلي والآنية، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة، وسلكت سبلاً جعلها الله ذللاً: فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً إليها، مذكوراً به أمرها وصنعتها».

فالمتدبر لعبارته يبين له أنه **عرف قدر ذاته فيما وعى وعرض من العلم والحكمة**؛ وقد يخرج بهذا التقدير إلى حيّز التأكيد بقوله: **«ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه وعلى وجهه، فلا ترينّ عليه في ذلك ضؤولة**. فإنه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدي للإقتداء بالصالحين، ووفق للأخذ عن الحكماء.. فقد بلغ الغاية».

● وصف الكتاب

وطريقة ابن المقفع في هذا الكتاب تتفق وهويته التي أشرنا إليها، **فهو لم يؤلف بمعنى التأليف القائم على الترابط، والتدرج، والتبويب، والتنظيم كذلك لم يترجم كتاباً بعينه، له مخططه، وموضوعاته المقسمة المنسّقة، فالكتاب أقرب إلى أن يكون جمعاً لكلام بليغ أعجبه فأثبته، ولحكمة فريدة وعاها فساقها، ومثل صادق الدلالة وقع عليه فدوّنه.**

وقد وصفه أحمد أمين فقال: هو **«عبارة عن كلمات حكيمة في الأخلاق، لا تحلّل النفس والخلق تحليلاً دقيقاً واسعاً مستوفى** ولا تذكر الخلق فتبسط القول فيه، وتذكر وصفه والسبيل إلى إكتشافه، **فذلك بالعقل اليوناني أشبه، ولكنه عبارة عن جمل موجزة أشبه بالأمثال، وهي خطرات نتيجة تجارب قد صيغت في إيجاز»**

على أننا إذا نفينا عن الكتاب التحليل الدقيق والإستيفاء في البحث، والتبسّط في القول، **لا يمكن أن ننفي عنه وحدة الغرض**، لأن ما ورد فيه من قول ناصح، وتوجيه راشد، وما فيه من هداية إلى الخير، وردع عن الشرّ وحثّ على الفضائل وزجر عن العيوب، تجعل منه نخبه من الكلم الرفيع بعيدة الأثر في **تقويم النفس، وتهذيب الخلق، وتنمية المدارك، وتوعية العقول والضمائر**، لا يضيرها أنها **أشبه بزهرات متناثرة في «الإصلاح الخلقي»** أو أنها ثمرات **يانعة تتدلّى متباعدة الأفنان، وكأن كل زهرة منها، أو ثمرة، فيها أمثولة مستقلة في ذاتها، لها أريجها ومذاقها**.

والكتاب على هذا النحو لا يعرض شؤون الحياة في إطار معضلة متصلة الخطوط، وإنّما **يجعل الحياة مواقف، لكل موقف إطاره، ولكل إطار خطوطه**.

فهو بهذا مجموعة من تجارب وباعث على تأملات. وحياة الفرد لا تتسع للإحاطة بكل هذه التأمّلات، فقارئه يجني العطاء منه بعد العطاء، ويبقي الكتاب يحمل أسباب الإستمرار والبقاء.

والدارس للكتاب، المتفهم لجوانبه، الناظر في «كلماته» بالرويّة والأناة، يدرك أنّ جلّ ما ورد فيه يخاطب العاقل من الناس، ويحدد له الفضائل التي يجب التزيّن بها، والرذائل التي ينبغي تركها والإقلاع عنها، لكي يتصف بالحكمة تطلعاً إلى التفوّق في الدنيا، والنجاة في الآخرة:

ففضيلة العقل فيما يطلب أو يتّقي النظر في العواقب، بحيث «يتوقّى عاجل اللذات طلباً لآجلها، ويتحمل قريب الأذى توقياً لبعيده».

وأن يتوّخى «**تنفيذ البصر بالعزم. فإن طالب الفضل بغير بصر تائه حيران، ومبصر الفضل بغير عزم ذو زمانة، محروم**».

وتظهر في الكتاب شخصية سقراط وحكمته، في الدعوة إلى معرفة النفس ومحاسبتها وإحصاء محاسنها ومساوئها، استصلاحاً لشأنها وتوّخياً للكمال. وفي سبيل ذلك **ينصح بمجاورة ذوي الفضل في العلم والدين والأخلاق** لأن «الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمي إلا بالموافقين والمؤيدين»، ومن شأن العاقل في مذهبه «**أن لا يحزن على شيء فاته من**

الدنيا» وإن لا يرغب إلا فيما يصلح معاشه، أو يؤمن زاد معاده، أو ينال سرور قلبه من غيس مأثمة.

وفي الكتاب ما يدل على إكبار ابن المقفع للعقل، فتجده فيما ينهى عنه وفيما يدعو إليه، كثير الإجلال لخطره، شديد التحذير من التخلّي عنه:

فإغفال المرء لمنزلة العقل «أشدّ الفاقة»، فهو مقدّم على المال والغنى، لأن العقل هو الحارس للمال، ولذا فهو يفضله، **«لأنه يحرز الحظ، ويؤنس الغربة، وينفي الفاقة، ويعرّف الفكرة، ويثمر المكسبة، ويطيّب الثمرة، ويوجه السوقة عند السلطان.. ويكسب الصديق، ويكفي العدو».**

●

وترى ابن المقفع يرجّح العقل في سائر المواقف، وفي كل المقاييس. **فهو في سياسة الملك أفلاطوني المنهج يضع العقلاء ذوي المعرفة** في المرتبة الأولى، ويرى أن **«أحق الناس بالسلطات أهل المعرفة،** وأحقهم بالتدبير العلماء».

وشيء متصل بالعقل **سياسة الرأي، فلا يفوته أن يحذر العقلاء من عيوب، كالإعتداد بالرأي والإستهانة بالخطأ الصغير،** وأن الصغير يوشك أن يكون كبيراً، وهو يقول **«العجب آفة العقل»...**

وينهى العاقل عن المضيّ في رأي أملاه الهوى لأن **«الرأي والهوى متعاديان».**

ويلحّ في التحذير من مخاطر الأهواء فيقول **«إذا هممت بخير فبادر هواك، لا يغلبك، وإذا هممت بشر فسوّف هواك، لعلك تظفر».**

وهو لا يفتأ بطري العلم والأدب. فالأول **«زين لصاحبه في الرخاء ومنجاة له في الشدة»** والثاني به **«تعمر القلوب».**

وينصح ابن المقفّع بالمشورة لأن «المستشير ـ وإن كان أفضل من المستشار رأياً ـ فهو يزداد برأيه رأياً، **كما تزداد النار بالودك ضوءاً»**[1] ومن هنا يتضح لك مقتة للطغيان والإستبداد.

●

---

(١) **الودك**: الدهن والشحم.

ويتعرّض للكلام على السلطان وما ينبغي له من خصال **فينصح صاحب السلطة** بـ «الإجتهاد في التخيّر، والمبالغة في التقدّم، والتعهد الشديد، والجزاء العتيد». وتراه، يفنّد كل خصلة منها في ضوء المنطق وعلى هدي الواقع والخبرة، وهو يرى في هذه الأمور صلاح سياسة الراعي لرعيته ما دام «**لا يستطاع السلطان إلا بالوزراء والأعوان** ولا ينفع الوزراء إلا بالمودة والنصيحة، ولا المودة إلا مع الرأي والعفاف».

ولا يفوته أن يذكر حق **السلطان العادل على من اتصل به، فهو يحض على إخلاص النصح لأمثاله، وبذل الطاعة، وكتم السر، كما يدعو إلى الذود عنهم باليد واللسان، وتوخّي مرضاتهم**، وينصح من يعمل لهم أن «لا يجترىء عليهم إذا قرّبوه ولا يطغى إذا سلّطوه، ولا يلحف إذ سألهم.. ولا يعتزّ عليهم إذا رضوا عنه ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه، وأن يحمدهم على ما أصاب من خير منهم...».

ومن الخصال التي يطريها في سياسة الملك **الحزم، والحلم، والعلم بمواضع اللين والشدة، والمعاجلة والأناة، وإجالة الرأي وتحصين الأسرار**.

وفي الكتاب **تشدّد في الدعوة إلى الإيمان** وضرورته «فالمؤمن بشيء من الأشياء، وإن كان سحراً، خير ممّن لا يؤمن بشيء ولا يرجو معاداً». وفي هذا الكلام صورة لشخصية ابن المقفع، وعقيدته.

والأدب الصغير حافل بعد ذلك **بذمّ العيوب والنقائص**، والثناء على الخلال الشريفة والمحامد.

فمما يذم: **الكذب، والبخل، والإسراف، والشره والحسد**...

وممّا يثني عليه: **العمل الصالح**. فهو يقول: «لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذي قد علم دواء نفسه، فإذا هو لم يتداوَ به لم يغنه علمه».

وهكذا، فإن الكتاب مُثقل بضروب من الإرشاد الصادق، الناجع في سياسة الفرد نفسه، وصديقه، وصاحب عمله، وعقيدته؛ جامع لمكارم الخلق وأدب النفس.

● أسلوب الأدب الصغير

لئن كان أسلوب ابن المقفع متأثراً بثقافات عديدة: يونانية، وفارسية،

وهندية، وعربيّة. **فإن كتاب الأدب الصغير، أقرب في عبارته إلى منطق اليونان إذ تتجلى فيه الحكمة الأخلاقية في قوالب الفلاسفة**، بما في الفلسفة من عمق وقياس وبرهان. **فأسلوب الكتاب مطبوع بطابع الفكر اليوناني**، لا سيما أن ابن المقفع قام بترجمة كتب المنطق الأرسطي من الفارسية إلى العربية، ووعى علوم الأغريق الرياضية كآثار فيثاغورس. لهذا عني **الكتاب بالتقسيم العددي ولامس التجريد، فابتعد عن البيان والوضوح وكثرت فيه طرق التعليم والتوجيه من تنبيه، وتحذير، وأمر ونهي**.

وقد تتجلى هذه الخصال في مثل هذه الأسطر:

«**من حاول الأمر احتاج فيها إلى ستّ: العلم، والتوفيق، والفرصة، والأعوان، والأدب، والإجتهاد، وهن أزواج**:

ـ **فالرأي والأدب زوج**: لا يكمل الرأي بغير الأدب، ولا يكمل الأدب إلا بالرأي.

ـ **والأعوان والفرصة زوج**: لا ينفع الأعوان إلا عند الفرصة، ولا تتمّ الفرصة إلا بحضور الأعوان.

ـ **والتوفيق والإجتهاد زوج**: فالإجتهاد سبب التوفيق، وبالتوفيق ينجح الإجتهاد.

(٢)
الأدب الكبير

●

يتفق «الأدب الكبير» و «الأدب الصغير» في نواح، ويتميّز عنه في نواح أخرى:

- فمن نواحي الإتفاق، أنه يرمي **كمثله إلى الغرض الواحد من الإتصاف بالحكمة والتطلّع إلى الصواب، في القول والعمل، تهذيباً للنفس، وإصلاحاً للمعاش**، بالأخذ عن الأقدمين والإقتداء بسيرتهم في الشؤون الدنيويّة والدينيّة.

- ومن ميْزاته التي ينفرد بها، تحديد الموضوع، وتقسيم الكلام، وأسلوب العرض. فهو بخلاف **«الأدب الصغير»**، **يقتصر على مقدمة ومقالتين**: الأولى، في **«السلطان وصحبته»**، والثاني في **«الأصدقاء»**.

وفيما يلي عرض لأبرز المطالب في هذه الأقسام الثلاثة:

● **المقدّمة**

يتناول فيها ابن المقفع، **تبيان فضل الأقدمين**، فيصفهم برجاحة العقل، واتقان الأمور، ودقة الإختبار، وكمال الإيمان في الدين علماً وعملاً؛ والأمانة في العلم، وبرّهم بالأجيال اللاحقة وحرصهم على تزويدها بعطاء عقولهم وثمار تجاربهم.

ويخلص الكاتب من الثناء على هؤلاء، **إلى ضرورة الإفادة من آثارهم** والنظر فيها، إذ لم يجدهم **«غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له غاية لم يسبقوه إليها»**.

وتتضح، من خلال هذا الإكبار لخطر الأوّلين، **مرامي ابن المقفع في امتداح أمته الفارسيّة**، والإشادة بتاريخها وعلومها، تنبيهاً إلى مكانتهم ودلالةً

على أثرهم في الدولة الإسلامية، ولكنه لم يذهب إلى ذلك بالإشارة الواضحة، وإنما سلك إليه سبيل الإيماء.

وبمثل هذا الأسلوب يبرّر نقله عن الأقدمين فيقول:

«فلم يبق في جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم مقال. **وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن** مشتقة من جسام حكم الأوّلين وقولهم، **فمن ذلك بعض ما أنا كانت في كتابي هذا من أبواب الأدب التي قد يحتاج إليها الناس**».

● المقالة الأولى

وتشتمل على بابين:

ـ الأول في «السلطان»، وما ينبغي أن يتحلّى به من صفات.

ـ الثاني في «صحبة السلطان»، وما تحتاج إليه من «آداب».

١ ـ السلطان.

وفي هذا الباب يظهر ابن المقفع إلماماً حسناً بشؤون السلطة، وتفهماً لقضايا الإدارة، ويقدّم جملة صالحة من الآراء والنصائح ليأخذ بها «صاحب السلطة» حفاظاً على سلطته، وخوفاً من زوالها.

وأول ما يبسطه في هذا الصدد **أن يسهر السلطان على عمله، وأن يأخذ له من أوقات راحته ولهوه، فتكون «الدعة بعد الفراغ»**.

وفي هذا انتقاد يوجهه ابن المقفع **لمن جعل السلطة مطية للفراغ ومدعاة للخمول والمتعة**. ولذلك **يحذر من السخرة في العمل، «من فرّط في سخرة الملوك أهلكوه»، كما يحذر، صاحب السلطان من «حب المدح»** كي لا يترك للناس ثلمة يقتحمون عليه منها، لا سيما «**أن قابل المدح كمادح نفسه**».

والحاجة إلى الولاية يجب أن تناط **برضى الله، وبرضى السلطان الأعلى، ورعاية الناس**، كي لا تكون مطية للمال والجاه.

وعلى الوالي، فوق ذلك، أن يتخذ إخوانه وأعوانه وأصفياءه، ورجال بطانته من «**أهل الدين والمروءة** في كل كورة وقرية»، وأن لا يطلب الرأي افتخاراً **بل للإنتفاع به** إذا كان يطلب الذكر الحسن عند أهل الفضل.

ومن نظراته الصائبة، **تعذر إرضاء الوالي جميع الناس، ولهذا ينصحه**

بأن يرضي «الأخيار منهم وذوي العقل»، على أنه يحذر من الإسراف في منح الثقة للأصفياء دفعاً لإجترائهم.

ويوصي ذوي السلطان بأن يخبروا أمور عمالهم وأتباعهم، ويحثّهم على تحمّل النصيحة، وتقبل مرارة اللوم، إذا كان صادراً عن «أهل العقل والسنّ والمروءة»، دون سواهم من السفهاء.

وينصحهم بأن يباشروا الأمور الجسام بأنفسهم، وأن لا يتهاونوا بشأنها أو يتواكلوا لئلا تضيع هيبتهم، وتذهب ريحهم، وما دام صاحب السلطان لا يغني بماله كل الناس فهو ينصحه بأن يخصّ بعطائه ونواله «أهل الحق».

ويعيب ابن المقفع في السلطان، سرعة الغضب أو الرضى «فإنه ليس أحد أسوأ. حالاً من أهل السلطان الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم، وبتسرّعهم في رضاهم».

ومن شروط السلطان، الحزم، فتراه يحذّر من الإغترار بالملك والإستكانة إلى الغفلة «فما كان من الأمور بقي على غير إركان وثيقة ولا دعائم محكمة أوشك أن يتداعى ويتصدّع». ولذلك يحض على حسن الملك، وأن لا يكون إقدام إلا على يقين، وأن لا تكون استعانة بالإيقاع إلا بعد التثبّت. فمن أهمل ذلك كان «كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه، وهو لمركبه أهيب».

ومن الرذائل التي يعيرها، وينصح السلطان بتجنّبها، الكذب، والبخل وكثرة الحلف فليس لذي سلطة «أن يكذب، لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد، وليس له أن يبخل لأنه أقل الناس عذراً في تخوّف الفقر، وليس له أن يكون حلافاً لأنّه أحق الناس بالإيمان الملوك».

ولا يرى ابن المقفع من ضير على صاحب الملك أن ينال حظّه من النعيم واللهو إذا تعهد «وأحكم المهم، وفوّض ما دون ذلك إلى الكفاة» كذلك يوجب عليه «أن يتفقّد لطيف أمور رعيته، فضلاً عن جسيمها»، ليسدّ فاقة الأخيار والأحرار، وليقمع طغيان السفلة والأشرار.

٢ ـ صحبة السلطان.

ثم ينتقل ابن المقفع إلى الكلام على «صحبة السلطان»، وهم عنده مستشاروه وولاته، ومن يليهم. فيقدّم النصح إلى هؤلاء، ويوصيهم بالمثابرة

وعدم المعاتبة أو الإغترار بالمؤانسة تمادياً وتغافلاً. ويدعو إلى مداراة السلطان خوفاً من تقلب أهوائه حتى ولو كانت صحبته قديمة. وهو يصدر في هذه الوصايا عن تجربة كأن يقول: «ربما رأينا الرجل المدلّ على ذي السلطان بقِدَمِه قد أضرّ به قدمُه».

ويحذر صحبة السلطان من الملق، والأكثار من الدعاء، ومشايعة الأهواء في ولاية أمور الناس، دفعاً للإتهام.

وجدير بمن صحب السلطان إذا رأى منه خللاً بشؤون الناس ومضيعةً للحقوق، وسيرةً غير صالحة، أن لا يجعل ميلَه معه، على الرعية أو مع الرعية عليه. وأن يتوّخى أحسن السبل للإصلاح، فمن الصعب تحويل السلطان عما يحب أو يكره، إلا بطول الإناة، والتلطّف، وسداد الرأي حتى تقوى محاسنه «فإذا قويت منه المحاسن كانت هي تكفيك المساوىء».

ويوصي ابن المقفع من كانت له حاجة عند السلطان أن لا يكثر من المسألة، أو الإستبطاء، وأن يتّخذ سبيل الجدارة والأناة.

ومن نصائحه للوزراء، أن يأمنوا شرّ ذوي الغيرة والحسد لئلا يفسدوا ما بينهم وبين السلطان من ثقة وودّ، ويدعوهم إلى العناية في القول، وعدم الأغلاظ فيه، وأن لا يتكلّموا إلا إذا سئلوا، وأن لا يتشفّعوا لمن سخط عليه السلطان إلا إذا رجع المسخوط عليه عن إساءته، ولان قلب السلطان بعد غضبه، وأن لا يستنكفوا في ممالأة السلطان في الرأي، أو خدمته أو الإقدام على الإستعفاء من الأعمال التي يطلبها إلا إذا كان «يكرهها ذو الدين وذو العقل وذو العرض وذو المروءة».

وفي هذا الباب الكثير من الآداب التي تخصّ جلساء السلطان، كحسن الاستماع إليه، وعدم الإستئثار بصحبته ومعاتبه النظراء من الوزراء والأعوان، وكتمان ما يُكره من السلطان.

ويختتم ابن المقفع هذه المقالة بتبيان مضار صحبة السلاطين كأن يقول «إنك لا تأمن أنفة[1] الملوك إن علمتهم، ولا تأمن عقوبتهم إن كتمتهم، ولا

(١) تجد تفصيل ذلك في الرسالة. وقد تصدّى أحمد أمين لتحليل بعض هذه الجوانب في «ضحى الإسلام» الجزء الأول.

تأمن غضبتهم إن صدقتهم . . إنهم إن سخطوا عليك أهلكوك ، وإن رضوا عنك تكلفت رضاهم ما لا تطيق» .

ثم يسأل من ابتلي بصحبة السلطان إذا كان قادراً على ارتضاء ذلك ، وإلا ، ينصحه «بالبعد منهم كل البعد والحذر منهم كل الحذر» .

وبالرغم من المام ابن المقفع بهذه الآداب ، لم يسلم من المصير المؤلم الذي ألمّ به .

● **المقالة الثانية**

وأكثر مطالب هذه المقالة في الأصدقاء ، ويتطرق فيها إلى الكلام على العدو وكيف يعامل ؛ وتشتمل على جملة من النصائح والمواعظ ، والدعوة إلى الإنصاف بمحاسن الخلال ، ومحامد الأخلاق .

وفي هذه المقالة ، ما يدّل على اهتمام ابن المقفع **بمكانة الصديق في حياة المرء** ، ومنزلته منه ، وقيمة عونه ، ولا يفوته أن يدرك خطورة الأصدقاء الأوفياء . وخطر ذوي الأهواء منهم .

وهو يدعو إلى افتداء الصديق فيقول : «أبذل لصديقك دمَك ومالَك» .

وفي حياة ابن المقفع مواقف تدل على صدق هذه الدعوة ، وعلى إكباره قيمة الصداقة . وهو يرى **ضرورة الحرص على الصديق وعدم إثارة سخطه بانتحال رأيه «تزيناً به عند الناس»** ، وعدم الضنّ عليه بما ينتحل هو من هذا الرأي . وفي مثل هذا السخاء مثالية معروفة في أخلاق الرجل .

ولا يرى ابن المقفع ضيراً من أن يخالط الصديق عدوّاً لنا ، إذا كان أخا ثقة ، وليس في هذا مدعاة خوف ، بل ربما كان في هذا نفع ، **فقد يكف عنا بهذه المخالطة شرّاً ، أو يستر منا عورة ، ويوصي كذلك بالحفاظ على احترام الصديق** فيقول **«تحفّظ في مجلسك من التطاول على الأصحاب»** .

ومن الحكمة عنده **التحفظ في إتخاذ الصديق ، وعدم الإسراع في إئتمانه قبل الوثوق منه** ولو أبدى الودّ ، خوفاً من تقلبه ، لا سيما أن **«الإنسان طبع على ضرائب لؤم» وينهى عن الإدعاء والإعتداد بالعلم بين الأصحاب** «واستحِ الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل مصرّحاً أو معرّضاً» .

وأهم ما في كلامه على الأصدقاء ، الإبطاء في إتخاذهم ، والروية في شأنهم والتثبّت من أمرهم ، والتأكد من مودّتهم ، وعدم الإسراع بعد

استخلاصهم في تركهم لأن الصديق «ليس كالمملوك الذي تعتقه متى شئت، أو كالمرأة التي تطلقها إذا شئت، ولكنه عرضك ومروءتك فإن عثر الناس على أن قطعت رجلاً من إخوانك ـ وإن كنت معذراً ـ نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال فيه».

وينصح بأن يكون الصديق **من ذوي الدين**، فقيهاً «غير مراء ولا حريص».

وأما أخوان الدنيا، فليكن الواحد منهم **«حراً ليس بجاهل ولا كذّاب، ولا شرير ولا مشفوع»**.

ولا يفوت ابن المقفع ما ينجم عن أصدقاء السوء من شرّ فيقول: **«وسوء الأصدقاء أضر من بعض الأعداء»**.

ولا تتجلى إخلاقية ابن المقفع النبيلة في إجلال شأن الصديق، بل تتعدّى إلى **«بذل العدل للعدوّ»** يقول **«التكن غايتك فيما بينك وبين عدوّك العدل، وفيما بينك وبين صديقك الرضاء»**.

وفي هذه المقالة، بعد ذلك، فرائد ونوادر من هذه الآداب النفسية كالتحذير من المرأة أو الشغف بها، فقد يكون في هذا إتلاف للمال ومقتلة للعقل وإزراء بالمروءة، ولا يستغرب هذا الرأي من رجل تعلق قلبه بشرف العلم والحكمة. وعلى عادته **يذم المراء، وتجاوز الحدّ** في بعض الفضائل خوفاً من خسران فضائل أخرى، كأن يقول **«إعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة صرت إلى التقصير، وإن جاوزتها في حمل العلم لحقت بالجهّال»**.

● أسلوب الأدب الكبير

وأبرز ما يمّيز أسلوب **«الأدب الكبير»** عن **«الأدب الصغير»**، أنه **أقل إمعاناً في التجريد، ولذا كان أنأى عن الإغراق في العبارات المنطقية الجافة**، فهو أقرب إلى البيان، يساق أكثر كلامه في صيغة الطلب كما رأيت من النماذج الواردة في سياق البحث.

●

(٣)

رسالة الصحابة

●

تطلع ابن المقفع في جميع آثاره إلى غرض أسمى وهو الإصلاح الإجتماعي، على أساس من معالجة الإخلاق، وشؤون السياسة. وقد عالج هذه القضايا أحياناً عن طريق الاقتباس، مستمداً من النظم والعادات الفارسية مثله الأعلى في خطوط هذا الإصلاح، الذي رسمه الكاتب في «الأدب الصغير» بالمثل والحكمة، وبعبارة المنطق والبرهان، ودعا إليه في «الأدب الكبير» بنوع من الأدب الخطابي، وبعبارة فيها السهولة والوضوح وجعلها كامنة وراء الغرض الأساسي من «كليلة ودمنة» وبعبارة القصص الحيواني، والرمز.

وها هو في «رسالة الصحابة» أو «الهاشمية» كما سميت فيما بعد، لا يخرج عن هذا القصد، ولا يحيد عن ذاك السبيل.

إلا أن هذا الكتاب يمتاز بأشياء عديدة منها:

ـ أنه ليس من الكتب المنقولة، سواء أكان هذا النقل عن كتاب بالذات، أو تعديل لكتاب، وإنما هو من تأليف هذا الكاتب ووضعه.

ـ أنّ موضوعات هذا الكتاب، والنقد الموّجه فيه، مستوحاة من بيئة العصر، وملابسات الحكم فيه. فابن المقفع هنا يدرس الواقع، ويمحص علله وأدواءه ويعود إلى فكره الخاص، أو تراثه الثقافي الفارسي، أو المتأثر بالمعارف اليونانية، فيصف العلاج لهذه الأمراض.

ـ يضاف إلى هذا أن قضية «الإصلاح الإجتماعي» في هذه الرسالة، تبحث ككل، ومن زوايا عديدة: السلطان، والولاة، والقضاء، والجند، وعامة الناس، والخراج. ولا يقتصر فيها على الإيماءات، والنظرات الخاطفة، كما عهدناه في الأدبين، الصغير، والكبير.

وقد سمي الكتاب، بهذا الاسم، **لأنه عنى بالصحابة، أعوان السلطان، أو كما قيل بطانته**. وكان ابن المقفع جديراً بمثل هذه الدراسية، نظراً لشخصيته الخلقية الرفيعة، وعلمه بأنظمة الحكم في دولة الساسان، قبل قيام الإسلام، ولاختلاطه بالولاة في عصره ورجالات الدولة العباسية في زمانه، ووقوفه على العيوب الكثيرة والنقائص التي كانت تتفشى في البلاط العباسي، وعند ذوي النفوذ، ممن بيدهم المقدّرات العامة. فلم يجد الأدب الذي قام بعبء نقله، كافياً في أداء رسالته كمصلح، فعمد إلى الطريقة المباشرة ووضع هذا الكتاب.

موضوعات الكتاب

يشتمل الكتاب على مقدّمة، وعدة فصول.

● **أما المقدمة فتشتمل** على ثلاث نقاط:

ـ **التقدم برسالته إلى أمير المؤمنين**، وهو يقصد ولا ريب أبا جعفر المنصور، وإن تورّع عن ذكر اسمه صراحة.

ـ **تملق الخليفة، بالمدح، وصولاً إلى غرضه**، واحتياطاً من العواقب.

ـ **وصف حالة الفوضى قبل عهد المنصور**، فهو يعيّن مواطن الضعف، ويمهد إلى آرائه التي سيعلنها، فيراه يشير إلى إنصراف الحكام عن اهتمامهم بشؤون الإصلاح، لعدم جدارتهم، لضعف في النظر، أو قلة في المضاء والإرادة، واعتماداً منهم على نفوذهم عند الخليفة.

وأما الفصول فتتناول:

● **إصلاح حال الجند**

تناول ابن المقفّع، قبل تطرقه إلى هذه الناحية، **أهمية الجند وخطورتهم بالنسبة لدولة حديثة، بعيدة الأطراف**، شاسعة الرقعة، تتعرض من جراء ذلك لكثير من الأحداث، ولا تسلم من مظاهر الأضطراب. **وتخلص إلى تبيان مكانة الجند الخراسانية** ـ فكشف عن نزعته القومية، وإيثاره للفرس ـ ودعا الخليفة إلى الإعتماد عليهم.

وإذا تركنا غرضه الشخصي من ذلك لمسنا في آرائه نظرات جديرة بالتقدير، فهو يقترح[1]:

---

(١) **أحمد أمين**: ضحى الإسلام.

● **تحديد القوانين أو المبادىء التي يلتزم بها الجند، فهو يقول:**

«ولا بدّ لذلك من أن يكون لهم دستور أو قانون يحيط بكل شيء يجب أن يعرفوه... فأما ترك الأمر من غير قانون، لا يعرفون ما يجب وما يحرمي، فداع إلى الفوضى»[1].

وقد انتقد ابن المقفع **المغالاة** عند قوم في طاعة أمير المؤمنين، فحضّ على تعيين ما يطاع فيه الخليفة، وما لا يطاع فيه، إذا كان أمره يخالف قواعد الدين وأصوله.

● **عدم استخدام الجند، وخاصة القادة،** في قضايا المال لـ «أن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة»، وكثيراً ما تدفع السلطة والقوة والولاة من القادة، إلى العسف والظلم في جباية المال والضرائب.

● **العناية بتقويم خلق الجند، وتثقيف عقلهم،** بدستور أخلاقي وتعليمي. ويلح ابن المقفع هنا، على ضرورة تقشف الجند، وعفّتهم، وصلاح دينهم، على أن تؤمن لهم الدولة رواتبهم في أوقات محدّدة دفعاً لقطع دابر الشكوى وإشاعة الأمن في نفوسهم.

● **ويوصي ابن المقفع الخليفة** بالتعرف إلى أحوال الجند، وتتبعها على أن يولي ذلك الأكفاء الذين هم موضع الثقة، فقد يكون في ذلك حائلاً دون شرّ، ومعالجة للأمور قبل استفحالها.

● **إصلاح حال القضاء**

ومن جوانب الرسالة الهامّة، **انتقاد ابن المقفع فوضى القضاء في عصره، فدعا إلى وضع قانون لذلك، حتى لا تترك الأمور لأهواء القضاة.**

وهو يرى أن عدم وجود مثل هذا القانون قد أدّى إلى تناقض الأحكام في القضية الواحدة، وفي البلد الواحد.

والقضاة ـ كما يقول ـ فئتان:

فئة تسير على السنّة، وهذه لا تسلم من الظلم والخروج عن العدل، لأنها قد توّسع مفهوم السنة، حتى يشمل عندها كل حكم سابق، ولو كان في عهد عبد الملك بن مروان.

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام.

وفئة ثانية، قوامها أصحاب الرأي والإجتهاد.

ويحذّر ابن المقفع من مغبة الإعتداد بالرأي في شؤون الناس وحياتهم.

أما الحلّ لفوضى القضاء، فيجده ابن المقفع في ضرورة إحالة كل خلاف من هذا القبيل إلى الخليفة، لدراسته، وإصدار الحكم اللازم للحق فيه وإلزام القضاة في الأمصار، بعد تدوينه وتعميمه، بالسير عليه في الحوادث المشابهة.

وهكذا كان الأساس في نقد ابن المقفع أوضاع القضاء، إراحة الحقوق على أهلها، والعدل في الرعية **بإيجاد دستور عام يتقيد به، فلا يحكم القضاة على هواهم، باسم السنّه حيناً، وباسم الإجتهاد حيناً آخر**، ورأيه في هذا الصدد، يعتبر ذا مساس بأهمّية التشريع[1] في العصور الحديثة.

ويشير أحمد أمين إلى محاولات من هذا القبيل، في عهد الرشيد، ولا يرى أنها من ثمرات **«رسالة الصحابة»** لابن المقفع وحسب، فالفكرة كانت تراود عمر بن عبد العزيز، منذ العصر الأموي فقد ارتأى آنذاك جمع الحديث النبويّ واتخاذه قانوناً.

● تنظيم الخراج

وممّا تناوله في هذه الرسالة أمر الخراج، وهو الضريبة على الأرض. وقد دعا ابن المقفع إلى تنظيمه، عن طريق مسح الأرض، وتعيين القسط المفروض عليها، وتسجيل ذلك في أصول محفوظة معتمدة، وأن يوكل الخراج للأعفاء الأمناء، فتحسم أسباب كل نزاع وتذمر.

وفي الكتاب مسائل أخرى، من الإصلاح، متفرّقة، تعتبر في مجموعها ـ مع ما أوردنا ـ مخططاً إصلاحياً يوجب الإشادة بعقلية ابن المقفع البناءة. ولكن الملاحظ أن هذه الآراء كانت سباقة بالنسبة لعصره، وربما كانت سبباً في مصرع صاحبها ـ كما أشار طه حسين ـ فلعلّ الخليفة رأى فيها برنامجاً للثورة على الخلافة العباسية، وليس برنامجاً لإصلاح المفاسد، والعلل المستعصية.

ومهما يكن، فقد تركت رسالة الصحابة في اعتقادنا، صداها ـ بدليل أن

---

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ـ **أحمد أمين** ضحى الإسلام الجزء الأول ص ٢٢٣.

هارون الرشيد عندما ولي شؤون الخلافة، أمر القاضي أبا يوسف بوضع كتاب «يعمل به في جباية الخراج». . . ـ وأنه ـ أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته وابتغاء الصلاح لأمرهم[1].



(١) راجع الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف.

مدرسة ابن المقفع النثرية

●

يعتبر النثر الفني، ثمرة الحضارة والعمران، في تاريخ الأمم والشعوب، لأنه أداة التعبير عن الحياة العقلية الراقية التي لا تقوم حضارة بدونها.

وإذا كانت الحياة الفكرية في كل أمة خاضعة لمراحل من التطور والإزدهار، **فالنثر الكتابي متأثر هو الآخر بجملة من العوامل التي تجعله يمرّ بأطوار بدائية، فأخرى راقية ومتقدّمة.**

وهو في كل الأحوال متأخر عن الشعر فترات تطول أو تقصر بحسب الظروف والملابسات التي تكتنف تاريخ تلك الأمم والشعوب. والدارس لتاريخ النثر عند العرب، يطالع نفس الظواهر التي تجلّت عند اليونان واللاتين الأقدمين. فقد **ظهر النثر** اليوناني في القرن السادس قبل الميلاد، أي بعد قرون من إزدهار الشعر، كذلك كان الحال في **النثر اللاتيني** الذي أثمر على يد شيشرون في القرن السابع للميلاد.

وقل مثل ذلك في **النثر العربي** الذي بدأت طلائعه اليانعة في أواخر العصر الأموي على يد عبد الحميد الكاتب.

●

ولئن كان النثر عند اليونان قد أخذ يسهم في تأدية دور الحضارة بفضل **هيرودوتس، وتيوسيديد**، وإذا كان **شيشرون** صاحب هذا الفضل بالنسبة للاتين، فلا ريب أن **عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع، وسهل بن هارون، ثم الجاحظ - بالقياس إلى العرب -**، قد كان لهم الباع الطويل والنصيب الأعم في توفير لغة الكتابة وتطويعها لأداء المعاني العقلية بعد أن كانت السيطرة للشعر والخطابة.

وكي نتبيّن نوع العمل الذي قام به ابن المقفع في تاريخ النثر الفنّي عند العرب، يكون من الضروري أن نعيّن الأطوار الرئيسة التي مرّ بها هذا النثر،

ونذكر المحفزات التي ساعدت على ظهور هذه الطاقات التعبيرية.

وتكاد هذه الأطوار تنحصر في ثلاثة:

ـ أولها طور النثر الخطابي الذي يبدأ في الجاهلية ويستمر في العصور التالية مع شيء من الإتساع اقتضته طبيعة الحياة الإجتماعية والسياسية.

ـ وثانيها النثر في الدواوين.

ـ وثالثها نثر الكتاب.

والطور الأخير بنوع خاص كان مديناً لتلك **الحركة الواسعة في النقل** التي بدأت في العصر الأموي على نطاق ضيّق، إلى أن اتسعت ونشطت وبلغت أوجها في العصر العباسي.

وحركة الترجمة هذه، إنما هي عنوان هذا التفاعل الخلاّق الذي قام بين العرب من ناحية والثقافات التي كانت منتشرة في البلدان المفتتحة ـ في مصر وسوريا وبلاد فارس ـ من ناحية ثانية، والتي كان للنقلة ومنهم ابن المقفع الأثر الأكبر في تقريب مناهلها من العرب.

ويتضح مما تقدم أن النثر الكتابي قد بدأ محدود المساحة لكنه لم يلبث أن ارتقى واتسع مجراه، فصقلت عبارته وسهلت، وراح يؤدي رسالته في **حركة التأليف التي شملت العلوم الأصيلة والدخيلة في القرن الثالث للهجرة**. فتباين الأسلوب عند ابن المقفع والجاحظ ـ مثلاً ـ مرتبط، ولا ريب، بطبيعة هذا النثر في عهد الترجمة، وطبيعته في عهد التأليف. ولهذا السبب بالذات كان عبد الله بن المقفع **«يجهد نفسه وكأنه ينحت من صخر»** وكان الجاحظ **«لا يجد مشقة ولا جهداً»**. كما يقول طه حسين في كتابه **«من حديث الشعر والنثر»**.

●

وقد لا نجد صعوبة في تفهم قول طه حسين، إذا أرجعنا تباين الأداء الفني عند ابن المقفع والجاحظ إلى هذا التباين الذي يظهر عادة بين أسلوب المترجم، وأسلوب الكاتب المؤلف، والذي يستند أصلاً، إلى ما بين الترجمة التي هي نقل، والتأليف الذي هو وضع، من اختلاف في الجوهر متعارف عليه، لا يضطرنا إلى شيء من العناية في إثباته. وشيء آخر لا بدّ من ملاحظته، هو هذا الفرق بين طوري لغة الكتابة: طور الترجمة، وطور التأليف.

كان دور ابن المقفع في مستهل عهد الكتابة الفنيّة عند العرب، والنثر العربي جديد عهد بمستلزمات التمدّن والتفكير الحضاريّ، ومن يقارن بين لغة الشعر في الجاهلية، عند امرىء القيس، والعصر الأموي عند جرير، والأخطل، والفرزدق، وبين لغته في العصر العباسي عند أبي نواس وأبي تمام وابن الرومي والمتنبيّ، يلاحظ إن كنانة اللغة قد امتلأت بالمفردات الجديدة، وبات يسهل على الشعراء أن **يجاروا تطوّر الحياة العقلية**، فيلوّنوا أساليبهم بالكثير من جوانب الثقافة التي شاعت في العصور العباسية بعد أن نقلت العلوم إلى العربية، وبعد أن راح الكتّاب يضعون في هذه العلوم الكتب والموسوعات الكثيرة، التي لم يكن من سبيل إلى وضعها لو أن تلك اللغة ظلّت في إطار بداوتها، صحراوية لا تصلح إلا للتعبير عن مقتضيات البداوة ومظاهر الحياة فيها.

وهذا يعني أن تحضّر اللغة العربية، كان عملاً من الأعمال التي **تظهر فضل النقلة والناثرين، في تطويع اللغة، وإخضاعها لتقبل صيغ التعبير التي تحتاج إليها العلوم المستحدثة**، مع اعتبار أن نجاح عملية التطويع هذه تدل أيضاً على مرونة تلك اللغة واستعدادتها الواسعة للنمو والإزدهار.

كان عبد الله بن المقفّع. يواجه هذا الوضع في واقع اللسان العربي، عندما عمد إلى نقل شيء من التراث الفكري عند الفرس إلى العربيّة، قبل أن يسلس قيادها له كما سلس للكتاب بعده.

فليس من وشك في أنه كان يجد كثيراً من الصعوبة في إيجاد العبارة الملائمة للفكرة التي يحولها من قالب الفارسية إلى قالب العربية، لأن لكل لغة خصائص وميزات تجعل هذا التحويل شاقاً وعسيراً. وبقدر ما يكون الناقل حريصاً على دقة النقل، غير متهاون في أمانة الناقل، وبمقدار ما يدقّق في اختيار القوالب اللفظية للأثر المنقول، بقدر ما يظهر في أسلوبه أثر الإجهاد والأعياء، فلا يأتي أسلوباً دافقاً، ولا يجري على اللسان كغيره من الأساليب التي باتت في مرتبة الأصالة. وهكذا نحسّ في كتابة ابن المقفع شيئاً من الغموض، والإلتواء، والإنحراف عن مقاييس اللغة وأصولها، تنبّه لها النقّاد المحدثون، وأشاروا إليها، ومثّلوا لها، فقال شوقي ضيف **«كان ابن المقفع شغوفاً بالترجمة الحرفية، وهو شغف جعل لغته في كتبه تتعثّر في كثير من جوانبها»** وقال طه حسين: **«وإنما كان ابن المقفع. مستشرقاً كغيره من**

المستشرقين، يحسن اللغة العربية، وربما أعياه الأداء فيها».

وقد لا يكون هذا الإعياء، دلالة ضعف في مقدرة ابن المقفع بالذات، وإنما قد يكون دلالة ضعف أساليب الكتابة آنذاك في تأدية المعاني الجديدة. فقد اضطلع ابن المقفع بترجمة مواضيع غريبة عن الفكر العربي الأصيل، تتعلق بالنظم الفارسية، وبكثير من نواحي المنطق. ولم يكن للعرب سابقة في مثل هذه الأبحاث، لحداثة عهدهم بالإدارة والملك.

وقد أشار عبد الوهاب عزّام في مقدمة الطبعة التي صدرت مؤخراً لكليلة ودمنة، إلى أن أثر الأسلوب الفارسي يظهر في كثير من نصوص هذا الكتاب. ويمكن إرجاع خلل التعبير، وضعف البناء اللغوي، والإرتباك في كلام ابن المقفع إلى الأسباب التالية:

- **عدم رسوخ الأسلوب الكتابي عند العرب.**
- طبيعة حركة الترجمة.
- حرفية ابن المقفع في النقل.

قد يكون من شأن هذه الظواهر أن تعرض منزلة ابن المقفع في البلاغة العربية ـ تلك المنزلة التي اشتهر بها ـ إلى الإضطراب، ولكن شيئاً لا يسلبه شرف المكانة بين كتاب العصر العباسي، للجهود الكبيرة التي بذلها للنهوض بقدرات اللغة العربية وحملها على التصدّي للأبحاث العقلية، والمنطقيّة منها بنوع خاص.

ولما كانت الفارسية مشبعة بالثقافة اليونانية المنقولة إليها، فابن المقفّع يعتبر وسيطاً في حركة التفاعل بين العربية والفارسية واليونانية، هذا التفاعل الذي أعطى ثماره، ومدّ ظلّه الوارف في مرحلة لاحقة على يد نخبة من الكتاب، كان على رأسهم الجاحظ.

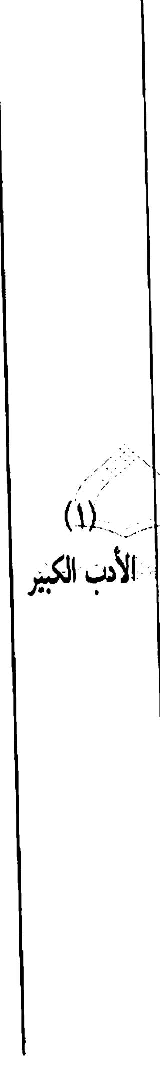
●

وفيما يلي إثبات لنصوص ابن المقفّع الأدبية الإنشائية، وقد آثرنا ونحن نضعها بين يدي القارىء العربي أن نقرّبها إليه بشيء من التقسيم والترقيم ووضع العناوين ومثل هذه الطريقة في طرح النصوص أقرب إلى روح عصرنا ومتطلبات التربية الحديثة، والله نسأل التوفيق.

القسم الثاني

النصوص الأدبية

(١) الأدب الكبير
(٢) الأدب الصغير
(٣) رسالة الصحابة
(٤) الدرّ اليتيمة والجوهرة الثمينة في الأدب
(٥) كتاب اليتيمة في الرسائل
(٦) من حكم ابن المقفّع



(١)
الأدب الكبير

(١)
الأدب الكبير

●

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمين وصلواتُهُ على نبيّنا محمدٍ وآلهِ الطّاهرين.

قال عبد الله بن المقفع

● نحن والأوّلون

وجدْنا النّاسَ قبْلَنا كانُوا أعْظمَ أجْساداً، وأوْفرَ[١] معَ أجسادهم أحْلاماً[٢]؛ وأشدَّ قُوّةً، وأحسنَ بقوّتهم للأمورِ إتقاناً[٣]؛ وأطولَ أعْماراً وأفْضلَ بأعْمارِهِمْ للأشياء اختباراً[٤].

فكانَ صاحبُ الدِّينِ منْهمْ أبلغَ في أمرِ الدّينِ عِلْماً وعَمَلاً[٥] من صاحبِ الدّين منّا؛ وكانَ صاحِبَ الدّنيا على مِثْلِ ذلك منَ البَلاغَةِ[٦] والفَضْلِ.

---

(١) **وَفُرَ يَوْفُرُ وفارةً المال ونحوه**: كثر واتّسع، **أوفر (صيغة أفعل)**: أكثر وأوسع.

(٢) **أحلاماً**: عقولاً.

(٣) **اتقاناً**: إحكاماً، **والإتقان مصدر أتقن (الأمر)**: أحكمه.

(٤) **اختباراً**: من اختبر الشيء علمه بحقيقته.

(٥) **أبلغ علماً وعملاً**: يشيد بالأقدمين لجمعهم بين العلم والعمل أي بين تثقيف العقل بالمعرفة واستكمال النظر بالفعل والعمل، وفي هذا شيء من فلسفة سقراط القائل: «بأن لا قيمة للعلم إذا لم يتحول إلى فعل».

(٦) **البلاغة** في اللغة من الإبلاغ والتبليغ أي الإيصال، والوصول إلى المطلوب أي القدرة على تبليغ القوم ما يختلج في النفس والفكر، ومن معاني **البلاغة** أيضاً البيان والفصاحة.

وَوَجَدْناهُمْ لم يرضَوا بما فازُوا بهِ من الفَضْلِ لأنفسِهم حتّى أشْركونا معَهَم فيما أَدْركُوا من علم الأولى[1] والآخرة[2]، فكتبُوا به الكتبَ الباقيةَ وكفونا به مَؤونة[3] التّجارُب والفطَن.

وبلغ من اهتمامِهم بذلكَ أنَّ الرجلَ منهُمْ كانَ يُفْتَح له البابُ منَ العلْم، والكلمةُ منِ الصّواب ـ وهو بالبلد غيرِالمأهولِ ـ فيكتبُه على الصّخورِ مبادَرةً منه للأَجلِ[4] وكراهيةً[5] لأن يسقُطَ ذلك على من بَعْدَهُ[6].

فكان صنيعُهم في ذلِكَ صنيعَ الوالدِ الشّفيقِ[7] على وُلدِهِ الرحيم بهم، الذي يجمعُ لهم الأموالَ والعقدَ[8] إرادَةَ أنْ لا تكونَ عليهم مؤونَةٌ في الطلب، وخشيةَ عجْزِهم إنْ هُم طلبُوا[9].

● **الإفادةُ مِنْ علمهم**

فمُنْتهى عِلْمِ عالِمِنا في هذا الزمانِ أن يأخذَ من عِلْمِهِم، وغايةُ إحسانِ مُخسِنِنا، أنْ يقتَديَ[10] بسيرتهِم[11]، وأحسنُ ما يصيبُ منَ الحديث مُحَدِّثُنا، أن ينظرَ في كُتُبِهِم فيكون كأنه إياهم يُحاوِرُ[12] ومنهمْ يستمع.

غيرَ أنَّ الذي نجدُ في كُتُبِهِم هو المنتخلُ[13] من آرائهم والمنتقَى[14] من أحاديثهم..

---

(١) **الأولى**: أي الحياة الدنيا.

(٢) **الآخرة**: الحياة الآجلة أو دار البقاء.

(٣) **المؤونة**: الشدّة والثقل.

(٤) **الأجل**: غاية الوقت، والأجل وقت الموت.

(٥) **كَرِه كُرْهاً وكَرَاهَةً وكراهية الشيءَ**: ضد أحبّه.

(٦) **يسقط على من بعده**: أي يقع عبئه على من يأتي بعده.

(٧) **الشفيق**: الحريص على الخير والإصلاح.

(٨) **العقد**: جمع عقدة وهي العقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً، أي اقتناه.

(٩) **طلبوا**: طلب الشيء حاول وجوده.

(١٠) **أن يقتدي بسيرتهم**: أي أن يحتذيهم ويسير على منوالهم.

(١١) **السيرة**: سيرة الرجل أعماله وكيفيّة سلوكه بين النّاس.

(١٢) **حاوره يحاوره محاورة وحواراً**: راجعه في الكلام، جاوبه.

(١٣) **المنتخل من الآراء**: المصطفى والمختار.

(١٤) **المنتقى من الأحاديث**: المنتخب.

● **إحاطتهم بالدّين والدّنيا**

ولم نجدهم غادروا[1] شيئاً يجدُ واصفٌ بليغٌ في صفةٍ لهُ مقالاً لم يَسْبِقوُه إلَيْهِ، لا في تَعْظيمِ اللَّهِ عَزَّ وجلّ وترغيبٍ فيما عِنْدَهُ ولا في تَصْغيرِ للدنيا وتزهيدٍ فيها، ولا في تحريرِ صنوفِ العلم وتقسيم أقسامِها وتجزئةِ أجزائها، وتوضيحِ سُبُلِها وتبيين مآخِذِها، ولا في وجوه الأدبِ، وضروب الأخلاق. فلم يبقَ في جليلٍ من الأمْرِ لقائلٍ بعدَهم مقالٌ.

● **هذا الكِتاب**

وقد بقيتْ أشياءُ من لطائفِ الأمور فيها مواضع لصِغارِ الفطن مشتقةٌ من جِسامِ[2] حِكَم الأوّلين، وقولهم، ومن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبوابِ الأدَب التي يحتاجُ إليها الناس.

●

(١)
الأُصُول[3] والفُصُول

● **الأصولُ أوّلاً:**

يا طالبَ الأدَبِ أعرفِ الأصولَ والفصول، فإن كثيراً منَ النّاسِ يطْلبونَ الفُصولَ مع إضاعةِ الأصول فلا يكونُ دركُهُم دَركاً[4]؛ ومنْ أحرزَ الأصولَ اكتفى[5] بها عنِ الفُصولِ، وإنْ أصابَ الفصلَ بعد إحرازِ الأصْلِ فهو أفضلَ.

● **في الدّين**

فأصْلُ الأمرِ في الدّينِ أن تعتقدَ الإيمانَ على الصّوابِ، وتجتنب الكبائرَ[6]، وتُؤدّيَ الفَريضَةَ[7]. فالزمْ ذلكَ لزومَ من لا غناء به عنهُ طرفة

---

(١) **لم نجدهم غادروا شيئاً**: أي لم يتركوا ما يضاف إلى مقالهم.
(٢) **جسام حكم الأولين**: أي العظام من تلك الحكم.
(٣) **الأصول**: جمع أصل وهو ما يقابل الفرع.
(٤) **الدرك**: التبعة، ودرك الشيء أقصاه وقعره.
(٥) **اكتفى بها**: وجد فيها كفايته أي مبتغاه وطلبه.
(٦) **الكبائر**: جمع كبيرة وهي الإثم الكبير.
(٧) **الفريضة**: الفرض وهو كل ما هو واجب ومرسوم.

عينٍ، ومن يعلمُ أنه إن حرمَه هَلَكَ.. ثم أن قدرتَ أن تُجاوزَ ذلكَ إلى التفقُّهِ[1] في الدّينِ والعِبادَةِ فهوَ أفضلُ وأكْملُ.

● في إصْلاحِ الجَسَد

وأصلُ الأمْرِ في إصْلاحِ الجسدِ ألاَّ تحملَ عليهِ[2] من المآكلِ والمشاربِ والباه إلا خفافاً، وإنْ قدرتَ على أنْ تعلمَ جميعَ مَنَافِعِ الجَسَدِ ومَضَارّه والإنتفاعِ بذلك فهو أفضَلُ.

● في الجود

وأصلُ الأمر في الجود[3] ألا تضنَّ[4] بالحُقوقِ على أهلِها، ثم أن قدرْتَ أنْ تزيدَ ذا الحَقِّ على حقه وتطولَ على منْ لا حَقَّ له فأفعَلْ فهو أَفضَلُ.

● الإقبالُ لا الإدْبار

وأَصْلُ الأَمر البائسِ ألا تحدّثَ نفسَك بالإدبار، وأصحابُك مُقْبلونَ على عدّوهم. ثمّ إن قدرت أنْ تكونَ أوّلَ حاملٍ[5].. وآخرَ مُنْصَرِفٍ[6] من غيرِ تضييعٍ للحَذَر، فهو أفضل..

● في الكَلام

وأصلُ الأمر في الكلام أن تسلم من السَّقَط[7] بالتحفّظ ثم أن قدرت على بارعِ الصّواب فهو أفضل.

● في المَعيشَة

وأصلُ الأمرِ في المعيشة أن لا تَنيَ عن طَلَبِ الحَلالِ[8]، وأن

---

(١) **التفقه**: التفهم والتفقه مصدر تفقه أي تعلّم الفقه.

(٢) **حمل عليه**: أجهده.

(٣) **الجود**: السخاء وكثرة العطاء.

(٤) **ضنّ بالحقوق على أهلها**: حرصهم إيّاها.

(٥) **حامل**: اسم فاعل من حمل على العدوّ أي كرّ على عدوّه.

(٦) **المنصرف**: اسم فاعل من انصرف أي انكفأ، تراجع وتقهقر.

(٧) **السَقَط**: ما لا خير فيه من كلّ شيء.

(٨) **الحلال**: ضد الحرام والحلال الخارج من الإحرام.

تُحْسِنَ التقدير[١] لما تُفيد وما تُنفِق.

ولا يغرَنَّكَ من ذلك سعةٌ تكونُ فيها، فإنَّ أعظَمَ النّاس في الدنيا خَطَراً[٢] أحوجُهم إلى التقدير.

والملوكُ أحوجُ إلى التّقدير من السّوقة[٣] لأن السوقةَ قد يعيشُ بغير مالٍ، والملوكُ لا قوامَ[٤] لهم إلا بالمال، ثم إنْ قدرت على الرفقِ[٥] واللطفِ في الطلب والعلمِ بالمطالبِ فهو أفضلَ.

● **شيءٌ من الوَعْظ**

وأنا واعظُك في أشياء منَ الأَخْلاقِ اللطيفَةِ والأُمورِ الغَامضَةِ التي لَو حَنَكَتْكَ[٦] سِنٌ كنتَ خليقاً أنْ تعلمهَا، وإنْ لم تُخبرْ عنْها. ولكن أحببتُ أن أقدّم لك فيها قوْلاً لتروضَ[٧] نفسَك على محاسنِها، قبل أن تجريَ على عادة مساويها فإنَّ الإنسانَ قد تبتدرُ إليه في شَيبته المساوىء، وقد يغلبُ عليه ما يبدرُ إليه منْها...

*

● **التعوّذ بالعلماء**

إن ٱبتليتَ[٨] بالإمارة فتعوّذ[٩] بالعُلماءِ، واعْلَمْ أَنَّ من العَجَب أن يُبْتلى الرجلُ بها فيريدُ أن ينتقِصَ منْ ساعاتِ نَصَبهِ[١٠] وعَمَلهِ فيزيدُها في ساعاتِ دَعَتِهِ[١١] وشهْوته[١٢].

---

(١) التقدير: قدّر الأمر تقديراً أو الشيء بالشيء قاسه به وجعله على مقداره.

(٢) العظيم الخطر: أي الرفيع المقام وذو القدر.

(٣) السّوقة: الرعية من الناس، واللفظة للمفرد والجمع والمذكّر والمؤنث.

(٤) القوام: ما يكفي من القوت ونحوه.

(٥) الرفق: لين الجانب، اللطف.

(٦) حنكتك: جعلتك حكيماً خبيراً ذا تجارب.

(٧) راض يروض نفسه: طوّعها وذلّلها وعلمها.

(٨) ابتلي بالشيء: اختبر به، حلّت به بليّته أي مصيبته.

(٩) تعوّذ بالعلماء: أي لجأ إليهم واعتصم.

(١٠) النصب: مصدر نضب (العمر): نفد وانقضى.

(١١) الدعة: الراحة، الطمأنينة.

(١٢) الشهوة: مصدر شها يشهو شهوة الشيء: أحبّه ورغب فيه.

وإنما الرأيُ لهُ والحَقُّ عليهِ أن يأخذَ[1] لعمَله منْ جميعِ شُغله، فيأخُذَ من طعامِه وشرابِه ونوْمِه وحَديثِهِ ولهوِه ونسائِه[2].

● **الحِرصُ على العَمَل**

فإذا تقلدتَ[3] شيئاً من الأعمال فكُنْ فيه أحدَ رجلين:

ـ إما رجلاً مغتبطاً[4] به فحافظْ عليه، مخافَةَ أن يزولَ عنه.

ـ وإمَّا رَجلاً كارهاً. فالكارهُ عاملٌ في سُخرةٍ[5].. إمَّا للملوكِ إنْ كانُوا هم سلَّطوه، وإمَّا لله إنْ كان ليسَ فوقَه غيرُه.

(٢)

الولاية

❋

● **الترفُّعُ عنِ المَدْح**

إيَّاك إذَا كنْتَ والياً أن يكونَ من شأنِكَ حُبُّ المَدْح والتَّزْكيةِ[6]، وأنْ يعرفَ النَّاسُ ذلكَ منكَ فتكونَ ثلمةً[7] من الثلم يتقحَّمونَ عليكَ منها، وباباً يفتتحَونكَ[8] منه وغيبةً[9] يغتابونَكَ بها ويضْحكونَ منها.

إعلمْ أنَّ قابلَ المدحِ كمادحِ نفْسهِ والمرءُ جديرٌ أنْ يكونَ حُبّهُ المدحَ هوَ الذي يحْمِله على ردّهِ[10] فإنَّ الرادَّ له محمودٌ والقابلَ له مَعيبٌ.

● **الحاجَةُ إلى خِصال**

لتكن حاجتك في الولايةِ إلى ثلاثِ خصال:

---

(١) **أخذ لعمله من جميع شغله**: خصّه بكل عنايته واهتمامه.

(٢) **أخذ له من نسائه**: آثره دونهنّ بالبذل.

(٣) **تقلّد شيئاً من العمل**: تولاّه.

(٤) **اغتبط به**: كان له مسرّة وحسن حال.

(٥) **السخرة**: العمل قهراً وبلا أجرة.

(٦) **التزكية**: مصدر زكّى يزكّي فلاناً: مدحه واعتبره فاضلاً وطاهراً.

(٧) **الثلمة**: الخلل، ومحل الكسر.

(٨) **يفتتحونك منه**: أي يتسللون إليك ويتسلطون عليك منه.

(٩) **الغيبة**: الاغتياب أي أن يعاب فلان ويذكر بالسوء.

(١٠) **ردّ المدح**: لم يقبل به، رفضه ولم يقبل أن يستهويه.

رضى ربّكَ ورِضى سُلطانٍ إنْ كانَ فوقَكَ ورِضى صالحٍ من تَلي عَلَيْه، وما عليكَ أن تَلْهى عن المالِ والذِّكْرِ فسيأتيكَ منهما ما يكفي ويطيبُ واجعَلِ الخِصالَ الثلاثَ بمكانٍ لا بدَّ لكَ منه، والمالُ والذكْرُ بمكانٍ ما أنْتَ واجِدٌ منه بداً[1].

•

● الأعْوانُ والمشُورة

اعرِفْ أهلَ الدّينِ والمُروءَةِ في كُلّ كُورةٍ وقَرْيَةٍ وقَبيلَةٍ، فيكونُوا هم إخوانَكَ وأعوانَك وبطانتَك وثقاتَك. ولا يَقْذِفنَّ في رُوعِكَ[2] أنك إن استشْرتَ الرجالَ ظهرَ للنّاسِ منك الحاجَةُ إلى رَأي غيرك.

فإنكَ لسْتَ تريدُ الرأيَ للإفتخارِ بهِ ولكنْ تريُده للإنتفاع به، ولو أنكَ معَ ذلكَ أردْتَ الذّكْرَ كانَ أحسنَ الذكْرَينِ وأفضلَهما عندَ أهلِ الفَضْلِ أنْ يُقالَ لا يَتفرّدُ[3] برَأيِهِ دونَ استشارةِ ذَوي الرأيِ.

● الفَوْزُ برضى الأَخْيار

إنّكَ إنْ تَلْتمِسْ رِضَى جَميعِ النّاسِ ما لا يُدْرَكُ وكيفَ يَتفقُ لكَ رأيُ المخْتلفينَ، وما حاجَتُكَ إلى رِضَى من رِضاهُ الجَورِ[4]، وإلى مُوافقَةِ مَنْ موافقَتُه الضلالةُ والجهالَةُ.

فعليْك بالتِماسِ رضى الأَخيْارِ منْهُمْ وذوي العَقْلِ، فإنَّكَ متَى تُصِبْ ذلكَ تضَعْ عنْكَ مَؤونَةَ ما سِواه.

● صَوْنُ ذوي البَلاء

لا تُمَكّنْ أهْلَ البَلاءِ منَ التّذلّلِ، ولا تُمَكّنْ سِواهُم منَ الإجْتراءِ[5] عَلَيْهِم والعَيْبِ لَهُمْ.

---

(١) ما واجد منه بدّاً: أي لا مفرّ لك منه.

(٢) الروع: سواد القلب.

(٣) تفرّد بالرأي: استبد به وترفع عن المشورة.

(٤) الجور: الظلم والتعدّي.

(٥) الاجتراء عليهم: التمادي في إذلالهم وظلمهم.

● **الإنفتاحُ على الرعيّة**

لتعرف رعيتُكَ أبوابَك[1] التي لا يُنالُ ما عندكَ من الخيْرِ إلا بها، والأَبوابَ التي لا يخافُكَ خائفٌ إلا منْ قبلِها.

● **اختبارُ العمّال**

إحرِصِ الحِرْصَ كُلَّهُ عَلَى أَنْ تكونَ خبيراً بأمورِ عُمّالَك، فإنَّ المسيءَ يفرَقُ[2] من خبْرتك، قبلَ أن تصيبَه عقوبتُك، وإنَّ المحْسنَ يستبشرُ بعلمِك قبلَ أن يأتيَه معروفُك.

● **الريثُ في الإثابة والعِقاب**

ليعرفِ الناس فيما يعرفون من أَخْلاقِكَ أنكَ لا تُعاجِلُ[3] بالثوابِ ولا بالعِقاب فإن ذلكَ أدومُ لخوف الخائفِ ورَجاءِ الرّاجي.

● **مواطنُ الحِلْم والصَّبْر**

عَوِّدْ نفسَك الصبْرَ على من خالفكَ من ذوي النُّصيحَةِ[4] والتجرّعَ[5] لمرارَةِ قولِهم وعَذْلِهم ولا تسهلنَّ سبيلَ ذلك إلا لأهلِ العَقلِ والسنّ والمروءةِ، لئلا ينتشرَ من ذلَك ما تجترىء[6] به سيفه أويستخفُ له شأن.

● **اليَقْظَةُ وعدمُ التوكّل**

لا تتركنْ مباشرةَ[7] جميع أَمْرِك فيعودَ شأنُك صَغيراً، ولا تُلزمْ نفسَك مباشرةَ الصَّغيرِ فيصيرُ الكبيرُ ضائعاً

●

● **حُسْنُ التّدبير**

اعلَمْ أنّ رأيَك لا يتسعُ لكلّ شيءٍ، ففرّغه[8] للمُهِمّ، وأنَّ مالَك لا

---

(١) **الأبواب (ههنا)**: الطرق والوسائل.
(٢) **يفرَق**: يخاف، يفزع.
(٣) **لا تعاجل بالثواب**: لا تسارع به.
(٤) **ذوو النصيحة**: الأوفياء، المخلصون.
(٥) **التجرّع**: مصدر تجرّع أي شرب الماء ونحوه شيئاً فشيئاً.
(٦) **جرّه تجريئاً فاجترأ**: حمله على الإقدام فأقدم.
(٧) **مباشرة الأمور**: مصدر باشر الأمر أي تولاّه بنفسه.
(٨) **فرّغه للمهم**: قصره عليه دون سواه.

يُغْني النَّاسَ كلَّهم فاختَصَّ[1] به ذوي الحُقوقِ.

وأن كَرامَتَكَ لا تُطيقُ العامّةَ فتوَخَّ بِها[2] أهلَ الفَضَائِلِ.

وأنَّ ليلَك ونهارَك لا يستَوْعِبانِ حاجاتِك ـ وإنْ دأبْتَ فيهما[3] ـ وأنَّهُ لَيْس لَكَ إلى أدائِها سبيلٌ مع حاجَةِ جَسَدِكَ إلى نَصِيبِهِ منَ الدَّعَةِ[4]، فأحسِنْ قسمتَها بينَ دعَتِك وعَمَلِك.

واعلَمْ أنَّكَ ما شَغَلْتَ من رأيِكِ بغيْرِ المُهِمِّ ازرَى[5] بالمُهِم.

وما صَرفْتَ من مالِكَ بالبَاطِلِ فقَدْتَه حينَ تريدُه للحَقّ.

وما عَدَلْتَ بهِ[6] منْ كرامتِك إلى أهلِ النَقْصِ أضرَّ بكَ في العَجْز عنْ أهلِ الفضْلِ، وما شَغَلْتَ منَ ليلِكِ ونهارِكَ في غيرِ الحاجَة، أزرى بك في الحاجة.

● سوءُ عَاقبةِ الغَضَب

اعْلَمْ أنَّ من النَّاس ناساً كثيراً، جعلَ من أحدِهم الغضبُ إذا غضِبَ أنْ يحملَه ذلكَ على الكُلوحِ[7] والتَقْطيبِ في وَجْهِ غيرِ مَنْ أغْضَبَهُ، وسُوءِ اللفْظِ لمَنْ لا ذَنْبَ لهُ والعُقوبةِ لمنْ لمْ يكنْ يهمّ[8] بعقوبتَهِ وسوءِ المعاقَبة باليدِ واللِسانِ، لمنْ لمْ يكنْ يريدُ به إلا دونَ ذلك.

ثمّ يبلغُ به الرّضى إذا رَضِيَ، أنْ يتبرَّعَ بالأمرِ ذي الخَطَر، لمَنْ ليْسَ بمنزلَةِ ذلِكَ عندَه.

ويُعْطِي مَنْ لَمْ يكنُ أَعْطاه ويُكرمُ منْ لا حقَّ لهُ ولا مودّةَ.

فاحذَرْ هذا البابَ كلَّهُ فإنهُ ليْسَ أحَدٌ أسوأَ حَالاً من أهل القُدْرة الذينَ

---

(١) اختصّ به ذوي الحقوق: جعله خاصّاً به.

(٢) توخّى (ه): تعمّده دون سواه.

(٣) دأب في العمل: جدّ وتعب.

(٤) الدّعة: السكون والطمأنينة، من ودع يدع دعة أي سكن.

(٥) أزرى به: احتقره.

(٦) عدل من.. إلى: مال.

(٧) الكلوح: مصدر كلح كلُوحاً وكُلاحاً وجهه: أي عبس وتكشّر.

(٨) همّ بالأمر: عزم على القيام به.

يُفْرّطون[1] باقتِدارَهم في غَضَبِهِمْ وسُرْعَةِ رِضاهم، فإنّه لو وُصفَ بصِفَة من يتلبَّسُ[2] بَعْقلِه أو يتخبّطهُ[3] المَسُّ أن يعاقِبَ في غضَبه غيرَ منْ أغضبَه ويحْبو[4] عندَ رِضاه غيرَ من أرْضاهُ لكانَ جائِزاً ذلكَ في صِفَتهِ.

(٣)

الملك

●

● ضُروبُ المُلْك

اعلمْ أنَّ الملكَ ثلاثةٌ: مُلْكُ دينٍ، ومُلْكُ حَزْمٍ[5] ومُلْكُ هوًى[6].

فأما الدّين فإنّهُ إذا أقيمَ لأَهْلِه دينُهم، وكانَ دينهُم هوَ الذي يُعْطيهِمْ مالَهُمْ ويلحقُ بهمْ الذي عليْهم أرضاهم ذلك ونزلَ الساخِطُ منْهمْ منزلَةَ الرّاضي في الإقرار[7] والتّسليم.

وأمّا ملكُ الحَزْم فإنّهُ يقومُ بهِ الأمرُ ولا يسَلمُ منَ الطَّعْنِ[8] والتسخّطِ[9]، ولن يضرَّ طَعنُ الدليل معَ حزم القويّ.

وأما ملْكُ الهَوَى فلعبُ ساعةٍ ودمارُ دَهْرٍ.

● تداعِي المُلْك

إذا كانَ سلطانُكَ عندَ جِدّةِ دولةٍ، فرأيْتَ أمراً استقامَ[10] بغيْرِ رَأيٍ وأَعْواناً جُزوا بغَيرِ نَيْلٍ، وعَمَلاً أُنْجِح بغير حُرمٍ، فلا يَغُرّنَّكِ ذَلكَ، فلاَ

---

(١) **فرّط بالأمر**: قصّر وأظهر العجز فيه، **وفرّط به أيضاً**: ضيّعه.

(٢) **يتلبّس**: يختلط ويشتبه ويشكل ونحوه.

(٣) **يتخبّطه المسّ**: يضربه شديداً، **يقال تخبّط الشيطان فلاناً**: ضربه شديداً.

(٤) **يحبو**: يعطي بلا جزاء.

(٥) **الحزم**: إحكام الأمور وحسن ضبطها.

(٦) **الهوى**: الميل، والجموح العاطفي.

(٧) **الإقرار**: التسليم والاعتراف.

(٨) **الطعن**: العيب والكدح.

(٩) **التسخّط**: عدم الرضى.

(١٠) **استقام الأمر**: اعتدل.

تستنِم[1] إليهِ فإنَّ الأمرَ الجديدَ مهما تكونُ لهُ مهابةٌ في أَنْفَسِ أَقْوام، وحَلاوَةٌ في أنفُسِ آخَرينَ، فيُعين قومٌ بأنفسِهم ويعين قومٌ بما قبلَهم ويستَتب بذلك الأمر غيرَ طويلٍ ثم تَصيرُ الشؤونُ إلى حَقَائِقِها وأُصولِها فمَا كانَ منَ الأَمْرِ بُنيَ علَى غيرِ أركانٍ وثيقة ولا عماد[2] محكم أوشكَ أن يتَداعى ويتَصَدَّع[3].

لا تكونَنَّ نزرَ[4] الكَلامِ والسّلام، ولا تُفرِطَنَّ بالهَشَاشَةِ[5] والبَشَاشَةِ فإنَّ إحداهُما من الكِبَرِ والأُخرى من السّخْف. . .

إذا كُنتَ لا تَضْبِطُ أَمْرَكَ ولا تَصول[6] على عَدوِّكَ إلا بقومٍ لسْتَ منهمُ على ثِقَةٍ منْ رَأي ولا حِفاظٍ[7] من نيّة، فلا تنفعُكَ نافِعَةٌ حتى تحوّلَهُم إنِ استطعْتَ إلى الرأي والأدب الذي بمِثْلِهِ تكونُ الثقةُ أو تَستَبْدِلَ بهم إن لمْ تستطعْ نقلَهم إلى مَا تُريد.

ولا تغرّنكَ قوّتُك بِهم وإنّما أنتَ في ذَلكَ كراكبِ الأسَدِ الذي يهابُه منْ نظر إليه وهو لمَرْكَبِهِ أهيبُ.

● **آفاتُ المُلْك الخلقيّة**

ليْسَ للمَلِكِ أن يغْضَبَ لأنَ القدرةَ منْ وراءِ حاجَتِهِ.

وليْسَ لهُ أنْ يكْذِبَ لأنّهُ لا يقْدِرُ أحدٌ على استكراهِهِ[8] على غَيْرِ ما يُريدُ.

وليْسَ له أنْ يَبْخَلَ لأنّهُ أقَلُّ النّاسِ عُذْراً في تَخَوُّفِ الفَقْرِ.

وليْسَ لهُ أن يكونَ حَقوداً لأنَّ خطَرَه قد عَظُمَ عن مُجازاةِ كلِّ النّاسِ.

وليتّقِ أنْ يكونَ حَلاّفاً[9] فأحقُّ النّاسِ باتقاءِ الأيمان الملوكُ، فإنّما

---

(١) **استنام إلى**: نام وسكن.
(٢) **العماد**: الركن والأساس.
(٣) **يتصدّع**: يتشقق.
(٤) **نزر الكلام**: قليل الكلام.
(٥) **الهشاشة**: التبسّم والخفة وهشّ له: أظهر ارتياحه.
(٦) **صال يصول**: سطا وقهر.
(٧) **الحفاظ**: الحميّة والذبّ عن المحارم.
(٨) **الاستكراه**: الإكراه والإرغام وهو أن يحمل امرؤ على فعل ما لا يريده.
(٩) **الحلاّف**: الكثير الحلف.

يُحْمَلُ الرجُلُ على الحلفِ إحدى هَذِهِ الخِلال[1] إمَّا مهانةٌ يجدُها في نفسِهِ وضرع[2] وحاجةٌ إلى تصديقِ النّاس إياه، وإمَّا عيّ بالكَلامِ حتّى يجعَل الأيمانَ له حشواً ووَصْلاً.

وإمَّا تهمةٌ قد عَرَفُها من النّاسِ لحَديثِه فهو يُنْزِلُ نفسَه منزلةَ منْ لا يُقْبَلُ منهُ قولُهُ إلا بعْدَ جَهْدِ اليمين، وإمَّا عَبَثٌ في القَوْلِ أو إرْسالُ اللسانِ على غيْرِ روّيةٍ ولا تقدر.

لا عيبَ على المَلك في تعيّشهِ وتنعّمه إذا تعهدَ الجسيمَ[3] من أمْرهِ وفوّض[4] ما دونَ ذلكَ إلى الكُفاة[5].

●

● الملْكُ أَحَقُّ بالحِيطة والحَذَر

كلُّ النّاسِ حقيقٌ[6] حينَ ينظَرُ فيَ أمرِ النّاسِ أن يتّهمَ نظرَهَ بعين الرّيبةِ وقلبَهِ بعينِ المَقْتِ[7]، فإنّهما يَرَيان الجورَ ويُحْملان على البَاطل ويُقبّحانِ الحسنَ ويحَسّنانِ القبيح.

وأحقُّ النّاسِ باتّهامِ عينِ الريبةِ وعينِ المَقْتِ الملكُ الذي ما وقَعَ في قلبِهِ ربا معَ ما يقبض[8] لَه من تزيينِ القُرَناء[9] والوُزَراء، وأحقُّ النّاس بإجبار نفسِه على العَدْلِ في النّظرِ والقَوْلِ والفِعْلِ الوالي الذي ما قالَ أو فعلَ كانَ أمراً نافذاً[10] غيرَ مَرْدود.

---

(١) **الخلال**: الخصال، جمع خِلّة.
(٢) **الضرع**: الخضوع والإذلال مصدر **ضرع ضرعاً وضراعة**: أي خضع وتذلل.
(٣) **الأمر الجسيم**: العظيم والخطير.
(٤) **فوّض الأمر إلى**: أوكله.
(٥) **الكفاة**: ذوو الكفاءة والأهلية.
(٦) **حقيق**: جدير.
(٧) **المقت**: البغض، الكره.
(٨) **قبض الشيء**: أمسكه بيده وضمّ عليه.
(٩) **القرناء**: النظراء، جمع قرين.
(١٠) **الأمر النافذ**: الأمر الماضي.

● **ما يتوجّبُ تجنّبه**

ليعلمَ الوالي أنّ النّاس يصِفونَ الولاةَ بسُوءِ العهْدِ ونسْيانِ الوُدِ فُليكابدْ[1] نقضَ قولِهم وليبطِلْ عنْ نفسهِ وعن الوُلاةِ صِفاتِ السُّوءِ التي يُوْصَفونَ بها.

● **تفقّد أمورِ الرعِيّة**

ليتفقَدِ الوَالي فيما يتفقَّدُ مَنْ أمورِ الرّعيةِ فاقَةَ[2] الأَحْرارِ منْهم فليَعْمَلْ في سدِّها، وُطغْيانَ[3] السفلةِ منْهم فليقْمَعْه[4].

ولْيَسْتَوْحِشْ منَ الكريمِ الجائِعِ واللئيمِ الشَّبْعان.. فإنّما يصولُ الكريمُ إذا جاعَ واللئيمُ إذا شِبَع.

● **الترفّعِ عن الحَسَدِ**

لا يَحْسُدَنّ الوالي مَنْ دوَنه، فإنّهُ في ذلكَ أقلُّ عُذْراً من السُّوقةِ التي إنّما تحْسُدُ مَنْ فوقَها وكلٌّ لا عُذْرَ له.

● **اللّوم للتّقويم**

لا يلومَنَّ الوالي على الزّلةِ منْ ليسْ بمُتَّهم على الحِرْص علَى رضَاهُ إلا لومَ أدبٍ وتقْويم، ولا يعْدِلَنَّ بالمُجْتَهدِ في رِضاه البصيرَ بما يأتي أحَداً، فإنّهما إذا اجتَمَعا في الوَزير أو الصاحبِ نامَ الوَالي واستَراحَ، وجُلبَتْ إليهِ حاجاتهُ وإن هَدَأَ عنها، وعُمِلَ فيما يَهُمُّه وإنْ غَفَل.

● **تحاشي سوءِ الظنّ**

لا يُولَعَنَّ الوالي بِسُوءِ الظَنِ لقَوْلِ النّاسِ، وليجعلْ لحُسْنِ الظَنِّ مِنْ نفسهِ نصيباً موفوراً يروِّح بهِ قَلْبَه ويُصْدِرُ به أعمالَه.

● **أهمية التثبّت في المواقف**

لا يُضَيِّعَنَّ الوَالي التثبتَ عنْدما يقولُ وعنْدما يُعْطي وعنْدما يفعَلُ: فإنَّ

---

(١) كابد يكابد: عانى ويعاني.

(٢) الفاقة: الحاجة والعوز، شدّة الفقر.

(٣) الطغيان: الاستبداد ـ السفلة: رعاع القوم.

(٤) قمعه: قهره وذلّله.

الرجوعَ عن الصَمْتِ أحسنُ منَ الرجّوعِ عنِ الكَلام، وإنَّ العطيةَ بعْدِ المَنْعِ أجملُ من المَنْع بعْدَ الإعطاءِ.

وإنَّ الإقدامَ على العَمَلِ بعْد التّأني[1] فيهِ أحسنُ من الإمْساكِ[2] عنهُ بعْد الإقدامِ عَلَيْهِ.

وكلُّ النّاسِ محتاجٌ إلى التثبُّتِ، وأَحْوَجُهُم إليهِ ملوكُهم الذين ليسَ لقولِهم وفعلِهم دافعٌ وليْس عليهم مُسْتَحَثٌ.

● عدمُ إغفال البرِّ

ليعلمَ الوالي أنَّ الناسَ على رأيهِ إلا مَنْ لا بَالَ لهُ منهُم، فليَكُنْ للبرِّ والمروءةِ عنده نفاقٌ فيكسَد بذلك الجورُ والدناءةُ في آفاقِ الأَرْض[3].

❋

● حاجَةُ السّلْطَانِ إلى الرأْي

جماعُ[4] ما يحتاجُ إليه الوالي رأيانَ:

رأيٌ يُقويّ سلطانَه ورأيٌ يزينُه[5] في النّاس.

ورأيُ القوةِ أحقُّهما بالبدَاءة[6] وأَوْلاهُما بالأثَرة، ورأيُ التَّزيين أحضرُهما حلاوةً وأكثرُهما أعْواناً مع أنَّ القوةَ من الزينةِ، والزينةَ من القّوة لكن الأمرَ ينسبُ إلى أعظَمه.

● مداراةُ صاحِبِ السُّلْطانِ

إنْ شُغِلْتَ بصُحبةِ المُلوكِ فعلْيكَ بطولِ الرابطةِ[7] في غيرِ معاتبةٍ. ولا يُحْدِثنَّ لك الإستئناسُ غفلةً ولا تهاوناً.

---

(١) التأنّي: الأناة، عدم التسرّع في العمل.
(٢) الإمساك عنه: مصدر أمسك عنه، أي تركه لشأنه، ابتعد عنه.
(٣) آفاق الأرض: جنباتها الواسعة.
(٤) جماع الأمر: جمْعه.
(٥) يزيّنه: يجمّله.
(٦) البداءة: البدء.
(٧) الرابطة: الوصلة والعلاقة.

إذا رأيت أحدَهم يجعلُك أخاً فاجْعلهُ أباً . . . ثم إنْ زادَكَ فِزدْه .

إذا نزلْتَ مِنْ ذي منزلةٍ أو سلطانٍ، فلا ترينَّ أن سلطانَه زادَكَ له توقيراً[1] وإجلالاً، من غيرِ أنْ يزيدَك وداً ولا نصحاً، وأنك ترَى حقاً له التوقيرَ والإِجلالَ .

وكُنْ في مداراتِه والرفْقِ به كالمؤتنفِ[2] ما قبْلَه، ولا تُقدِّر الأمرَ بينَك وبيَنه على ما كنتَ تعرفُ من أخلاقِهِ، فإنَّ الأخلاقَ مستحيلَةٌ معَ المُلكْ، وربّما رأيْنا الرجلَ المُدِلَّ على ذي السّلطانِ بقِدَمِهِ قدْ أضرَّ به قدمُه .

● حقَائقُ في وَصَايا

١ ـ لا تعتذرنَّ إلا إلى من يحبُّ أن يجدَ لك عُذْراً .

ولا تستعينَنَّ إلا بمَنْ يُحبُّ أنْ يظفرَ لكَ بحاجَتِكَ ولا تُحَدِّثَنَّ إلا مَنْ يرَى حديثَك مغْنماً ما لمْ يغلبْك الإِضْطِرار .

٢ ـ إذا غرسْتَ من المَعْروفِ غرْساً وأنفقْتَ عليْه نفقةً فلا تَضُنَّنَّ بالنفقَةِ[3] في تربيةِ ما غرَسْتَ فتذهبُ النفقةُ الأولى ضَياعاً .

٣ ـ إذا اعتذَرَ إليْكَ مُعْتذرٌ فتلقَّه بوجهٍ مشرقٍ وبشرٍ طليقٍ[4]، إلا أنْ يكونَ ممّن قطيعتُه[5] غنيمَةٌ .

٤ ـ اعلمْ أنَّ إخوانَ الصدقِ همْ خيرُ مكاسبِ الدّنيا، زينةٌ في الرّخاءِ[6]، وعدّةٌ[7] في الشدّةِ. ومَعُونَةٌ في المَعَاشِ والمَعَادِ[8]، فلا تفرطنَّ في اكتسابِهمْ وابتغاءِ الوصلاتِ والأَسْبابِ إليهم .

٥ ـ اعلمْ أنَّكَ واجدٌ رغبتَك منَ الإِخاءِ عندَ أقْوامٍ قد حالَتْ بينَكَ

---

(١) التوقير: الإجلال والإحترام.
(٢) المؤتنف: اسم فاعل من ائتنف واستأنف الشيء: أخذ فيه وابتدأ.
(٣) النفقة: الإنفاق.
(٤) الوجه الطليق: الضاحك غير المقطّب ولا الكالح.
(٥) القطيعة: الصرم والهجر.
(٦) الرخاء: خفض العيش.
(٧) العدّة: الاستعداد.
(٨) المعاد: الحساب، يوم الدينونة.

وبينَهُم بعضَ الأُبَهةِ[1]. التي قدْ تَعْتري أهلَ المروءات فتحْجزُ منهم كثيراً ممّنْ يُرْغَبُ في أمثالِهم فإذا رأيتَ أحَداً منْ أُولئكَ قد عَثَرَ به الزّمان فأقِلْهُ[2].

٦ ـ إذا عَرَفْتَ نفسَك منَ الوالي بمنزلةِ الثّقةِ فاعزِلْ عنهُ كلامَ المَلَق[3] ولا تكثرنَّ من الدُّعاءِ لهُ في كلّ كلمةٍ فإنَّ ذلكَ شبيهٌ بالوَحْشَةِ والغُرْبَةِ، إلا أنْ تكلمَه على رؤوسِ النّاس[4] فلا تألُ عمّا عظمَه ووقره.

●

في صُحْبَةِ السّلطان

١ ـ إنِ اسْتَطعْتَ ألاّ تصْحبَ منْ صَحِبْتَ مِنَ الوُلاةِ إلا عَلى شُعْبَةٍ[5] منْ قرابَةٍ أو مَوَدَّةٍ فافعَل، فإنْ اخطَأكَ ذلكَ فاعلَمْ أنّكَ تَعْمَلُ عَمَلَ السُّخْرَةِ[6] وإنِ استَطَعْتَ أنْ تجعَلَ صُحبَتَكَ لِمَنْ قد عَرفَكَ منهمْ بصالحِ مروءَتِك[7] قبْلَ وِلايتِه فافعَل.

٢ ـ إنَّ الواليَ لا عِلْمَ له بالنّاسِ إلا ما قَدْ عَلِمَ قبْل وِلايتهِ فأمّا، إذا وليَ فكلُّ النّاسِ يلقاه بالتزيّن والتصنّع، وكلّهم يحتالُ لأن يُثني علَيْه عندَه بمَا ليْس فيهِ.

غيرَ أنّ الأرذالَ والأبْذالَ هُم أشدُّ لذلكَ تصنّعاً وعليْه مكابرةً وفيهِ تمحّلاً، فلا يمتنعُ الوالي وإنْ كانَ بليغَ الرأيِ والنّظرِ مِنْ أنْ يَنْزلَ عندَه كثيرٌ من الأشْرار بمنزَلةِ الأخيار.

.. وكثيرٌ من الخَانةِ[8] بمنزلَةِ الأُمَناءِ وكثيرٌ من الغَدَرَةِ بمنزلَة الأوَفياءِ،

---

(١) **الأبهة**: العظمة والضخامة.
(٢) **أقاله من عثرته**: حرّره وأخرجه منها، مدّ له يد العون.
(٣) **المَلَق**: الودّ واللطف الشديد.
(٤) **على رؤوس الناس**: على مرأى منهم، أي في العلن.
(٥) **الشعبة**: الطائفة من الشيء.
(٦) **عمل السّخرة**: العمل غير المأجور.
(٧) **المروءة**: كمال الرجولية، النخوة.
(٨) **الخانة**: الخونة من خان خوناً وخيانة ومخانة وخانة في كذا: أؤتمن فلم ينصح، فهو خائن.

ويغطّي عليهِ أمرُ كثيرٍ من أهلِ الفضْلِ الذينَ يصُونون أنفسَهم عن التمحّل[١] والتصنّع.

٣ ـ لا يعرفنّكَ الولاةُ بالهَوى في بلدةٍ من البُلدانِ ولا قبيلَةٍ من القَبائلِ فيُوشكُ أنْ تحْتاجَ فيها إلى حِكايةٍ أو مشاهدةٍ فتتهمَ في ذلك.

وإذا أردتَ أنْ يُقبَلَ قولُك فصحّح رأيَك ولا تشوبنّه[٢] بشيءٍ من الهَوَى[٣] فإنَّ الرأيَ يقبلُه منك العدوّ، والهَوى يردُّه عليكَ الوليُّ.

وأحقُّ من احترَسْتَ منْ أنْ يُظَنَّ بكَ خلطُ الرأيِ بالهَوى الولاةُ.. فإنّها خديعةٌ وخيانةٌ وكُفرٌ.

٤ ـ إن ابتليتَ بصُحْبَةِ والٍ لا يريدُ صلاحَ رعيّةٍ فاعْلمْ أنّكَ قد خُيّرْتَ بينَ خلّتين[٤] ليْس بينَهما خِيارٌ:

إمّا ميلُك معَ الوالي على الرعيّةِ وهذا هَلاكُ الدّينِ، وإمّا المَيْلُ مع الرعّيةِ عَلَى الوالي وهذا هلاكُ الدنيا ولا حيلَة لكَ إلا بالموْتِ أو الهَرَب.

واعلم أنه لا ينْبغي لكَ وإن كانَ الوالي غيرَ مرضيِّ السيرةِ إذا علقتْ حبالُك بحَبلهِ إلا المحافظةُ عليْهِ إلى أنْ تجدَ إلى الفِراق الجَميلِ سَبيلاً...

٥ ـ تَبَصّرْ ما في الوَالي منَ الأخَلاقِ التي تُحَبُّ والتي تُكْرهُ، وما هوَ عليْه منَ الرأيِ الذي يُرْضي له والذي لا يُرْضي.

ثمّ لا تكابْره[٥] بالتّحويلِ له عمّا يحبُّ ويكرهُ إلى ما تُحِبُّ وتَكْرَهُ، فإنَّ هذهِ رياضَةٌ صعْبةٌ تحمِلُ على التنّائي والقِلى.

٦ ـ اعلمْ أنّكَ قلمّا تقدرُ على ردّ رَجُلٍ عنْ طريقتِه التي هوَ عليْها بالمُكابرةِ والمُناقَضة[٦]، وإنْ لمْ يجمَحْ عنِ السّلطةِ، ولكنكَ تقْدرُ أن تعينه

---

(١) **التمحّل**: الاحتيال في الطلب.

(٢) **لا تشوبنه**: لا تخلطنه.

(٣) **الهوى**: ميل النفس إلى ما تستلذ.

(٤) **الخلّتان والخلّتين**: مثنى خلّة وهي الخصلة.

(٥) **كابره**: عانده.

(٦) **المناقضة**: المخالفة يقال ناقض مناقضة قوله الثاني قوله الأول أي خالفه.

علَى أحسنِ رأيِه وتُسَبِّبَ لهُ منه وتُقويَه فيهِ، فإذا قَوَّيْتَ منه المحاسنَ كانتْ هِيَ التي تكفّهُ عن المَساوىءِ، وإذا استحكَمَتْ منه ناحيَةٌ من الصّوابِ كانَ ذلكَ هُوَ الذي يبصِّرُه الخَطَأَ بألْطَفِ من تَبْصيرك وأَعْدلِ منْ حُكْمِكَ في نَفْسه،

فإنَّ الصّوابَ يُريدُ بعضُه بعْضاً ويدعُو بعضُه إلى بعْضٍ، فإذا كانتْ له مكانةٌ اقتلعَ الخطأَ، فاحفَظْ هذا البابَ وأحْكِمْه.

ولا يكونَنَّ طلبُكَ ما عند الوالي بالمَسْألةِ ولا تستبطئه وإن أَبطأَ، ولكنِ اُطلبْ ما قبَلَهُ بالإستحقاقِ لهُ واستأن بهِ وإن طالَتْ الأَناةُ[1] فإنّكَ إذا استحقَقْته أَتاكَ من غير طلَبٍ وإنْ لمْ تستَبْطِئهُ[2] كانَ أعْجَل لهُ.

٧ ـ لا تخبرنَّ الوَالي أنَّ لكَ عليْه حقّاً، وأنّكَ تعتَدُّ عليْه بِبَلاءٍ؛ وإنِ استطعْتَ أن يَنسى حقّك وبَلاءك فافعلَ.

وليكنْ ما يذْكُرُه من ذلكَ تجديدُك له النّصيحَة والإجتهادَ ولا يزال ينظرْ منكَ إلى آخر يذكّره أولَ بلائك.

٨ ـ واعلمْ أنَّ وليَّ الأَمر إذا انقطعَ عنه الآخرُ نسي الأَوّلَ.

وأنّ الكثيرَ من أولئكَ أرحامُهم مقطوعةٌ وحبالُهم مَصْرومةٌ[3] إلا عمّن رضُوا عنه وأغنى عنْهم في يومِهم وساعتِهم.

٩ ـ إيّاكَ أن يقعَ في قلبِك تعتُّبٌ على الوَالي أو استِزْراءٌ[4] له، فإنّه إنْ وَقَعَ في قلبِك بدَا في وَجْهِكَ إن كنْتَ حَليماً، وبدَا على لسانِكَ إنْ كنْتَ سَفيهاً[5].

وإنْ لمْ يزدْ ذلكَ علَى أن يَظْهرَ في وَجْهكَ لآمَنِ النّاسِ عنْدك فلا تَأْمَنَنَّ أنْ يظهرَ ذلك لِلوالي فإنّ النّاسَ إليهِ بعَوْراتِ[6] الإخْوانِ سِراعٌ.

فإذا ظَهَرَ ذَلِكَ لِلْوالي كانَ قلبُه هوَ أسَرعَ إلى التعتّب والتعزّزِ من قلبكِ

---

(١) **الأناة**: الرويّة والتأني، عدم تعجل الأمور.

(٢) **استبطأه**: وجده أو علمه بطيئاً.

(٣) **مصرومة**: مقطوعة.

(٤) **الاستزراء**: الاحتقار.

(٥) **السفيه**: الجاهل، رديء الخلق.

(٦) **عورات**: جمع عورة وهي كل أمر يستحيا منه.

فمحقَ ذلك حسناتِكَ الماضيةَ وأشرفَ بكَ على الهَلاك، وصِرْتَ تعرفُ أَمركَ مُسْتَدبراً وتلتمِسُ مرضاتَه مُسْتصعباً.

١٠ ـ إعْلَمْ أنَّ أكثَرَ النّاسِ عدّواً مجاهِراً حاضِراً جريئاً واشِياً، وزيرُ السّلطان ذو المكانَة عندَه لأنّه مَنْفوسٌ[١] عليهِ بما ينفسُ على صاحبِ السّلطان، ومحسودٌ كما يحسدُ غيره.

غيرَ أنهُ يجترأُ[٢] عليه ولا يُجْترأ على السّلطانِ لأنّ من حاسدِيه أحباءُ السّلطان الذين يشاركُونهُ في المدَاخِل والمنازِل، وهم وغيرهُم من عدّوهِ الذين هُم حُضّاره ليسوا كعدوٍّ من فَوقه النّائي عنهُ المتكتّم منهُ.

وهُمْ لا ينقَطِعُ طمعُهم من الظَّفرِ بهِ فلا يغفلونَ عن نَصْبِ الحَبَائلِ[٣].

فاعرفْ هذه الحالَ والبِسَنْ لهؤلاءِ القومِ الذينَ هم أعداؤُك سلاحَ الصّحَةِ والإستقامةِ ولزومَ الحُجّةِ فيما تُسِرُّ وتُعْلِنُ..

ثم رَوّحْ[٤] عن قلبك كأنّهُ لا عَدُوٌّ لكَ ولا حاسِدَ وإنَ ذكرَكَ ذاكرٌ عندَ وليّ الأمرِ بسوءٍ فيَ وجْهك أو في غيْبك، فلا يريَنَّ منك الوالي ولا غيرُه اختلاطاً لذلكَ ولا اغتياظاً..

ولا يقعَنَّ ذلكَ موقعَ ما يكرثُك[٥]، فإنّه إنْ وقعَ منك ذلكَ الموقعُ أدخلَ عليك أموراً مشتبهَةً بالرّيب مذكّرةً لما قالَ فيك العائبُ.

وإن اضطرّكَ الأمرُ في ذلكَ إلى الجوابِ فإيّاك وجوابَ الغضب والإنتِقام، وعليْكَ بجوابِ الحجّةِ في حلمٍ[٦] ووقارٍ ولا تَشُكَّنَّ في أنَّ القوّةَ والغلبَةَ للحَليم أبَداً.

١١ ـ لا تُحْضِرَنَّ عِندَ الوَالي كَلاماً لا يغني، ولا يُؤمَرُ بحُضورهِ إلا لعنَايةٍ به أو يكونَ جواباً لشيءٍ سئلتَ عنه.

---

(١) منفوس عليه: محسود من نفسه أي أصابه بالعين.

(٢) يُجترأ عليه: يتجرّأ عليه، والتجرؤ التطاول.

(٣) الحبائل: المكايد.

(٤) روّح عن قلبك: أنعشه.

(٥) يكرثك: يشتدّ عليك.

(٦) الحلم: الصبر.

ولا تَعُدَنَّ شتمَ الوالي شتْماً ولا إغلاظَه إغْلاظاً، فإنَّ ريحَ العزِّ قد تبسُط اللسانَ بألفاظٍ في غيرِ سخطٍ ولا بَأس.

١٢ ـ جانبِ المسْخوطَ عليْه والظنينَ بهِ عنْد الولاة.

ولا يجمَعنَّكَ وإيّاه مَجْلِسٌ ولا تُظْهِرَنَّ له عُذْراً ولا تُثْنينَّ علَيْه خيْراً عنْد أحدٍ من النّاسِ.

فإذا رأيتَه قد بلغَ من الإعتابِ[1] مما سخطَ عليْه، فيه ما ترْجو أن يلينَ له الوالي واستيقنتَ أن الوالي قد استيقنَ بمباعدَتكَ إيّاه وشدّتكَ عليْه، فضَعْ عذْرَه عنْد الوالي واعْمَل في إرضائِه عنْه في رِفْق ولُطْف.

١٣ ـ ليَعْلمِ الوالي أنّكَ لا تَسْتنكفُ[2] عنْ خِدْمتهِ.

ولا تدَعْ مع ذلكَ أنْ تقدِّمَ إليْهِ القَوْلَ عنْد بعضِ حالاتِ رضاهُ.

وطيّبْ نفسَه في الاستِعْفاء منَ الأعمالِ التي يكرَهُها ذو الدّين وذو العرْض وذو المروءَةِ من ولايةِ القتْلِ والعَذاب وأشباهِ ذلك.

١٤ ـ إذا أصبتَ الجاهَ والخاصّةَ[3] عنْد الملِك، فلا يحْدِثَنَّ لكَ ذلكَ تغيّراً على أحَدٍ من أهْلهِ وأعوانِه، ولا استغناءً عنْهم.

فإنّك لا تدْري متى يَرى أدْنى جفوةٍ فتذِلّ لهمْ فيها، وفي تلوّنِ[4] الحالِ عندَ ذلك منَ العارِ ما فيه...

١٥ ـ ليكنْ ممّا تُحْكِمُ منْ أمرك أنْ لا تسارَّ أحَداً من النّاسِ، ولا تهمِسْ إليهِ بشيءٍ تخْفيهِ عنِ السّلطان.

فإنَّ السرارَ مما يخيّلُ إلى كلّ من رَآه من ذي سُلطانٍ أنهُ المرادُ به فيكونُ ذلك في نفسِه حسيكةً[5] ووغْراً وثقلاً[6].

---

(١) **الإعتاب**: الإرضاء من أعتبه أي أزال عتبه وترك ما كان يغضب عليه، **والإعتاب أيضاً** الانصراف من أعتب عن...

(٢) **لا تستنكف**: لا تستكبر.

(٣) **الخاصّة**: ضد العامّة.

(٤) **تلوّن الحال**: تغيّره وتبدّله.

(٥) **الحسيكة**: الحقد الدفين والعداوة.

(٦) **الوغر**: الحقد أو الغيظ الشديد من الوغر وهو اشتداد الحرّ ـ **يقال**: وغرته الشمس إذا اشتدّ وقعها عليه.

١٦ ـ لا تتهاونَنَّ بإرسالِ الكذبةِ[1] عندَ الوالي أو غيرِه في الهزْل فإنّها تسرعُ في ردّ الحقِ وإبطالِ الصدْق ممّا تأتي به.

١٧ ـ تنكّبْ فيمَا بينَك وبينَ الوالي خُلُقاً قد عَرَفناهُ في بعْضِ الأَعْوانِ والأَصْحاب في ادّعاءِ الرجلِ عندما يظهرُ من صاحبِه، حسنُ أثَرِ أو صَوابُ رأيٍ، أنّه هو عَملَ في ذلك أو أشارَ به، وإقراره بذلكَ إذا مدحَه مادحٌ..

وإن استطعْتَ أن يعرفَ صاحبُك أنَكَ تنحُله[2] صوابَ رأيِكِ، فضْلاً عنْ أنّكَ تدّعي صوابَهُ وتُسْندُ ذلكَ إليْه وتزينُه فافعلْ! فإنّ الذي أنتَ آخذٌ بذلكَ أكثرُ مما أنتَ مُعْطٍ بأَضْعَاف.

١٨ ـ إذا سَألَ الوَالي غيرَكَ فلا تَكونَنَّ أنتَ المُجيبُ عنه فإنَّ استلابَكَ[3] الكلامَ خِفَّةٌ بكَ واستخْفافٌ منْك بالمسْؤول والسّائِل.

وما أنتَ قائلٌ إذا قالَ لكَ السائِلُ: ما إياكَ سألْتُ، أو قالَ لكَ المسؤولُ عنْد المسألَةِ[4] يُعاد لهُ بها: دونَك فأجِبْ...

وإذا لم يقْصِدِ السّائلُ في المسألةِ لرجُلٍ واحِد وعمَّ بها جماعةً من عنده فلا تبادرنَّ[5] بالجَواب ولا تُسابقِ الجُلساءَ ولا تُواثب الكلامَ مُواثبةً[6]، فإنَّ ذلكَ يَجْمَعُ معَ الشّينِ[7] التكّلفَ والخفّةَ.

إنّكَ إذا سبَقْتَ القومَ إلى الكَلام صارُوا لكلامكَ خُصَماءَ فيتعقّبونَه بالعَيْب والطّعْنِ، وإذا أنتَ لم تعجَلْ بالجَوابِ وخلّيْتَهُ للقَوْم، اعتَرَضْتَ أقاويلَهُم عَلَى عينِك ثمّ تدبّرْتَها[8] وفكَّرتَ فيمَا عندَك، ثم هيّأْتَ من تفكيرك

---

(١) إرسال الكذبة عند الوالي: أي الوشاية.

(٢) تنحله: تنسب إليه.

(٣) الاستلاب: الاختلاس.

(٤) المسألة: الحاجة، المطلب.

(٥) لا تبادرنّ: لا تسرعنّ.

(٦) المواثبة: المبادرة والإنقضاض.

(٧) الشّين: العار، العيب.

(٨) تدبّر الأقاويل: نظر في عواقبها وتفكّر فيها.

ومحاسنِ ما سمِعْتَ جَواباً رضياً، ثم اسْتَدْبَرْتَ به أقاويلَهُم حتى تصيخَ إليكَ الاسماعُ ويهدأَ عَنْكَ الخصومُ.

وإنْ لَمْ يبلُغكَ الكلامُ حتى يكتفيَ بغيرِكَ، أو ينْقَطِعَ الحديثُ قَبلَ ذلكَ فَلا يكون من العيْبِ عندَك، ولا منَ الْغبن في نفسِك فوت[1] ما فاتَكَ من الجَواب.

فإنَّ صِيانَةَ القَوْلِ خيرٌ من سُوءِ وضْعِهِ.

وإنَّ كلمةً واحدةً من الصّوابِ تُصيبُ موضِعَها خيرٌ من مئةِ كلمةٍ أمثالِها في غير فُرَصِها ومَوَاضِعِها.

معَ أنَّ كلامَ العَجَلةِ والبَدارِ[2] موكَلٌ به الزَّلَلُ وسوءُ التقْديرِ وإنْ ظَنَّ صاحُبهُ أنّه قد أتقنَ وأحكم.

١٩ ـ واعْلَمْ أنَّ هَذهِ الأُمورَ لا تُنالُ إلا برَحْب الذّرع[3] عِنْد ما قيلَ وما لَمْ يُقَلْ وقلّةِ الإعْظامِ لما ظهرَ من المروءةِ أو لمْ يظْهَرْ، وسَخَاوةِ[4] النّفسِ عنْ كثيرٍ من الصّوابِ مخافةَ الخِلافِ والعَجَلَةِ والحَسَد والمِراء.

٢٠ ـ إذا كَلَّمَك الوَالي فاصغِ إلى كلامه، ولا تشغَلْ طرفَكَ عنه بنظر ولا أطرافك بعمَل ولا قلبَك بحديث نفسك.

واحذرْ هذا من نفسِك وتعهدْ ما فيه...

٢١ ـ أرفقْ بنظرائك مِنْ وزراءِ السّلطانِ ودُخلائه واتّخذْهم أخواناً ولا تتّخذْهُم أعداءً.

ولا تنافِسْهم في الكلِمة يتقرّبون بها، والعملِ يؤمرون به.

فإنما أنت في ذلك أحدُ رَجُلَيْنِ:

إمّا أنْ يكونَ عندَك فضلٌ علَى ما عنْدَ غيرِك فسوفَ يبدو ذلكَ ويُحتاجُ إليه ويُلتمسُ منك وأنتَ مجمل.

---

(١) فوْت: مصدر فات فوتاً وفواتا الأمر: أي مضى، وذهب وقت فعله.

(٢) بدار: اسم فعل بمعنى أسرع.

(٣) الذّرع: بسط اليد.

(٤) سخاوة النفس: سخاؤها، أريحيّتها وكرمها.

وإمَّا أنْ لا يكونَ ذلك عندَك فما أنتَ مصيبٌ من حاجتِك عندَهم بمقاربتِك وملاينتِك.

وما أنتَ واجدٌ في موافقتِك إيّاهم ولينِكَ لهمْ من موافقتِهم إيّاك ولينِهم لكَ أفضلَ مما أنتَ مدركُه بالمنَافسة والمُناظرة.

٢٢ ـ لا تجترئنَّ على خلافِ أصحابِك عنْدَ الوالي ثقةً باعترافِهم لكَ ومَعْرفتِهم بفَضْل رأيك.

فإنّا قد رأيْنا النّاسَ يعترفونَ بفَضْلِ الرجلِ وينقَادون لهُ ويتعلّمون منه وهُمْ مَعَهُ.

فإذا حضَروا السلطانَ لم يرضَ أحدٌ منهم أن يُقِرَّ له، ولا أنْ يكونَ لهُ عليْه في الرأيِ والعلمِ فضلٌ، فاجترأوا عليه بالخِلافِ والنَّقْض.

فإنْ ناقضهم كانَ كأحدِهم وليسَ بواجدٍ في كُلّ حينٍ سامِعًا فهْما وقاضِياً عَدْلاً وإنْ ترك مناقَضَتَهم صارَ مغلوبَ الرأيِ مردودَ القَوْل.

٢٣ ـ إذا أَصَبْتَ عنْدَ الوَالي لطفَ منزلةٍ لغنَاء[1] يجدُه عندَك أو هوًى يكونُ لهُ فيكَ فلا تطمحَنَّ كل الطّماح.

ولا تُزينَنَّ لكَ نفسُك المزايلةَ لهُ عن أليفهِ وموضعِ ثقتهِ وسرّه قبلَك، بأن تقتلعَه وتدخلَ دونَه.

فإن هذه خلّة[2] من خلالِ السّفه[3] قد يبتلي لها الحُلمَاء عند الدنوّ من ذي السّلطانِ حتّى يحدث الرجلُ منهم نفسُه أن يكونَ دونَ الأهْل والوُلد لفضلٍ يظنُّه في نَفْسهِ أو نقصٍ يظنّه بغيره.

ولِكُلّ رَجُلٍ من المُلوكِ أو ذي هيئَةٍ من السّوقة[4] أليفٌ وأنيسٌ قدْ عرف روحَه واطّلع على قلبه فليستْ عليه مؤونةٌ في تبذّلٍ[5] يتبذّل له عنده، أو رأيٍ يَسْتَنْزِلُهُ منه أو سِرّ يُفْشيهِ إليهِ.

---

(١) الغَناء: الاكتفاء، اليسار.

(٢) الخلّة: الخصلة.

(٣) السّفه: الجهل، رداءة الخلق.

(٤) السّوقة: الرعيّة من النّاس، واللفظة للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث.

(٥) التبذّل: ترك الاحتشام والرثاثة والمبتذل الكثير الاستعمال.

غيْرَ أن تلك الأنسةَ[1] وذلكَ التبذّلَ يستخرجُ من كلّ واحدٍ منهما ما لمْ يكُنْ ليظهرَ منه عندَ الانقباضِ[2] والتشدّدِ، ولو التمسَ ملتمسٌ مثلَ ذلكَ عند من يستأنفُ ملاطفَته ومؤانستَه إن كان ذا فضْلٍ في الرأيِ والعلْمِ لمْ يجِدْ عندَه، مثلَ ما هو منتفعٌ ممّن هوَ دونَ ذلكَ في الرأيِ ممّن قد كُفيَ مؤانستَه ووقَع على طِباعِه،

لأن الأنسةَ روحُ القلْب والوحشةَ روْعٌ عليه[3]، ولا يَلتاطُ[4] بالقُلوبِ إلا مَا لان علَيْها.

ومنَ استقبلَ الأنسَ بالوحشةِ استقبلَ أمْراً ذا مؤونةٍ، فإذا كلفتْك نفسُك السموَّ إلى منزلةِ مَنْ وصفتَ فاقعدْها من ذلك بمعرفةِ فضْل الأليفِ والأنيسِ.

وإذا حدَّثتْك نفسُك أو غيرُك ممّن لعلّه يكونُ لهُ، فضْلٌ في المُروءة.. أنك أوْلى بالمنزلةِ عندَ الكبيرِ مِنْ بْعضِ دخلائهِ وثقاتهِ، فاذكر الذي عليْه من حقّ أليفه وثقتِه وأنيسِه في التكرمةِ والمَكانة.

والذي يُعينُه على ذلكَ من الرأيِ أنّه يجدُ عَنْده من الألفِ والأنسِ ما ليسَ واجِداً عندَ غيره، فليكُن هذا ممّا تتحفّظُ فيه على نَفْسِكَ وتعرفُ فيه عذرَ الرجلِ ورأيَه.

والرأيُ فيه لنفسِك مثلُ ذلك.. إن أرادكَ مريدٌ على الدّخولِ دون أنيسِك وأَليفِك وموضعِ ثقتِك وجِدّك وهزلِك.

٢٤ ـ واعلمْ أنّه تكادُ تكونُ لكلّ رجلٍ غالبةُ حديثٍ، إمّا عنْ بلدٍ من البُلدان أو ضَربٍ من ضُروبِ العِلْمِ أو صنفٍ من صُنوفِ الناسِ أو وَجْهٍ من وُجوه الرأيِ.

وعنْدما يغرمُ به الرجل من ذلك يبدو منه السخفُ ويُعْرَفُ منه الهوى، فاجتنبْ ذلكَ في كلّ موطنٍ ثم عند أولي الأمر خاصةً.

---

(١) **الأنسة**: الاستئناس.

(٢) **الانقباض**: خلاف الانبساط والاتّساع.

(٣) **الروع**: الخوف.

(٤) **يلتاط بالقلوب**: يلتصق بها.

٢٥ ـ لا تشْكُونَّ إلى وزراءِ السّلطانِ ودُخلائهِ[١] ما اطلعْتَ عليه من رأيٍ تكرَهُهُ لهُ، فإنّك لا تزيدُ على أن تفطنَهم لميلهِ وتغريَهم بتّزيينِ ذلكَ لهُ والميلِ عليْك معَه.

٢٦ ـ اعلمْ أن الرجلَ ذا الجاه عنْدَ الوالي والخاصّةِ لا محالةَ أنه يَرىٰ من الوالي ما يُخالفهُ من الرأْي في النّاس والأمورِ.

فإذا آثرَ[٢] أن يكرهَ كلَّ ما يخالفُه أو يمتعضَ من الجفوة يراها في المجْلس أو النبوةِ في الحاجَة أو الردّ لِلرأيِ أوِ الإدناء لمنْ لا يهْوى أدناءَهَ والإقصاءَ لمن يكرهُ أقصاءَه.

فإذا وقعتْ في قلبهِ الكراهيةُ تغيّر لذلك وجهُه ورأيه وكلامُه حتّى يبدوَ ذلك للوالي وغيرهِ وكانَ ذلكَ لفسادِ منزلتِهِ سبَباً.

فذلّلْ نفسكَ باحتمالِ ما خالفكَ من رأيِ الولاةِ وقرّرهَا بأنّهم إنما كانُوا أولياءَك لتتبعَهم في آرائِهم وأهوائِهم ولا تكلّفَهم اتّباعَك وتغضبْ من خلافِهم إيّاك.

٢٧ ـ اعلمْ أنّ الملوكَ يقْبلونَ من وزرائِهم التبخيلَ ويعدّونه منْهم شفقةً ونظَراً، ويحْمدونَهم عليْه وإن كانُوا أجواداً، فإن كنتَ مبْخلاً غششتَ صاحبَك بفسادِ مروءتهِ، وإنْ كنتَ مُسْخياً لم تأمنْ إضرارَ ذلكَ بمنزلتِك عندَه.

فالرأيُ لك تصحيحُ النصيحَة على وجهِها والتماسُ المخرَج فيما تَتركُ من تبخيلِ صاحبِك بأنْ لا يعرفَ منْكَ فيما تدعُوه إليه مَيْلاً إلى شيءٍ من هَواكَ ولا طلباً لغيرِ ما ترجو أن يزيّنَه وينفَعه.

٢٨ ـ لا تكونَنَّ صحبتُك للملوكِ إلا بعْد رياضةٍ[٣] منك لنفسِك على طاعتِهم في المكروهِ عندَك وموافقتِهم فيما خالفَك، وتقديرِ الأمورِ على ميْلهم دون ميلِكَ وعلَى أنْ لا تكتمَهم سرّكَ ولا تستطلعَ[٤] ما كتَموه، وتخفيَ ما

(١) الدّخلاء: جمع دخيل وهو من دخل في قوم وانتسب إليهم وليس منهم، والدخلاء: جمع دخيل وهو الذي يداخل فلاناً من النّاس في أموره.

(٢) آثر: فضّل.

(٣) الرياضة: المداراة للدخول في أمر ما.

(٤) استطلع ما كتموه: حاول الاطلاع عليه.

أطلعوكَ عليه من النّاسِ كلِّهم حتى تحميَ نفسَك الحديثَ.

وعلى الإجتهادِ في رضاهُم والتلطّف لحاجاتهم، والتثبيت لحجّتهم والتصديق لمقالتهم والتزيين لرأيهم. وعلى قلّةِ الاستقباحِ لمَا فعَلوا إذا أساءُوا، وتركِ الاستحسانِ لما فَعلوا إذا أحسنُوا، وكثرةِ النّشر لمحاسنِهم، وحسنِ السّترِ لمساويهِمْ والمقاربةِ[1] لمَنْ قاربُوا وإنْ كانَ بعيداً، والمباعدةِ لمن باعَدوا. . وإن كانوا أقرباءَ والإهتمامِ بأمرهم وإنْ لمْ يهتمُوا به، والحفظ له وإنْ ضيّعوه والذكر له وإنْ نسَوه، والتّخفيفِ عنهم لمؤونتكِ والإحتمالِ لهُم كلَّ مؤونةٍ والرّضى عنهم بالعفوِ، وقلّةَ الرضى من نفسك لهم بالمجهود.

٢٩ ـ فإن وجدت عنهم وعنْ صُحْبتهم غنًى فأغنِ عن ذلكَ نفسَك واعتزلْ جهدَك فإنَّ من يأخذُ عملَهم يحولُ بينه وبينَ لذّةِ الدنيا وعملِ الآخرة، ومنْ لا يأخذُ بحقّه يحتملُ الفضيحةَ في الدّنيا والوِزْرَ[2] في الآخرة.

٣٠ ـ إنّك لا تأمنُ أنفَهم إنْ أعلمْتَهم ولا عقوبتَهم إنْ كتمْتَهم.

ولا تأمنُ غضبَهم إن صدَقْتَهم.

ولا تأمَنْ سلوتَهم إن حدَّثْتَهم.

إن لزمتهمْ لم تأمنْ تبرّمَهم[3] بك، وإن زايَلْتَهمْ لمْ تأمنْ عقابَهم.

وإنك إنْ تستأمرْهمْ حملتَ المؤونةَ عليهِمْ وإن قطعْتَ الأمرَ دونَهم لمْ تأمَنْ فيه مخالفَتهم.

إنّهم إنْ سخطُوا عليك أهلكوك وإن رضُوا عنك تكلفْتَ منْ رِضاهم ما لا تطيق.

فإن كنتَ حافظاً إنْ بلَوك[4]، جلْداً إنْ قرّبوك، أميناً إنْ أئتمنُوك، تشكرْهم ولا تكلفْهم الشكرَ، بصيراً بأهوائِهم مُؤْثِراً لمنافعهم، ذليلاً، إنْ

---

(١) المقاربة: التقرّب.

(٢) الوزر: العبء والثقل والوزر أيضاً: الإثم.

(٣) التبرّم: التضجّر.

(٤) بلوك: اختبروك.

ظلموك، راضياً إنْ اسخطوك[١]... وإلا فالبُعدُ منهُم كلّ البعْد والحذَر كلَّ الحذر.

(٤)

●

سياسة الصّديق

● **الوَفاءُ للصَّديق**

ابذُل لصديقِك دَمَك ومالَك، ولمعْرفتِك رفدَك[٢] ومحضَرك، وللعامّةِ بشرَك وتحنّنك ولعدوّك عدلَك واضنُنْ بدينِك وعرضِك عنْ كلّ أَحدٍ.

إنْ سمِعْت مِنْ صاحبِك كَلاماً أَو رأياً يعجُبك فلا تنتحلْه تزيناً بهِ عنْدَ النّاسِ، واكتَفِ من التّزيُّنِ بأَنْ تَجْتنيَ الصَّوابَ إذا سمِعتَه وتنسُبَه إلى صاحبه. واعَلَمْ أنَّ انتحالَك[٣] ذاكَ مسْخطةٌ لصاحبكَ وأنَّ فيه معَ ذلكَ عاراً. فإنْ بلَغَ ذلكَ بِكَ أَنْ تُشيرَ بِرَأْيِ الرّجُلِ وتَتَكّلَمَ بكلامِهِ وهْو يَسْمَعُ جمعت مع الظّلم قِلّةَ الحَيَاء وَهَذا منْ سُوءِ الأَدَبِ الفَاشي[٤] في النّاس، ومِن تمام حُسْنِ الخُلُقِ والأَدَبِ أن تسْخو نفسُك لأخيكَ بما انتحَل من كلامِكَ ورأيكَ وتنسبَ إليه رأيهَ وكلامَه وتزيِّنه معَ ذلك ما استطعتَ.

● **تدبّرُ الرأي**

لا يكونَنَّ من خُلقِكَ أنْ تبتدىءَ حَديثاً ثم تَقْطَعُه وتقولُ سَوْفَ.. كأنّكَ روّأتَ[٥] فيهِ بعد ابتِدائهِ، وليَكُنْ تَروّيكَ فيه قَبْلَ التفّوه بهِ فإنِ احتجانَ[٦] الحَديثِ بعدَ افتتاحِهِ سُخْفٌ وغمٌّ[٧].

أخزنْ عقلَك وكلامَك إلا عنْدَ إصابةِ المَوْضعِ فإنّه ليْس في كُلّ حينٍ يَحْسُنُ الصّوابُ.

---

(١) **أسخطوك**: أثاروا سخطك أي أغضبوك.

(٢) **الرفد**: العون، المساعدة.

(٣) **الانتحال**: الإدعاء من نحل القول أضاف إليه قولاً قاله غيره وادّعاه عليه.

(٤) **سوء الأدب الفاشي**: المتفشّي، المنتشر.

(٥) **روّأ ترويئاً في الأمر**: نظر فيه وتفكّر في ظروفه وعواقبه.

(٦) **احتجان الحديث**: حجره، ضمّه إلى نفسه.

(٧) **الغمّ**: الحزن والكرب.

وإنّما تـمامُ إصابةِ الرأْيِ والقَوْلِ بإصابةِ المَوْضع فإنْ أخطأَك ذلك أدخلتَ المحْنةَ على عَمَلِك حتّى تأتيَ بهِ إن اتيتَ به في غَيرِ موضِعه وهو لا بهاءَ ولا طلاوَةَ له.

ليعْرفِ العُلماءُ حينَ تُجالسُهم أنّك على أن تسمعَ أحرصُ منْك على أنْ تقول.

● **تجنّب الهَزْل**

إنْ آثرتَ أن تُفاخِرَ أحداً ممّن تستأنِسُ إليه في لهوِ الحَديثِ فاجعَلْ غايةَ ذلك الجِدّ ولا تَعدوَنَّ[1] أن تتكلمَ فيه بما كان هزلاً.

فإذا بلغَ الجِدّ أو قاربَه فدَعْه ولا تخلُطَنَّ بالجِد هَزْلاً، ولا بالَهَزْل جِداً فإنّك إنْ خلطتَ بالهزل جداً هجّنتَه وإن خلطّتَ بالهزلِ جداً كدّرته.

غير أني قدْ علمتُ مَوْطِناً واحِداً إنْ قدرتَ أن تستقبلَ فيه الجِدّ والهزْلَ أصبْتَ الرأيَ وظهَرْتَ على الأقرانِ[2] وذلكَ إنْ يتورّدَك متورّد بالسّفهِ والغَضَبِ فتجيبَه إجابةَ الهازلِ المُداعبِ[3] برحْب من الذّرعِ وطلاقَةٍ من الوجْه[4] وثباتٍ من المَنْطقِ.

● **علاقة الصاحِبِ بالعَدُوّ**

إنْ رأيتَ صاحبَك معَ عدوِّك فلا يغضبنَّكَ ذلك فإنّما هو أحدُ رجُلين: إنْ كانَ رجُلاً من إخوان الثّقةِ فأنفَعُ مواطنهِ لكَ أقربُها من عدوّكَ، لشرٍّ يكفُّهُ عنكَ وعَوْرَةٍ[5] يستُرها منْكَ وغائبةٍ يَطّلعُ عَلَيْها لكَ.

فأما صديقُكَ فما أغْناكَ أن يحضرَه ذو ثقتِك، وإن كانَ رجلاً من غيرِ خاصّةِ إخْوانِكِ، فَبِأيِّ حَقٍّ تَقْطَعُهُ عن النّاسِ وتُكَلّفُهُ أنْ لا يصاحِبَ ولا يُجالِسَ إلا منْ تهوى.

---

(١) **لا تعدونّ**: لا تتخبطنّ أو لا تتجاوزن.

(٢) **الأقران**: جمع قرين وهو العشير والزوج والصاحب.

(٣) **المداعب**: الملاعب.

(٤) **طلاقة الوجه**: بشاشته.

(٥) **العورة**: كل ما يستحيا منه، العيب.

● **التحفظ وعدمُ التّطاوُل**

تَحفَّظْ في مَجْلِسِكَ، وكلامِكَ من التّطاوَلِ[1] علَى الأَصْحابِ وطِبْ نفساً عنْ كثيرٍ ممّا يعرضُ لكَ فيه صوابُ القولِ والرأيِ مُداراةً لئِلا يظنَّ أصحابُكَ أن ما بكَ التطاولُ عليهم.

إذا أقبلَ إليْك مُقبلٌ بودّه فسّرك ألا يدْبرَ عنْك فلا تنعم الإقبالَ عليه والتفتّح[2] له، فإنّ الإنسانَ طُبِعَ علَى ضَرائبِ[3] لؤمٍ فمِنْ شأنِه أن يرحَلَ عمّنْ لصِقَ به ويلصقَ بمن رحَل عنه.

● **إيّاك والادّعاء**

لا تكثرنَّ ادعاءَ العلم في كلّ ما يعرضُ فإنّك منْ ذلكَ بينَ فضيحتَيْن:

إمّا أن ينازِعُوك[4] فيما أدّعيتَ فيهجمَ منْك على الجَهَالة والصَلَف[5].

وإمّا ألا يُنازعوك ويُخلوا في يديك ما ادّعيت فينكشفَ منكَ التصنّعُ والمعْجزَةُ.

استحي الحَيَاءَ كلّه منْ أنْ تخْبرَ صاحبَك أنَّك عالِمٌ وأنه جاهلٌ، مصرّحاً أو معرّضاً[6]، وإن استطلتَ على الأكفاء فلا تثقنَّ منهم بالصَّفاء.

إن آنستَ من نفْسك فضْلاً فتحرّجْ أن تذكرَه أو تبديَه واعلمْ أنَّ ظهورَه منكَ بذلكَ الوجهِ يقرّرُ لك في قلوبِ النّاسِ، من العَيبِ أكثرَ ممّا يقرّر لكَ من الفَضْل.

واعْلمْ أنّكَ إن صَبِرْتَ ولم تَعْجلْ ظهرَ ذلك منْك بالوَجهِ الجميلِ المعروفِ.

ولا يخْفيَنَّ عليْكَ أنَّ حِرْص الرّجلِ على إظْهارِ ما عنْده وقلّةَ وقارِه في ذلك بابٌ من البُخْلِ واللؤْمِ، وأنّ من خيرِ الأعوانِ على ذلك السخاءُ والتكرُمُ.

---

(١) **التطاول على الأصحاب**: التكبرّ والترفّع عليهم.

(٢) **التفتّح**: الانفتاح، والتفتّح في الكلام المجاهرة والتفاخر به على فلان.

(٣) **ضرائب**: طبائع، جمع ضريبة.

(٤) **ينازعوك فيما ادّعيت**: يخاصمونك.

(٥) **الصلف**: التكبّر، الإعجاب بالنفس.

(٦) **معرّضاً**: اسم فاعل من عرّض بفلان: ذمّه أو انتقده دون ذكره.

● **التودّد للعامّة**

إن أحببْتَ أن تلبسَ ثوبَ الوقارِ والجَمالِ وتتحلّى بحليةِ المودّةِ عنْدَ العامّة وتسْلكَ الجَددَ الذي لا خبارَ[1] فيه ولا عِثارَ[2] فكنْ عالِماً كجَاهلٍ وناطِقاً كَعَييَ[3].

فأما العِلْمُ فيرشِدُكَ وأما قلّةُ ادْعائهِ فينْفي عنك الحسدَ، وأما المنْطقُ إذا احتجتَ إليه فسيُبلغُك حاجَتك، وأمّا الصَمْتُ فيكسبُكَ المحبّةَ والوَقار.

وإذا رأيْت رجُلاً يحدّثُ حديثاً قد علمْتَه أو يخْبرُ خَبراً قد سمِعْتَه فلا تشاركْه فيهِ ولا تتعقَّبْه[4] عليْه حرْصاً علَى أنْ يعلمَ النّاسُ أنّكَ قد علِمْتَهُ، فإنَّ في ذلكَ خفّةً وشُحاً وسوءَ أدبٍ وسُخْفاً.

ليعْرِفْ إخوانُك والعامّة أنّكَ ـ إن استطعتَ ـ إلى أنْ تفعلَ ما لا تقولُ أقربُ منكَ إلى أنْ تقولَ ما لا تفْعلُ.

فإنَّ فضْلَ القوْلِ على الفِعْل عارٌ وهجْنةٌ[5]، وفضْلَ الفِعْلِ على القَوْل زينَةٌ.

وأنتَ حقيقٌ[6] فيما وعَدْتَ مَنْ نفسِك أَو أخبرتَ صاحبَك عنْه، أن تحتجنَ بعضَ ما في نفسِك إعْداداً لفضلِ الفعل على القول، وتحرّزاً بذلكَ عن تقْصيرِ فعلٍ إن قصرَ وقلّما يكونُ إلا مُقصراً.

● **توخّي رِضَى الصّديق**

احفَظْ قولَ الحكيم الذي قالَ:

لتكنْ غايتُكَ فيما بينَك وبينَ عدوّك العدلَ، وفيما بينَك وبين صديقِك الرّضى، وذلكَ أن العدوَّ خصْمٌ تضربُه بالحّجةِ وتغلبهُ بالحكام وأن الصديقَ ليْس بينَك وبينَه قاضٍ فإنّما حكمُه رِضاه.

---

(١) **الخبار**: ما لان من الأرض واسترخى.
(٢) **العثار**: التعثر، الزلل والسقوط.
(٣) **العيي**: العاجز عن الإفصاح.
(٤) **تعقّبه**: تتبّعه.
(٥) **الهجنة**: العيب والقبح أو ما يعيبه الإنسان.
(٦) **أنت حقيق في**: أنت جدير...

إجعلْ غايةَ تشبّثكَ[1] في مُؤاخاةِ منْ تُؤاخي ومُواصلةِ منْ تُواصِلُ توطينَ[2] نفسك علَى أنّه لا سبيلَ لكَ إلى قطيعةِ أخيكَ وإنْ ظهرَ لك منه ما تكرهُ فإنّه ليسَ كالمرأةِ التي تطَلقُها إذا شئتَ، ولكنّه عرضُك ومروءتُك.

فإنّما مروءةُ الرجل إخوانهُ وأخْدانُه[3]، فإن عثرَ النّاسُ على أنكَ قطعتَ رجُلاً من إخوانِك وإن كنتَ معذراً، نزل ذلكَ عنْدَ أكثرِهِمْ بمنزلةِ الخِيانَةِ للإِخاء والمَلالِ.

وإنْ أنتَ صبرْتَ مع ذلكَ على مقارّتهِ على غيْرِ الرّضى عادَ ذلكَ إلى العَيْب والنَقيصةِ، فالاتئاد الاتئاد[4] والتثبّتَ التثبّت[5].

● اختيارُ الأصْحاب

إذا نظرْتَ في حالٍ من ترتّيهِ لإِخائِكَ فإن كانَ من إخوانِ الدّينِ فليكُنْ فقيهاً ليس بمُراءٍ ولا حَريصٍ.

وإن كانَ منْ إخوانِ الدّنيا فليكنْ حرّاً ليسَ بجاهلٍ ولا كذّابٍ ولا شِرّير ولا مشنوعٍ، فإنّ الجاهِلَ أهلٌ لأن يَهْربَ منه أبواه، وإنّ الكذّابَ لا يكون أخاً صادقاً لأنّ الكذِبَ الذي يجْري على لسانِهِ إنّما هو من فُضول كذبِ قلبهِ.

وإنما سُمّي الصديقُ من الصّدقِ، وقد يتهّم صدقُ القلبِ وإن صدقَ اللسانُ فكيْفَ إذا ظهرَ الكَذبُ على اللسان وإنّ الشرّيرَ يكْسِبُكَ العَدُوَّ ولا حاجَةَ لك في صداقةٍ تجلبُ العداوةَ، وإنّ المشنوعَ[6] شائِعٌ صاحبَه.

● مغبّةُ الغُرور

تحرّزْ من سُكْرِ[7] السَلْطةِ وسُكْرِ العِلْمِ وسُكْرِ المنزلةِ وسكْرِ الشّبابِ،

(١) **التشبث في المؤاخاة**: التمسّك بها.
(٢) **توطين النفس على**: حملها على.
(٣) **الأخدان**: جمع خدن وهو الصاحب أو الحبيب.
(٤) **الاتئاد**: التمهّل.
(٥) **التثبّت في الأمر والرأي**: التأنّي فيه، والتثبّت الفحص عن الأمر والمشاورة فيه.
(٦) **المشنوع**: اسم مفعول من شنع شنعاً (ه): استقبحه.
(٧) **سكر السَلطة**: نشوتها وسحرها.

فإنّه ليسَ من هذا شيءٌ إلا وهو ريحُ جنّةٍ تسلبُ العقلَ وتُذْهِبُ الوَقارَ وتَصْرفُ القلْبَ والسّمْعَ والبَصَرَ واللسانَ عن المَنافع.

اعلمْ أن انقباضَك[1] عن النّاسِ يُكسِبُكَ العداوةَ وأنَّ انبساطَك لهمْ يُكسبُك صديقَ السّوءِ.

وفسولةُ[2] الأصدقاءِ أضرٌ من بُغْضِ الأعداءِ، فإنّك إنْ واصلْتَ صديقَ السوء أعْيتْكَ جرائِرُه، وإنْ قَطَعْتَه شانَك اسمُ القَطيعةِ، وألزمَك ذلكَ منْ يرفعُ عيبَك ولا ينشرُ عذرك فإن المعايبَ تنمَى والمعاذيرَ لا تَنْمى.

● **سياسَةُ العُقَلاء والجَهَلَة**

ألبسِ النّاسَ لِباسين ليسَ للعاقلِ بدٌّ منهما ولا عيشَ ولا مروءةَ إلا بهما: لباسَ انقباضٍ واحتجازٍ تلبسُه للعامّة فلا تُلفَينَّ إلا متحفّظاً متشدّداً متحرّزاً مستعدّاً.

ولباسَ انبساط واستئناسٍ تلبُسه للخاصّة من الثّقاتِ فتتلقاهمْ ببناتِ صدرِك[3] وتُفْضي إليْهم[4] بموضوعِ حديثِك.

وتضعُ عنك مؤونةَ الحذَرِ والتحَفّظِ فيما بينَك وبينَهم، وأهلُ هذهِ الطبقةِ الذين همْ أهلُها قليلٌ، لأنَّ ذا الرأيَ لاَ يُدْخلُ أحداً من نفْسه هذا المدخَل إلا بعدَ الاختبارِ والسّبر والثقةِ بصدقِ النّصيحةِ ووفاءِ العهْد.

● **اللسانُ من وراءِ العَقْل**

اعلمْ أن لسانَك أداةٌ مصلتةٌ يتغالبُ عليْهِ عقلُك وغضبُك وهوَاكَ وجهلُك، فكلّ غالبٍ عليْه مستمتعٌ بهِ وصارفُه في محبّته.

فإذا غلبَ عليْه عقلُك فهو ذلكَ وإذا غلَبَ عليْه شيءٌ من أشباهِ ما سمّيتُ لك فهو لعدوّك، فإن استطعتَ أنْ تحتفظَ بهِ فلا يَكونُ إلا لكَ ولا يَسْتولي عليهِ أو يشارِكُك عدوُّكَ فيه فافعلْ.

---

(١) الانقباض عن النّاس: الانكماش.
(٢) فسولة الأصدقاء: فتورهم.
(٣) بنات الصدر: الأفكار والخواطر.
(٤) تفضي إليهم: توصل إليهم، تعلمهم بالسرّ.

● **مقاسمةُ الصَديق في البَلوى**

إذا نابَتْ[1] أخاك إحدى النَوائبِ من زوال نعمةٍ أو نزولِ بليّةٍ، فاعْلمْ أنّك قد ابتليتَ معهُ إمّا بالمؤاساةِ فتُشاركُه في البليّة، وإمّا بالخِذْلان فتحتملُ العار.

فالتمِس المخْرجَ عندَ اشتباهِ ذلك، وآثِرْ مروءَتك على ما سِوَاها، فإنْ نزلتْ الجائحة[2] التي تأبى نفسُك مشاركةَ أخيكَ فيها، فأجمِلْ فلعلَّ الإجمالَ يسعُك لقلّتِه في النّاسِ.

●

● **لا تجنَبْ ولا تطَاولْ**

إذا أصابَ أخاكَ فضْلٌ فإنّهُ ليْسَ في دُنوّكَ منه وابتغائِكَ مودّتهُ وتواضعِك له مذَلّةٍ فاغتنمْ ذلكَ واعمَلْ فيهِ...

إذا كانَتْ لكَ عنْد أحدٍ صَنيعةٌ[3] أو كانَ لكَ عليْه طوْلٌ[4] فالتمِسْ إحْياءَ ذلك بإماتَتِه وتعْظيمهِ بالتّصْغيرِ لهُ.

ولا تقتصِرَنَّ في قلّة المنّ على أنْ تقول: لا أذْكُره ولا أُصْغي بسمْعي إلى منْ يذكُره، فإنَّ هذا قدْ يستحيي منه بَعْضُ منْ لا يُوصَفُ بعَقْلٍ ولا كرم.

ولكنِ احذَرْ أنْ يكونَ في مجالستِك إيّاه وما تكلّمُه بهِ أو تستعينُه عليْه أو تجاريهِ فيهِ شيءٌ من الاستطالةِ[5] فإنَّ الاستطالةَ تهدّمُ الصنيعةَ وتكدّرُ المَعْروفَ.

● **الاحتراسُ منَ الأهْواء**

إحْترسْ من سَوْرة[6] الغضبِ وسورة الحميةِ[7] وسورة الحِقْدِ وسورة الجَهْلِ وأَعْدِدْ لكلّ شيءٍ من ذلك عُدَّةً تجاهِدُه بها من الحِلم والتفكّر والروّيةِ وذكرِ العاقبةِ وطلَبِ الفضيلَةِ.

---

(١) **نابت أخاك نائبة**: ألمّت به مصيبة.

(٢) **الجائحة**: البليّة والتهلكة والدّاهية العظيمة.

(٣) **الصنيعة**: الإحسان والفضل.

(٤) **الطول**: القدرة والفضل.

(٥) **الاستطالة**: التطاول.

(٦) **سورة الغضب**: سلطان الغضب، حدّته.

(٧) **الحمية**: الحفاظ والمروءة.

وأعلَمْ أنَّكَ لا تُصيبُ الغَلبةَ إلا بالجهادِ وأنَّ قلّةَ الإعدادِ لمُدافعةِ[١] الطّبائع المتطلعَةِ هوَ الاسْتِسْلامُ لها، وأنّه ليْس أحدٌ إلا فيه منْ كلّ طبيعةِ سوءُ غريزةٍ.

وإنّما التَفاضُلُ بينَ النّاسِ في مُغالبةِ طبائع السَوء، فأما أن يسلمَ أحدٌ منْ أنْ تكونَ فيه تلكَ الغرائزُ فليسَ في ذلكَ مطمَعٌ، إلا أنّ الرجلَ القويَّ إذا كابَرها بالقَمْع لهَا كلّها كلّما تطلعتْ لم يلبثْ أن يميتَها حتّى كأنّها ليستْ فيه.

وهيَ في ذلكَ كامنةٌ[٢] كمونَ النّار في العُود فإذا وجدَتَ قادحاً[٣] من عِلّةٍ أو غفْلة استورَت. . . كما تَسْتوري النّارُ عنْد القدْح ثم لا يبدأُ ضرُّها إلا بصاحبها كمَا لا تبدأ النار إلا بعودِها التي كانتْ فيه.

● فَضيلَةُ المُصَابرة

ذلّلْ نفسَك بالصبرِ علَى جارِ السّوءِ وعَشيرِ السّوء وجليسِ السوءِ فإنَّ ذلكَ ما لا يَكادُ يُخطِئكَ فإنَّ الصّبْر صَبْران:

صبرُ الرجلِ علَى ما يكرهُ، وصبرُه عمّا يحبّ، فالصبْر على المَكروهِ أكثرُهما وأشبهُهما أنْ يكونَ صاحبهُ مضطَراً.

واعلمْ أنّ اللئامَ أصبرُ أجْساداً والكرامَ أصبرُ نفوساً، وليْس الصبرُ الممدوحُ بأنْ يكونَ جلدُ الرجلِ وقاحاً[٤] أو رجلُه قويةً على المشي أو يدُه قويةً على العمل، فإنّما هذا من صفاتِ الحَمير.

ولكنْ أن يكون للنفسِ غَلُوباً وللأمور مختمَلاً وفي الضرّ متجمّلاً، ولنفسِه عندَ الرأيِ والحِفاظِ مُرْتبطاً، وللحزْم مُؤْثراً وللهوى تاركاً، وللمشَقّةِ التي يَرْجو عاقبَتها مستخفّاً وعلَى مُجَاهَدةِ الأهْواءِ والشّهواتِ مُواظباً ولبصَره بعَزمه مُنَفّذاً.

---

(١) مدافعة الطبائع: دفعها وقهرها والتصدّي لها.

(٢) كامنه: مستترة، خفيّة.

(٣) القادح: من قدح النّار بالزند أي حاول إخراج النار منه، والقادح المؤثّر والثاقب والعيّاب.

(٤) الوقاح: ذو الوقاحة أو القليل الحب للمذكّر والمؤنث.

● فَضِيلَةُ العِلْمِ

حبّبْ إلى نفسِكَ العِلمَ حتّى تألفَه وتلزمَه ويكونَ هو لهُوك ولذّتُك وسلوتُك وبُلْغتُك.

واعلمْ أنّ العِلمَ عِلْمان علمٌ للمنافِع وعلمٌ لتزكيةِ[1] العُقول، وأفْشى العِلْمين وأجداهُما أن ينشَطَ لهُ صاحبُه من غيرِ أنْ يحرّضَ عليْه علمُ المنافع.

ولِلْعلْم الذي هو ذكاءُ العقولِ وصقالُها[2] وجلاؤُها فضيلةُ منْزلةٍ عندَ أهلِ الفضْل فَي الألبابِ.

●

● فضيلةُ الجود والسّخاء

عَوِّدْ نفسَك السَّخاءَ واعلمْ أنّهما سَخَاءان سخاوةُ نفسِ الرّجُلِ بمَا في يدَيْه، وسخاوتُه عمّا في أيْدي النّاس.

وسخاوةُ نفْسِ الرجلِ بِمَا في يديْه أكثرُهما وأقربُهما منْ أنْ تدخلَ فيه المفاخرةُ ما في أيدي النّاس أمحضُ في التكرّم وأنزهُ من الدّنَس...

فإنْ هو جمَعَهُما فبذلَ وعَفَّ فَقدِ اسْتكمَلَ الجُودَ والكَرَم.

● قُبْحُ اللُّؤم والحَسَد

ليكنْ ممّا تصرفُ به الأذى والعذابَ عنْ نفسِك ألا تكونَ حسُوداً فإنَّ الحسدَ خُلُقٌ لئيمٌ ومنْ لؤمِهِ أنّهُ يوكلُ بالأدنى فالأدنى منَ الأقاربِ والأكفاءِ والخُلَطاء[3].

فليكُنْ ما تقابِلُ بهِ الحسَدَ أنْ تعلمَ أنّ خيرَ ما تكونُ حينَ تكونُ مع من هو خيرٌ منك، وأنّ غنماً لك أن يكونَ عشيرُك وخليطُك أفضلَ منك في العلْم فتقبسُ منْ علمِه، وأفْضلُ منْكَ في القوّةِ فيدفَعُ عنْك بقوّتهِ، وأفْضل منْكَ في المَال فتفيدُ من مالِه، وأفضَلُ منْك في الجَاه فتصيبُ حاجتَك بجاهِه، وأفضلُ منْك في الدّينِ فتزدادُ صَلاحاً بصَلاحه.

---

(١) تزكيةُ العقول: تنميتها والزيادة فيها.

(٢) صقال العقول: شحذها وتجليتها وكشف صلك الجهالة عنها.

(٣) الخلطاء: جمع خليط وهو الصاحب والعشير والزوج.

ليكنْ ممّا تنظُر فيهِ مِن أمرِ عدوِّك وحاسِدِك أنْ تعلَم أنّه لا ينفَعُكَ أنْ تُخْبِرَ عدوَّك أنَّكَ لهُ عدوٌ فتنذرهُ بنفسِك وتؤذنُه بحَرْبِك قبْلَ الإعدادِ والفُرصةِ فتحملُه على التسلّح لكَ وتُوقِدُ نارَه عليك.

● سياسة العدوّ

١ ـ اعلمْ أنّه أعظمُ لخطَرك أنْ يرى عدوُّك أنّك لا تتخذه عدوّاً فإنّ ذلك غرّةٌ له وسبيلٌ لكَ إلى القُدْرةِ عليه.

فإن أنتَ قدرْتَ فاستطَعْتَ اغتِفاراً لِعداوته عنْ أنْ تكافىءَ بها، فهنالك استكملتَ عظيمَ الخَطَر، وإنْ كنتَ مكافئاً بالعَداوة والضّرر فإيّاك أنْ تكافىءَ عداوةَ السرّ بعداوةَ العلانية، وعداوةَ الخاصّة بعداوة العامّة فإنّ ذلكَ هو الظُّلْم والعَارُ.

واعْلَمْ معَ ذلكَ أنَّه ليسَ كلُّ العداوةِ والضّررِ يُكافأ بمِثْلِهِ! كالخيانَةِ لا تُكافأ بالخِيانة والسرقةُ لا تُكافأ بالسّرقة.

ومن الحِيلة في أمرِك مع عدوّك أن تصادقَ أصدقاءَه وتؤاخيَ إخوانَه فتدخلَ بينَه وبينَهم في سبيلِ الشّقاق[١] والتّجافي، فإنّه ليسَ رجلٌ ذو طَرْق[٢] يمتنعُ من مؤاخاتِك إذا التمستَ ذلكَ منه، وإن كانَ إخوانُ عدوّك غيرَ ذوي طرق فلا عدو لك.

٢ ـ لا تَدَعْ معَ السّكوتِ عن شتْم عدوّك إحصاءَ معايبِهِ ومثالبِه[٣]، واتّباعَ عَوْراته حتّى لا يشذَّ عنكَ[٤] منْ ذلَك صغيرٌ ولا كبيرٌ، من غيرِ أن تشيعَ عليهِ فيَتقيكَ بهِ ويستعدَّ له، أو تذكرَه في غيرِ موضعِه فتكونَ كمستعرضِ الهواءِ بنبلهِ قبل إمكانِ الرَّمْي.

٣ ـ لا تَتَّخِذْ اللعْنَ والشَّتْمَ عَلَى عَدُوّكَ سِلاحاً فإنّه لا يجرَحُ في نفْسٍ ولا في مالٍ ولا دينٍ ولا منزلةٍ.

٤ ـ إن أردْتَ أنْ تكونَ داهِياً[٥] فلا تحبَّنَّ أن تُسمى داهياً، فإنّهُ من

---

(١) **الشّقاق**: التنازع، التخاصم.

(٢) **طَرْقُ الرجل طرقاً**: أي ضربه بالمطرقة **والطرق** زيارة القوم ليلاً، **والطرق** المرّة والدفعة.

(٣) **المثالب**: العيوب.

(٤) **شذّ عنك**: خالفك.

(٥) **الداهي**: ذو الدهاء، المحنّك.

عُرِفُ بالدّهاءَ خاتَلَ علانيةً وحذِره النّاسُ حتّى يمتنعَ منْهَ الضّعيفُ.

وإنّ من إربِ[1] الأريبِ دفنُ إرْبه ما استطاعَ حتّى يُعْرفَ بالمسامَحة في الخَليقَةِ والإستقامَةِ في الطّريقَةِ ومِنْ إربِه ألا يؤاربَ العاقلَ المستقيمَ لهُ الذي يطّلعُ على غامضِ إربهِ فيمقُته علَيْه.

٥ ـ إنْ أَردتَ السّلامةَ فأَشعِرْ قلبَك الهيبَةَ للأُمورِ من غيْرِ أن تَظْهَرَ منْكَ الهيبَةُ، فيفطُنُ النّاسُ لهيبَتِك، وتُجَرّئِهمْ عليْك، ويدعُو ذلكَ إليْكَ منْهمْ كلّ ما تَهابُ.

فأشعبْ لمداراةِ ذلكَ منْ كتمانِ المَهَابةِ وإظْهارِ الجَراءةِ والتهاونِ طائفةً من رأْيكَ، وإنِ ابتليتَ بمُجازاةِ، عدوٌ مُخالفِ فَالزَمْ هذهِ الطريقَةَ التي وَصَفْتُ لكَ منِ استِشْعارِ الهيبَةِ وإظْهارِ الجَراءَةِ والتّهاونِ، وعليْكَ بالحذَرِ في أمرِك والجراءةِ في قلبِك حتّى تملأَ قلبك جراءةً ويستفرغ عملُك الحَذَرَ.

٦ ـ إنّ من عدّوك منْ تعملُ في هَلاكه ومنْهم منْ تعملُ في البعْد عنه، فاعرفهُم على منازِلهم.

ومنْ أقوى القوّة لكَ على عدّوك وأعزْ أنصارِك في الغلبَةِ لهُ، أن تُحْصِيَ على نفسِك العيوبَ والعوراتِ[2] كلّما أحصيتَها على عدّوك، وتنظرَ عندَ كلّ عيبِ تراهُ أو تسمعُه لأحدِ من النّاس، هل قارفتَ[3] مثله أو مشاكلَه.

فإنْ كنْت قارفْتَ منْهُ شيئاً فأخْصِهِ فيما تُحْصي على نَفْسكَ حتى إذا أحصيْتَ ذلكَ كلّه، فكابرْ عدّوك بإصلاحِ عيوبِك وتحصينِ عوراتِك وإحرازِ مقاتلِك.

وخذْ نفسَك بذلكَ مُمْسِياً مُصْبِحَاً، فإذا آنسْتَ منها دفعاً لِذلِك أو تَهاوُناً بهِ فاعددْ نَفْسَك عاجزاً ضَائِعاً خَائِباً معوراً لعدوّكَ ممَكّناً له من رَمْيكَ.

وإنْ حَصَلَ منْ عيوبِكَ بعْضُ ما لا تَقْدِرُ على إصْلاحهِ منْ أمرِ قد مضَى

---

(١) الإرب: الحاجة.

(٢) العورات: جمع عورة وهي ما يستحيا منه.

(٣) قارفت مثله: اقترفته، ارتكبته.

يعيبك عنْدَ النّاس ولا تَراه أنتَ عيْباً، فاحفَظْ ذلكَ وما عسَى أن يقولَ فيه قائلٌ من حَسَبِك أو مثالِبِ آبائِكَ أو عَيْبِ إخْوانكَ، ثم اجْعَل ذلكَ كلَّهُ نصْبَ عينَيْكَ . . .

واعْلمْ أنّ عدوَّك مُريدُك بذلكَ فلا تغْفَل عنِ التَّهيؤ لهُ والإِعْدادِ لِقوّتِك وحجّتِك وحِيلَتِك فيه سراً وعَلانية، فأمّا الباطِلُ فلا تروعَنّ[1] به قلبَك ولا تستعِذَنَّ بهِ ولا تَشْتَغِلَنَّ بهِ فإنّهُ لا يَهولُكُ ما لَمْ يَقَعْ وإذا وَقَعَ اضمحَلّ.

٧ ـ اعْلَمْ أنّه قلّما بدهَ أحدٌ بشيءٍ يعرفُه من نفْسه، وقد كانَ يطمعُ في إخفائهِ عنِ النّاس فيعيّره بهِ معيّر عندَ السلطانِ أو غيْرِه، إلا كادَ ـ يَشْهدُ بهِ عليْه وجهُه وعيناه ولسانُه للذي يبدو منه عندَ ذلك، والذي يكونُ من انكسارهِ وفتورهِ عندَ تلكَ البَداهة[2].

فاحذَرْ هذهِ وتصنّعْ لها وخذْ أهبتَك لِبَغَتاتِها.

●

● مخَاطرُ الافتِتان بالنّساء

اعلَمْ أنَّ منْ أوقَعِ الأمورَ في الدّينِ وأنهَكِها للجَسد وأتلفِها للمالِ وأضرِّها بالعقْل وأسرعِها في ذَهابِ الجلالَةِ والوَقارِ، الغرامُ بالنّساء.

ومنَ البلاءِ على المغرَم بِهنَّ أنه لا ينفَكُّ يأجمُ[3] ما عندَه وتطمحُ عيناه إلى ما ليْسَ عندَه منهُنَّ.

وإنّما النساءُ أشباهٌ وما يُرى في العُيون والقُلوبِ من فَضْلِ مجهولاتِهنَّ على مَعْروفاتِهنّ باطلٌ وخِدْعةٌ، بل كثيرٌ مما يَرغَبُ عَنْه الرّاغبُ مما عنْدَه أفضلُ مما تتوق إلَيه نفسُه منهنّ.

وإنما المترغّبُ عمّا في رحله منهنّ إلى ما في رحالِ النّاس، كالمترغّب عنْ طعام بيتِه إلى ما في بيوتِ النّاس، بل النساء أشبهُ منَ الطعام بالطّعام وما في رحال النّاس من الأطعمةِ أشدُّ تفاضُلاً وتفاوُتاً ممّا في رحالِهمْ منَ النّساء.

---

(١) **تروعن به قلبك**: تدخل على قلبك الروع أي الخوف الشديد والهلع.

(٢) **البداهة**: المفاجأة، و**المبادهة** الارتجال و**البداهة** أول كلّ شيء.

(٣) **يأجم**: يدخل أجمته **والأجمة أصلاً**: مأوى الأسد.

ومن العجَبِ أنَّ الرجلَ الذي لا بَأسَ في لبّه[1] يرَى المرأةَ منْ بعيدٍ متلففةً في ثيابها فيصوّرُ لها في قلبهِ الحسنَ والجمالَ حتى تعلَق بها نفسُه من غيرِ رُؤْيةٍ ولا خَبرٍ. . .

ثمَّ لعلَّه يهجُم منها على أقبَحِ القُبْح وأدمْ الدّمامةِ[2] فلا يَعِظُه ذلكَ عن أمثالِها ولا يَزال مشْغوفاً بمَا لَمْ يذُق، حتّى لو لَمْ يبقَ في الأَرْضِ غيرُ امرأةٍ واحدةٍ لَظَنَّ أنَّ لها شَأناً غيرَ شأن ما ذاقَ وهذا هو الحُمْقُ والشَّقَاء.

ومنْ لم يخْمِ نفسَه ويظَلّفُها[3] ويُجِلّها عنِ الطّعام والشرابِ والنّساء في بعْضِ ساعاتِ شهوَته وقُدْرتهِ كان أيسرَ ما يصيبه من وبال أمره انقطاعُ تلك اللذاتِ عنه بخمودِ[4] نارِ شهْوَتهِ وضعفِ عوامِلِ جَسَده. . .

وَقَلّ منْ تَجِدُ إلا مُخَادِعاً لِنَفْسِهِ في أَمْرِ جَسَدِهِ عَنِ الطّعامِ والشّرابِ والحِمْيةِ والدّواء، وفي أمرِ مروءتِه عندَ الأهواءِ والشّهواتِ، وفي أمرِ دينِه عندَ الرّيبةِ والشّبْهةِ[5] والطّمع.

إنِ استَطْعتَ أن تُنْزِلَ نَفسَكَ دونَ غايَتِكَ في كُلّ مجْلسٍ ومَقامٍ ومَقالٍ وَرأْيٍ وفِعْلٍ فافعلْ.

فإنّ رفعَ النّاس إياكَ فوْقَ المنزلةِ التي تحطُّ إليْها نفسَك، وتقريبَهم إيّاك في المجلِس تباعَدْتَ عنه وتعظيمَهم من أمرِك ما لَمْ تُعَظّمْ وتزيينَهم من كلامِكَ ورأيِكَ ما لمْ تزيّنْ هو الجَمال.

● **حُسْنُ المُنَاظَرَة**

لا يعجبنك العالمُ ما لمْ يكنْ عالِماً بمواضعِ ما يعْلمُ. إن غُلبتَ على الكلامِ وقْتاً فلا تغلبَنَّ على السّكوت. . .

واحذَر المِراء[6] واعرفْهُ ولا يمنَعَنّكَ حذرُ المراءِ من حُسْنِ المُناظرَةِ والمُجادَلةِ.

---

(١) اللبّ: العقل.

(٢) الدّمامة: الشناعة، القبح.

(٣) يظلّف نفسه عن: يكفها عن، يجعلها تترفع عن الدّنايا.

(٤) خمود نار الشهوة: انطفاؤها.

(٥) الشّبهة: الالتباس، الشكّ.

(٦) المراء: الجدال والنزاع واللجاج.

واعلمْ أنَّ المُماري هوَ الذي لا يحبُّ أن يتعلَّمَ ولا يُتعلمَ منه، فإن زعم زاعمٌ أنهُ إنّما يجادلُ في البَاطلِ عنِ الحقّ، فإنَّ المجادلَ وإن كانَ ثابتَ الحجّة ظاهرَ البيّنة فإنهُ يخاصمُ إلى غيرِ قاضٍ.

وإنّما قاضِيه الذي لا يغدو بالخُصومة إلا إليهِ عدلُ صاحبِه وعقْلُه، فإن آنس أو رجا من صاحبه عدْلاً يَقْضي بهِ على نفْسهِ فقَدْ أصابَ وجهَ أمْرهِ وإن تكلّمَ على غيرِ ذلكَ كَان مُمَارياً.

• فَضْلُ الفِعْلِ عَلَى القَوْل

إنِ استطعتَ أنْ لا تُخبرَ أخاكَ عن ذاتِ نفسِك بشيءٍ إلا وأنتَ محتجنٌ عنه بعضَ ذلك التمَاساً لفضلِ الفعْل على القولِ واستعداداً لتقصيرِ فعلٍ إن قصَّر فافعَلْ.

واْعلمْ أن فضلَ الفعلِ على القولِ زينةٌ وفضلَ القَولِ على الفعلِ هُجْنَةٌ وأنَ أحكام هذه الخلّة من غرائبِ الخلال.

• تعَهّدُ الأعمالِ بالصَّبْرِ والمُثابَرَة

إذا تراكَمتِ الأعمالُ عليْكَ فلا تَلْتَمِسِ الرَّوحَ في مدافَعتِها[١] بالرُّوَغان[٢] منها فإنَه لا راحةَ لَك إلا في إصدارِها وإنَّ الصبرَ عليْها هوَ الذي يخففُها، وإنَّ الضجرَ منها هو الذي يراكمُها عليك فتعهدْ من ذلك في نفسك خصلةَ قدْ رأيتَها تغتري بعض أصحابِ الأعمالِ...

وذلكَ أنَّ الرجلَ يكونُ في أمرٍ منَ أمرهِ فيرِدُ عليْه شغْلٌ آخرُ ويأتيه شاغلٌ من النّاسِ يكرهُ تأخيرَه، فيكدرُ ذلكَ بنفسِه تكديراً يفسدُ ما كانَ فيه، وما وردَ عليْه حتّى لا يُحْكِمَ واحداً منْهما.

فإنْ وردَ عليْكَ مثْلُ ذلكَ فليكُنْ معَك رأيُك الذي تختارُ بهِ الأمورَ ثم اخترْ أولى الأمرَيْن بشغلِك، فاشتغلْ به حتّى تفرغَ منه ولا يعظمنَّ عليْك فوْتُ ما فاتَ وتأخيرُ ما تأخّر إذا أعملْتَ الرأيَ معمَله وجعلتَ شغلَك في حقّه.

---

(١) المدافعة: الدفع.

(٢) الرّوغان: من راغ أي ذهب ههنا وههنا، وحاد عن، والروغان أيضاً: المكر والخديعة.

● عَدَمُ التّجاوُزِ

إجعَلْ لنفسِك في كلّ شيءٍ غايةً ترجو القوّة والتمامَ عليْها واْعلمْ أنّك إنْ جاوزتَ[1] الغايةَ في العِبادةِ صِرْتَ إلى التّقصيرِ.

وإنْ جاوَزْتَها في حَمْلِ العِلْم صِرْتَ من الجُهّالِ، وإنْ جاوَزْتَها في تكلّفِ رضى النّاس والخِفّةِ معَهُم في حاجَتِهم كنْتَ المخسورَ المضيَّع.

اعلمْ أنَّ بعْضَ العَطيّةِ لُؤْمٌ وبعْضَ البيانِ عَيٌّ[2] وبعضَ العِلْمْ جهْل، فإن استطعتَ أنْ لا يكونَ عطاؤُك خَوراً ولا بيانُك هَذْراً[3] ولا علمُكَ جهْلاً فافعَلْ.

● مُرَاعاةُ تَبَايُنِ الطّبائع

اعْلمْ أنهُ ستمُرُّ عليْك أحاديثُ تعْجِبُك إمّا مَليحَةٌ وإمّا رائِعَةٌ، فإذا أعجَبَتْكَ كنْتَ خَليقاً بأنْ تحفَظَها فإنَّ الحفظَ موكّلٌ بمَا راعَ وملحَ، وستحْرِصُ علَى أنْ يتعجّبَ منْها الأقوامُ فإنَّ الحِرصَ[4] على التَعجُّبِ منْ شَأنِ النّاسِ.

ولَيْسَ كلُّ معجِب لك معجِباً لغيرِك، وإذا نشرتَ ذلكَ مرّةً أو مرّتين فلَمْ تَرَه وقعَ من السّامعين موقعَه منْك فَازْدَجِر[5] عنِ العَوْد لهُ فإنّ العجَبَ منْ غيْرِ عجيبِ سُخْفٌ شَديدٌ.

وقدْ رأينا منَ النّاسِ مَنْ يعْلقُ الشّيءَ ولا يُقْلِعُ عنِ الحديثِ به، ولا يمنعُه قلةُ قبولِ أصحابه لهُ أنْ يعودَ ثمّ يعودَ.

●

● لا تكُنْ ضَحِيّةَ التّهويل

إيّاكَ وَالأَخْبارَ الرائِعَةَ وتحفّظْ منها فإنَّ الإنسانَ منْ شأنهِ الحرصُ على الأَخبار لا سيّما ما راعَ[6] منْها.

---

(١) جاوزت الغاية: تخطّيت الحدود.
(٢) العي: العجز عن الإفصاح.
(٣) الهذر: الثرثرة.
(٤) الحرص على الشيء: عظم تمسكه به، والحرص البخل.
(٥) أزدجر عن العَود له: امتنع.
(٦) ما راع منها: ما أثار الروع.

فأكثرُ النّاس من يحدّثُ بما سمِع ولا يُبالي ممّن سمع، وذلك مفسدَةٌ للصّدقِ ومَزْراة[1] بالرأيِ فإن استَطَعْتَ ألا تخبِرَ بشيءٍ ألا وأنتَ به مصدقٌ وألا يكونَ تصديقُك إلا ببرهانٍ فافعَل.

ولا تَقُلْ بمَا يقولُ السّفهاءُ: «أَخْبِرْ بمَا سمِعْت» فإنّ الكذبَ أكثرُ ما أنتَ سامعٌ وإنَّ السفهاءَ أكثرُ منْ هو قائلٌ.

وإنّك إنْ صِرْتَ للأحاديثِ واعِياً وحامِلاً كانَ ما تَعي وتحْمِلُ عنِ العامّةِ أكثَرَ ممّا يخْترِعُ المخترِعُ بأضْعاف.

● المُعاتبةُ مَقْطَعَةٌ للوُدّ

أُنظُرْ مَنْ صاحبْتَ مِنَ النّاسِ من ذي فَضْلٍ عليْك بسُلْطانٍ ومنزلَةٍ ومن دونِ ذلكَ من الخُلَصاءِ[2] والأَكْفاءِ والأَخْوان فوطّنْ[3] نفسَك في صُحْبتِه على أن تقبَلَ منه العفوَ وتسْخو نفسُك عمّا اعتاصَ[4] عليْكَ ممّا قبلَه، غيرَ معاتبٍ ولا مُسْتبطىءٍ ولا مُستزيدٍ.

فإنَّ المعاتبَةَ مَقْطَعَةٌ للوُدّ وإنَّ الاستزادَةَ منَ الجشعِ[5] وإنَّ الرِضَى بالعَفْو والمسامَحَةَ في الخُلُق مقرِّبٌ لكَ كلَّ ما تتوقُ إليْه نفَسُك معَ بقَاء العِرْضِ والمودَّةِ والمُروءَةِ.

● تجنّب السّفه

اعْلمْ أنّكَ ستُبْتَلى مِنْ أَقْوامٍ بسَفَه، وأن سَفَه السّفيهِ سيطْلُعُ لكَ منه حقْداً. فإنْ عارضْتَه أو كافأْتَه بالسَّفَهِ فكأنّكَ قد رَضيتَ ما أتَى بهِ فاجتنِبْ أن تحتَذي مثالَه.

فإنْ كانَ ذلكَ عندَك مذْموماً فحَقق ذمَّك إياه، بترْكِ معارضتِه فأما أن تذمّه وتمتثِلَه فليْس ذلكَ لكَ سَداداً.

---

(١) **مزارة**: زراية، احتقار.

(٢) **الخلصاء**: جمع خلص وهو الخِدن والصديق الخالص.

(٣) **وطّن نفسه على**: حملها على.

(٤) **اعتاص**: استعصى وصعب.

(٥) **الجشع**: الأنانية.

● التمسّكُ بالمروءة

لا تُصَاحِبَنَّ أحَداً وإن استأنَسْتَ به أخاً قرابةً أو أخاً مودةً ولا والداً ولا ولداً إلا بمُروءَة فإنَّ كثيراً من أهْلِ المروءةِ قد يحْملُهم الاسترسالُ أو التبذّلُ على أنْ يصْحبوا كثيراً من الخُلَصاء بالإدلال والتّهاون.

ومن فقَد من صاحبهِ صحبةَ المروءَة ووقارَها أحدثَ ذلك لهُ في قلْبهِ رقةَ شأنٍ وخفّةَ منزلةٍ.

● لا تَقْريعَ ولا اجْتِراء

لا تلتمسْ غلبةَ صاحبِك والظّفَرَ عليْهِ بكلّ كلمةٍ ورأيٍ ولا تجتَرِئَنَّ على تَقْريعهِ وتبكيتهِ بظفرِكَ إذا استَبان وحجّتَكَ إذا وضحتْ.

فإن أقواماً قدْ يحْملُهم حبُّ الغلبةِ وسفَهِ الرَأْيِ في ذَلكَ علَى أن يتعقّبوا[١] الكلمةَ بعدَ ما تُنْسى فيلتمِسوا فيها الحُجّةَ ثم يستَطيلوا بِها علَى الأصْحابِ وذلك ضعْفٌ في العقل ولُؤم في الأخلاق.

● التماسُ أجمَلِ الإكرام

لا يعجبَّنك إكرامُ منْ يُكرمُكَ لمنْزلةٍ أو سُلطانٍ فإنَّ السّلطانَ أوشَكَ أمورِ الدنيا زَوالاً.

ولا يعجبنْك إكرامُهم إيَّاكَ للنّسبِ فإنَّ الأنسابَ أقلُّ مناقبِ[٢] الخيْر غناءً عن أهلِها في الدّين والدّنيا، ولكنْ إذا أكرمْتَ على دينٍ أو مُروءةٍ فذلك فليُعْجِبْك، فإنَّ المروءَة لا تزايلُكَ في الدّنْيا، والدينَ لا يزايلُك في الآخرة.

● آفة الجُبْن والحِرْص

واعْلَمْ أنَّ الجُبْنَ مقْتلَةٌ وأنَّ الحِرْصَ محرمَةٌ[٣]، فانظُرْ فيما رأيْتَ أو سمعْتَ: أمن قُتلَ في القِتالِ مُقْبلاً أكثَرُ.. أمْ مَنْ قُتِلَ مُدْبراً..

وأنظر أمَنْ يطلبُ إليك بالأجمالِ والتكرّم أحقُّ أن تسخوَ إليه نفسُك بطلبته؟ أم مَنْ يطلبُ إليكَ بالشّره.

---

(١) تعقّب: تتبع، لاحق.

(٢) مناقب الخير: المناقب جمع منقبة وهي الفعل الكريم.

(٣) المحرمة: ما لا يحلّ انتهاكه، جمع محارم.

● **الذّوْدُ عنِ الصّديق**

اعْلمْ أنه ليْس كلّ منْ كانَ لكَ فيه هوًى فذَكَرُه ذاكرٌ بسوءٍ، وذكرْتَه أنْتَ بخَيْرٍ ينفعُه ذَلكَ أو يَضُرّهُ، فلا يستخفنّك ذكرُ أحدٍ منْ صديقٍ أو عَدُوّ إلا في مَوْطنِ دفعٍ أو مُحاماة.

فإنَّ صديقَك إذا وثقَ بكَ في مواطنِ المُحاماة لمْ يحفَلْ بما تركتَ ممّا سوى ذلك، ولم يكُنْ لهُ عليْك سبيلُ لائمَةٍ..

وإنَّ الأحزمَ في أمرِ عدوّك أنْ لا تذكرَه إلا حيْثُ يضرّه وألا تَعُدَّ يسيرَ الضُّر له ضُراً.

اعلمْ أنّ الرجلَ قدْ يكونُ حَليماً فيحملُه الحرصُ علَى أنْ يُقال جَليدٌ[1] والمخافَةُ أن يُقالَ مَهينٌ علَى أنْ يتكلّف الجهْلَ.

وقد يكونُ الرجلُ زمّيتاً[2] فيحملُهُ الحِرْصُ علَى أنْ يُقالَ لَسِنٌ، والمخافةُ منْ أن يُقال عيٌّ.. على أنْ يقولَ في غير موضعهِ فيكونَ هذراً..

فاعرِف هذا وأشباهَه واحترسْ منه كلّه.

● **مُخَالفَةُ الأهواء**

إذا بدَهَك أمْران لا تَدْري أيّهما أصوبُ فانظُرْ أيُّهما أقرَبُ إلى هواك فَخَالفهُ فإنَّ أكثرَ الصّوابِ في خِلافِ الهَوى.

ليجتمِعَ في قلبِك الإفتقارُ إلى النّاسِ والاستغناءُ عنْهم، فيكونُ افتقارُك إليهم في لينِ كلمتِك وحسْنِ بِشرك ويكونُ استغناؤك عنهم في نَزَاهةِ عرْضِك وبَقاء عزّك.

● **حُسْنُ المعَاشَرة**

لا تجالِسْ امرءاً بغيرِ طريقَتِه، فإنّكَ إنْ أردْتَ لقاءَ الجَاهلِ بالعِلْم والجَافي بالفِقْه والعيّ بالبَيان لم تزِدْ على أن تضيعَ عقلَك وتؤذيَ جليسَك، بحملِك عليْه ثِقَلَ ما لا يَعْرف، وغَمّك إياه بمِثْلِ ما يغتَمّ بهِ الرجلُ الفَصيحُ من مخاطبةِ الأعْجميّ[3] الذي لا يفقَهُ.

---

(١) **الجليد**: الصبور ذو الجلد.

(٢) **الزمّيت**: من زمت زماتة بالغ في الوقار والصمت.

(٣) **الأعجميّ**: المنسوب إلى العجم.

واعلَمْ أنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِلْمٍ تذكُرُهُ عندَ غيرِ أهْلِهِ إلا عادُوه ونصبُوا[1] له ونقضُوه عليْك وحرصُوا علَىٰ أن يَجْعَلُوه جهْلاً، حتّى أنَّ كثيراً مِنَ اللهْوِ واللعِبِ الذي هو أَخَفُ الأشْياء علَى النّاس ليحضرَه منْ لا يعْرفُهُ فيثقلُ عليْه ويغتمُّ به.

لِيعلَمْ صاحبُك أنكَ حذِبٌ[2] على صاحبِهِ وإيّاك إنْ عاشرَكَ امرؤٌ ورافقَك أنْ لا يرَى منْك بأحدٍ من أصحْابه وأخْدانه رأفَةً، فإنَّ ذلكَ يأخُذُ مِنَ القُلوبِ مأخَذاً، وأنَّ لطفَك بصَاحِبِ صاحبِك أحسنُ عنْدهُ موْقعاً من لُطْفِكَ بهِ نفسَه.

إتّقِ الفَرَحِ عنْدِ المحْزونِ واعْلَمْ أنّهُ يحْقِدُ على المُنْطَلِقِ ويشْكُرْ للمكتئِب.

● **آدابُ المُجالسة...**

١ ـ اعْلمْ أنّكَ ستسْمَعُ منْ جلسائِك الرأيَ والحديثَ تنكرُه وتسْتجْفيه مِنْ محدّثٍ عن نفْسهِ أو عَنْ غيرِه، فلاَ يكونَنَّ منْكَ التّكذيبُ ولا التسخيفُ لشيءٍ ممّا يأتي بهِ جليسُك، ولاَ يُجَرّئنَّك على ذلكَ أن تقولَ: «إنما حدّثَ عنْ غيره» فأنَّ كلَّ مردودٍ عليهِ سيمتَعِضُ[3] من الردّ.

وإنْ كانَ في القَوْمِ من تكرَهُ أن يستقِرّ في قَلْبهَ ذَلكَ القَوْلُ لِخطإٍ تَخافُ أنْ يَعْقدَ عليْه أو مضرَةٍ تَخْشاها على أحَد، فإنّك قادرٌ على أن تنقضَ ذلكَ في سرٍّ فيكون أيسرَ للنقْضِ وأبْعَدَ للبُغْضَة.

واَعلَمْ أنَّ البغْضةَ خوفٌ والمودَةُ أمْنٌ، فاستكثِرْ منَ المَودَةِ صامِتاً فإن الصّمْتَ يدْعوها إليْك، وناطِقاً بالحُسْنى فإنّ المَنْطِق الحسنَ يزيدُ في وُدّ الصّديقِ ويسلُّ سخيمَةَ[4] الوغَر.

٢ ـ واعلمْ أنّ خفضَ الصوتِ وسكونَ الريح ومشيَ القصْد من دَواعي المودّةِ إذا لمْ يخالِط ذلكَ بأوٌ[5] ولا عَجَبٌ أما العجَبُ فهو من دَواعي المَقْتِ والشّنآن.

---

(١) **نصبوا له**: عادوه.

(٢) **الحدب**: العطف، الحنان.

(٣) **امتعض من الأمر**: غضب منه ووجده شاقاً عليه فهو معضٌ وماعضٌ.

(٤) **السخيمة**: الضغينة والحقد الدّفين.

(٥) **البأو**: المباهاة والتفاخر وشدّة الصّلف.

● فَضِيلَةُ الاستِماع

١ ـ تعلّمْ حسْنَ الإستماع كمَا تتعلمُ حسْنَ الكَلام ومِنْ حسْنِ الإستماع إمهالُ المتكلّم حتّى يقْضيَ حديثَه، وقلّةُ التلفّتِ إلى الجَواب والإقبالُ بالوجْهِ والنّظرِ إلى المُتكلمِ والوعيُ لما يَقول.

واعلمْ أن المستشارَ ليْسَ بكفيلٍ والرّأيَ ليْسَ بمَضْمونٍ بلْ الرأيُ كلّهُ غرر[1] لأنَ أمورَ الدنيا ليسَ شيءٌ منْها بثِقة.

ولأنّه ليْسَ شيءٌ من أمرِها يدركهُ الحازمُ إلا وقدْ يدركُه العاجز، بلْ ربما أعيا الحزمةَ ما أمكنَ العجزَة فإذا أشارَ عليكَ صاحبُك برأيٍ فلم تجِدْ عاقبتَه علَى ما كنْتَ تأمَلُ فلا تجْعَل ذلكَ عليْه لَوْماً وعَذْلاً[2] تقول: أنتَ فعلتَ هذا بي وأنتَ أمَرْتَني ولَولا أنْتَ لمْ أفعَلْ ولا جَرَمُ لا أُطيعُكَ بعدَها...

فإنّ هذا كلّه ضجرٌ ولؤمٌ وخِفّةٌ، وإنْ كنتَ أنتَ المُشير فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابُك فلا تمنَّ ولا تكثرنّ ذَكْرَه إنْ كانَ فيه نجاحٌ ولا تَلُمْه عليْه إنْ كانَ استبانَ في ترْكه ضرراً بأن تقول: ألمْ أقلْ لكَ ألَمْ أفعَل.. فإنّ هذا مُجانِبٌ لأدب الحُكماء.

٢ ـ اعلمْ فيمَا تكلّمَ به صاحبُكَ أنّ مِمّا يُهَجّنُ[3] صوابَ ما تأتي به ويُذهِبُ بهجتَه ويُزْري[4] بقَبولهِ عجلتُك في ذلكَ قبْلَ أن يُفْضِيَ إليكَ بذاتِ نفسِه، ومِنَ الأخلاقِ السيئةِ علَى كلّ حالٍ مغالبةُ الرجُلِ علَى كلامِه والإعتراضُ فيه والقطْعُ فيه.

ومِنَ الأَخْلاقِ التي أنْتَ جديرٌ بترْكِها إذا حدّثَ الرجلُ حديثاً تعرفه ألا تسابقَه إليه وتفتَحه عليْه وتشاركَه فيه حتى كأنّكَ تُظْهِرُ للنّاسِ بأنّك تريدُ أن يَعْلموا أنّك مِن مثْلِ الذي يعْلَمُ وما عَليْك أن تُهنِئَه بذلك وتفردَه به وهذا البابُ من أبوابِ البخْل وأبوابُه الغامِضَةُ كثيرةٌ.

---

(١) الغرر: التعريض للهلاك.

(٢) العذل: اللوم وعدم الرضى.

(٣) يهجّن: يقبّح ويعيب.

(٤) يزري: أزرى بالأمر تهاون به، وأزراه عابه ووضع من قيمته وحقّه.

● قُبْحُ التَفَاصُحِ

٣ ـ وإذا كنت في قَوْم ليْسوا بلَغاءَ ولا فُصَحاء فدَعِ التّطاولَ عليْهم في البَلاغة أو الفَصَاحة.

اعلمْ أنَّ بعْضَ شدّةِ الحَذَرِ عَوْنٌ عليْكَ فيما تحذرُ، وأنَّ شدَةَ الإتقاء تدعُو إليْك ما تَتَقي.

إنْ رأيْتَ نفْسَك تصاغرَتْ إلَيْها الدّنيا ودعْتكَ إلى الزّهادَة فيها علَى حالٍ تعذّرَ منْها عليكَ، فلا يَغُرّنَكَ ذلكَ منْ نفسِك تلكَ الحالُ فإنّها ليْسَت بزهادَةِ ولكنّها ضَجَرٌ واستِخْذاء[١] وتغيرُ نفسٍ عنْدَما أعْجَزَكَ من الدّنيا وغضبٌ منك عليْها مما التوَى عليْك منْها.

ولو تمَمْتَ على رَفْضِها وأمسكْتَ عن طلبِها أوشكْتَ أن تَرَى من نفسك من الضّجَرِ والجَزَعِ أشدَّ من ضجرك الأولِ بأضعافٍ ولكنْ إذا دَعَتْكَ نفسُك إلى رَفْضِ الدّنيا وهي مُقْبِلَةٌ عليْك فأسْرعْ إلى إجابتها.

● إصْلاحُ عَوْراتِ النَفْس

اعرفْ عوراتِك[٢] وإيّاكَ أن تعرّضَ بأحَدٍ فيما شارَكها وإذا ذُكرتْ منْ أحد خليقَةٌ فلا تناضِلْ عنه مناضلةَ المدافِعِ عنْ نفسهِ فتتهمَ بمِثْلِها ولا تلحَّ كلَ الإلحاحِ..

وليكُنْ ما كانَ منْكَ من غيْرِ اخْتِلاطٍ فإنَّ الإختلاطَ منَ مُحققاتِ الريَب.

وإذا كنْتَ في جماعةَ قوْم أبداً فلا تعمنَّ جِيلاً منَ النّاسِ أو أُمّةً بشتْم ولا ذَمٍّ فإنّك لا تدْري لعلّك تتناولُ بعضَ أعراضِ جُلسائك ولا تعلَمُ، ولاَ تذمنَّ مع ذلكَ اسماً من أسْماءِ الرّجال أو النّساء بأن تقولَ: إنَّ هذا لقبيحٌ من الأسْماء فإنك لا تدْري لعلَّ ذلك موافِقٌ لبعض جُلسائك في بعضِ أسماء الأهلينِ والحرمِ ولا تستصغرَنَّ مِنْ هذا شيئاً فكلّه يجْرحُ في القلبِ، وجُرْح اللسانِ أشدُّ من جُرحِ اليدِ[٣].

---

(١) الاستخذاء: مصدر استخذى: أي اتضع وانقاد، والاستخزاء (بالزاي): الاستحياء.

(٢) العورات: العيوب جمع عورة والعورة كل ما يستحيا منه.

(٣) جرح اللسان: أي الجرح المعنويّ الذي يسبّبه الذمّ والتعريض والهجاء، وجرح اليد: هو جرح عضو في الإنسان بأداة جارحة كالسّيف والرمح ونحوهما.

واعلمْ أنّ الناسَ يخدَعون أنفسَهم بالتّعريضِ[1] والتّوقيع بالرّجالِ في التماسِ مثالِبهم[2] ومَساوِيهم ونقيصَتِهم[3]، وكلُّ ذلكَ أبينُ عنْد سامِعيه من وضح الصّبْحِ، فلا تكونَنَّ منْ ذلكَ في غُرورٍ ولا تجعلنَّ نفسَك منْ أهلِه.

● **الصاحب الأمْثَل**

إني مُخْبِرُكَ عنْ صاحِبٍ كانَ أعظمَ النّاسِ في عَيْني وكانَ رأسَ ما أعظمَه عنْدي صِغَرُ الدّنيا في عَينه.

كانَ خارجَاً من سُلطان بطْنِه[4]، فلا يَشْتَهي ما لا يَجِدُ ولا يُكثِرُ إذا وَجَد.

وكانَ خارِجاً من سُلطانِ فَرْجِهِ[5]، فلا يدْعو إليْه مروءَته ولا يستَخِفُّ رَأياً ولا بَدَناً..

وكانَ خارِجاً من سُلْطانِ الجَهَالة، فَلا يُقْدِمُ إلا علَى ثِقَةٍ أو مَنْفَعَةٍ.

وكانَ أكثرَ دهْره صامِتاً فإذا قالَ بذَّ[6] القائلين... كانَ يُرَى متضعِفاً مستضعفاً[7].

فإذا جاءَ الجدّ فهوَ اللّيثُ عادياً.

وكانَ لا يدخُلُ في دَعْوى ولا يُشْرِكُ في مراءٍ ولا يُدلي بحجَةٍ حتّى يجدَ قاضياً عدْلاً وشُهوداً عدولاً.

وكانَ لا يلومَ أَحَداً على مَا قدْ يكونُ العذْر في مثْلهِ حتّى يعلمَ مَا اعتذارهُ.

وكانَ لا يشكُو وَجَعاً إلا إلى مَنْ يرْجو عندَه البُرْء ولا يَصْحَبُ إلا من يرْجو عنْدَه النّصيحَةَ لهُما جَميعاً.

---

(١) **التعريض**: الذمّ غير الصريح.

(٢) **المثالب**: العيوب والمقابح.

(٣) **النقيصة**: جمع نقائص وهي العيوب التي تنتقص من مكانة المرء وسمعته.

(٤) **خارج من سلطان بطنه**: أي بعيد عن شهوات الطعام والشراب.

(٥) **وقوله**: خارجاً من سلطان فرجه كناية عن العفّة وعدم الانسياق لشهوات الجنس.

(٦) **بذّه**: غلبه وفاقه وفاخره وسابقه.

(٧) **استضعفه**: وجده ضعيفاً.

وكان لا يتبرمُ[1] ولا يتسخَّطُ ولا يتشَّهى ولا يتشَكَّى ولا ينتقِمُ من الوليّ، ولا يَغْفلُ عن العدوّ، ولا يخُصُّ نفسَه دونَ إخْوانِهِ بشَيءٍ من اهتمامِهِ وقُوتِهِ.

فَعَلَيْكَ بهذهِ الأَخْلاقِ إنْ اطقتَ ولَنْ تُطيقَ، ولكنّ أَخْذَ القَليلِ خَيْرٌ من تَرْكِ الجَميعِ وبالله التَّوفيق.



(١) يتبرَم: يتضجر ويتسخَط.

(٢)

الأدب الصغير

(٢)

الأدب الصغير

●

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن المقفع:

أما بَعْدُ فإنّ لكلّ مخلوقٍ حاجةً، ولكلّ حاجةٍ غايةً، ولكلّ غايةٍ سبيلاً واللّهُ وقّتَ للأمورِ أقْدَارَها، وهيّأ إلى الغَاياتِ سبلها وسبّبَ الحاجاتِ ببلاغِها.

فغايةُ النّاسِ وحاجتُهم صلاحُ المَعاشِ والمعَادِ[١]. والسبيلُ إلى دَرْكها[٢] العقلُ الصّحيحُ. وأمَارَةُ صِحّةِ العَقْل اختيارُ الأمورِ بالبَصَرِ. وتنفيذُ البَصَرِ بالعَزْم.

وللعُقولِ سجّياتٌ[٣] وغرائزُ[٤] بهَا تقْبلُ الأدبَ، وبالأَدبِ تنمَى العقولُ وتزكُو فكمَا أنّ الحبّةَ المدفونةَ في الأرضِ لا تقدرُ على أنْ تخلعَ يبْسها وتُظْهر قوتَها وتطلعَ فوقَ الأرضِ بزهْرتِها ونَضْرتِها ورَيْعِها[٥] ونَمائِها، إلا بمعُونةِ الماءِ الذي يغورُ إليها في مستودَعِها فيُذهِبُ عنها أذى اليَبَسِ والمَوْتِ، ويُحْدِثُ لها بإذنِ اللّهِ القوّةَ والحَياةَ، فكذلكَ سليقةُ[٦] العَقْلِ مكْنونةٌ في

---

(١) المعاد: المرجع والمصير والآخرة والمعاد والجنة.

(٢) الدرْك: الإدراك، إدراك الحاجة.

(٣) السجيات: جمع سجيّة وهي الفطرة والطبيعة.

(٤) الغرائز: جمع غريزة وهي الطبيعة هنا، أي ما هو مغروز بالطبع من الأهواء والميول.

(٥) الرّيع: فضل كلّ شيء، والرّيع الغلّة والمرجوع.

(٦) السليقة: الطبيعة.

مَغْرَزِها من القَلْبِ لا قُوّةَ لها ولا حَياةَ بها ولا منفعَةَ عندَها حتَّى يعتملَها الأدبُ الذي هو نماؤُها وحياتُها ولقاحُها.

وجلُّ الأدبِ بالمنطقِ[1] وكلُّ المنطقِ بالتّعلّم ليْسَ حرفٌ من حروفِ مُعْجَمِه، ولا اسمٌ من أنواعِ أسمَائِهِ إلا وهوَ مرويٌّ متَعَلَّمٌ مأخُوذٌ عن إمام سابقٍ من كَلامٍ أو كِتابٍ وذَلكَ دَليلٌ علَى أنَّ النّاسِ لمْ يبتدِعوا أصولَها ولَمْ يأتِهِم علمُها إلاّ من قِبَلِ العَليمِ الحَكيمِ.

فإذا خَرَجَ النّاسُ، مِنْ أنْ يكونَ لهُمْ عملٌ أصيلٌ وأن يقولوا قَوْلاً بَديعاً فليعلم الواصِفونَ المخْبرونَ:

أنَّ أحدَهم وإنْ أحسنَ وأبلغَ، ليْس زائداً على أن يكونَ كصاحِبِ فُصوصٍ[2] وجدَ ياقُوتاً وزَبَرْجَداً ومَرْجاناً فنظمَهُ قلائِدَ وسُموطاً[3] وأكاليلَ، ووضَعَ كلَّ فصّ موضعَه وجمعَ إلى كلِّ لونٍ شبهَه، ممّا يزيدُه بذلِكَ حسْناً فسُمّيَ بذلك صائِغاً رفيقاً...

وكصاغةِ الذّهبِ والفضّةِ صنعُوا فِيها ما يعْجِبُ النّاسَ من الحَلي[4] والآنية...

وكالنّحلِ وجدتْ ثمراتٍ أخرجَها اللّهُ طيّبةً، وسَلكَتْ سُبُلاً جعلَها الله ذُللاً[5] فصارَ ذلكَ شفاءً وطعاماً وشراباً منسوباً إليها مَذكوراً بهِ أمرُها، وصنْعَتُها.

فمَنْ جرَى على لسانِهِ كلامٌ يستحسنُه أو يُسْتَحْسَنُ منه، فلا يعجبنَّ به إعجابَ المخترعِ المبتدعِ فإنّهُ إنّما اجتَباه[6] كمَا وصَفْنا.

ومنْ أخذَ كَلاماً حَسَناً عنْ غيره فتكَلَّمَ بهِ في موْضِعِهِ علَى وجْهِهِ فَلا يرينَّ عليْهِ في ذلكَ ضُؤولَةً، فإنّه من أُعينَ على حفْظِ قوْلِ المُصيبينَ وهُدِيَ

(١) المنطق: الكلام وعلم المنطق هو القواعد التي تعصم الذهن عن الخطأ في الفكر.

(٢) الفصوص: جمع فصّ وهو ما يركب في الخاتم من الحجارة الكريمة أو قلب الخاتم.

(٣) السموط: جمع سمط وهو الخيط ما دام الخرز ونحوه منتظماً فيه.

(٤) الحلي: كل ما يزيّن به من المصوغات المعدنيّة وما شاكلها.

(٥) جعلها ذللاً: ذلولاً أي سهل الانقياد.

(٦) اجتباه: اصطفاه، اختاره.

للاقتداءِ بالصّالحينَ ووفّقَ للأخْذِ عنِ الحُكَماءِ، فلا عليْه أنْ لا يزْدادَ فقَدْ بلغَ الغايَةَ، وليْسَ بناقِصِه، في رأيِهِ ولا بغائضِه[1] من حقّه أنْ لا يكونَ هوَ استحدثَ ذلكَ وسبَقَ إليْهِ وإنّما إحياءُ العَقْلِ الذي يتمُ به ويَسْتَحْكِم[2] خِصالٌ ستّ:

الإيثارُ بالمحبة، والمبالغَةُ في الطّلَب، والتثبتُ في الاختيارِ، والاعتقادُ للْخيْرِ. وحسنُ الوَعْيِ، والتّعهدُ لِما اختيرَ واعتَقَد، ووضْعُ ذلك موضعهَ قوْلاً وعَمَلاً.

أما المَحَبّةُ فإنّما يبلغُ المرءُ مبلغَ الفَضْلِ في كُلّ شَيءٍ من أمرِ الدّنيا والآخرةَ حينَ يؤْثِرُ بمحَبتِهِ فلا يكونُ شيءٌ أمْراً ولا أحلى عنده منه.

وأما **الطَلَبُ** فإنّ النّاسَ لا يُغْنيهِم حُبُّهُم ما يُحِبّونَ وهَواهُم ما يَهْوَوْنَ عنْ طلبِهِ وابتِغائهِ ولا يُدركُ لهم بغيتَهم نفاستَها في أنفُسِهم دونَ الجدّ والعمل.

وأما التثبّتُ والتخيّرُ فإنّ الطلبَ لا ينفَعُ إلا معَه وبهِ، فكَمْ منْ طالبِ رشْدٍ وجدَه والغيّ معاً... فاصطفَى منْهما الذي منه هربَ وألْغى الذي إليهِ سعَى.

فإذا كانَ الطالبُ يحْوي غيرَ ما يُريدُ وهوَ لا يشُكُّ بالظّفرِ فما أحقَّه بشدّةِ التبّينِ وحُسْنِ الابتغاءِ.

وأما اعتقادُ الشيءِ بعد استبانتِهِ فهوَ ما يطلبُ من إحرازِ الفضلِ بعدَ معرفتِه.

وأما الحفظُ والتعهدُ فهوَ تمامُ الدركِ لأنَ الإنسانَ مُوكلٌ به النسّيانُ والغفْلة[3] فلا بدّ له إذا اجتبَى صوابَ قولٍ أو فِعْلٍ من أنْ يحفَظَه عليْه ذهنُه لأوانِ حاجَته.

وأما البصرُ بالموضِع فإنّما تصيرُ المنافعُ كلّها إلى وَضعِ الأشياءِ مواضِعَها، وبنا إلى هذا كلّه حاجةٌ شديدةٌ فإنّنا لمْ نوضَع في الدنيا موضعَ

---

(١) غاض من حقّه: بخسه وأنزل به الغبن والإجحاف.

(٢) يستحكم: يترسخ ويصبح محكماً.

(٣) الغفلة: السهو والإهمال.

غنَاءٍ وخفضٍ[١] ولكنْ موضعَ فاقةٍ وكدٍّ، ولسْنا إلى ما يمْسكُ بأرمَاقنا[٢] من المَطْعَمِ والمَشْربِ بأحوجَ منّا إلى ما يُثبتُ عقولَنا من الأدبِ الذي بهِ تفاوتُ العُقولَ.

وليْس غذاءُ الطّعام بأسرعَ في نباتِ الجَسَدِ من غذاءِ الأدبِ في نباتِ العَقْل. ولسْنا بالكَدّ في طَلبِ المتَاع الذي يُلْتَمَسُ به دفْعُ الضُرّ والعيّلةِ بأحقَّ منا بالكَدِّ في طلبِ العِلْمِ الذي يُلتمَسُ به صَلاحُ الدّين والدّنيا.

وقد وضعْتُ في هذَا الكتابِ من كَلام النّاسِ المحفوظِ حُروفاً فيها عوْنٌ على عِمَارة القُلوبِ وصقَالِها[٣] وتَجْليةِ[٤] أبْصارِها، وإحياءٌ للتفكيرِ وإقامةٌ للتدبير ودليلٌ على محامدِ الأُمورِ ومكارمِ الأخلاقِ إنْ شاء الله.

٭

١ ـ **الواصفُونَ أكثَرُ منَ العَارفينَ**، والعَارِفونَ أكْثَرُ منَ الفَاعلين. فلينْظُر امرؤٌ أينَ يضعُ نفسَه فإنَّ لكلّ امرىءٍ لم تَدْخُلْ عليْه آفةٌ نصيباً من اللبّ يعيشُ بهِ لا يحب أنّ لهُ بهِ منَ الدّنيا ثمناً.

وليْسَ كلُّ ذي نَصيبٍ من اللبّ بمستوجب أن يُسمّى في ذوي الألْبابِ ولا أنْ يوصفَ بصِفاتِهم.

فمَنْ رامَ أنْ يجعَلَ نفْسهُ لذلك الإِسمِ والوصْفِ أهْلاً فليأْخُذْ له عتَادَه وليُعِدَّ لهُ طولَ أيامهِ وليُؤْثر على أهوائِهِ فإنَهُ قد رامَ أمْراً جَسيماً لا يصلَحُ على الغفلةَ ولا يُدْركُ بالمعْجزةِ ولا يصيرُ على الأَثرةِ[٥]، وليسَ كسائرِ أمورِ الدّنيا وسلطانِها ومالِها وزينتِها التي قد يُدْرِكُ منْها المُتواني ما يفوتُ المثابرَ ويصيبُ منها العاجزُ ما يخْطىءُ الحازمَ.

٢ ـ **وليعلمْ أنّ علَى العَاقِلِ** أُموراً إذا ضَيَّعَها حكَمَ عليْهِ عقلُه بمقارنَةِ الجُهّال.

---

(١) **الخفض**: خفض العيش: العيش الرغيد.

(٢) **الأرماق**: جمع رمق وهو بقيّة الحياة.

(٣) **الصقال**: الصقل، وهو كشف الصدأ، **وصقال القلوب** من باب المجاز أي توعيتها بمكارم الأخلاق.

(٤) **تجلية الأبصار**: صقلها.

(٥) **الأثرة**: الأنانية، حبّ الذات.

فعلى العاقِل أنْ يعلمَ أنّ النّاسَ مُشتركونَ مُستوونَ في الحُبّ لِما يُوافق والبغْضِ لما يُؤذي.

وأنَّ هذهِ منزلةٌ اتفقَ عليْها الحمْقى والأكْياسِ[1] ثمّ اختلفُوا بعْدَها في ثلاثِ خصالٍ هنّ جماعُ الصوابِ وجماعُ الخَطأ وعندَهنّ تفرقتِ العلماءُ والجُهّالُ والحزَمةُ والعَجَزَةُ.

٣ ـ البابُ الأوّلُ من ذلكَ:

أنَّ العاقلَ ينظُرُ فيما يؤذيهِ وفيما يسرُّهُ فيعلمُ أنَّ أحقَّ ذلكَ بالطّلبِ إنْ كانَ مما يحبّ، وأحقَّه بالاتقاءِ إن كانَ مما يكره أطولُه وأدومُه وأبقاه.

فإذا هوَ قدْ أبصرَ فضْلَ الآخرةِ على الدّنيا وفضْل سرورِ المُروءةِ على لَذّةِ الهَوَى وفضْلَ الرأيِ الجامِعِ العَام الذي تصْلُحُ به الأنفسُ والأعقابُ[2] على حاضرِ الرّأيِ الذي يستمتعُ به قليلاً ثم يضْمَحلُّ وفضلَ الأكلات على الأكلةِ والساعاتِ على السّاعة.

٤ ـ والبابُ الثاني:

هو أنْ ينظرَ فيما يؤْثرُ من ذلكَ فيضعُ الرجاءَ والخوفَ فيه موضعَه فلا يجعَلُ اتقاءَه لغيرِ المَخوف ولا رجاءَه في غيرِ المدرَك، فيتركُ عاجلَ اللذاتِ طلباً لآجلها، ويحتملُ قريبَ الأذى توقّياً لبعيدِه.

فإذا صارَ إلى العاقبةِ بدا له أنَّ قرارَه كانَ تورّطاً[3] وأن طلبَه كان تنكّباً[4].

٥ ـ والبابُ الثالث:

من ذلك هو تنفيذُ البصرِ بالعَزْم بعدَ المعرفةِ بفضْل الذي هو أدومُ، وبعد التثبّتِ في مواضعِ الرّجاء والخوف.

فإنَّ طالبَ الفضْلِ بغير بصرٍ تائِهٌ حيرانُ ومبْصِرُ الفضْلِ بغير عَزْمٍ ذو زَمانَةٍ[5] مَحْروم...

---

(١) **الأكياس**: جمع الكيّس وهو الظريف والفطن.

(٢) **الأعقاب**: جمع عقب وهو الولد وولد الولد.

(٣) **التورّط**: الوقوع فيما لا خلاص منه، **يقال أورطه** أي ألقاه في الورطة.

(٤) **التنكّب**: التجنب والاعتزال.

(٥) **الزمانة**: العاهة.

وعلى العاقِلِ مُخاصمَة نفْسهِ ومحاسبتُها والقَضاءُ عليْها والإِثابةُ لهَا والتنكيلُ بها . .

● **أما المحاسبةُ** فيحاسبُها بمَا لهَا فإنّه لا مالَ لهَا إلا أيامُها المعدودةُ التي ما ذهبَ منها لم يُسْتخلفْ كما تستخلفُ النفقَة .

وما جُعِلَ منْها في الباطلِ لم يرْجعْ إلى الحَق فيتنبَّه لهذه المحاسبةِ عند الحَوْل[1] إذا حال، والشهْر إذا انقضَى واليومِ إذا ولّى فينظر فيما أفْنى من ذلك وما كسبَ لنفسهِ فيه وما اكتسبَ عليْها في أمرِ الدّنيا فيجْمع ذلك في كتابٍ فيه إحصاءٌ وجدٌ وتذكيرٌ وتبكيتٌ للنفْسِ وتذليلٌ لها حتّى تعترفَ وتُذْعِنَ .

● **وأما الخصومةُ** فإنّ من طباعِ النفْس الأمّارةِ بالسّوءِ أن تدّعي المَعاذيرَ فيما مضَى والأمانيَ فيما بقيَ فيردُّ علَيها معاذيرَها وعللَها وشبهاتِها .

● **وأما القضاءُ** فإنّه يحكمُ فيما أرادتْ من ذلكَ على السيّئة بأنّها فاضحةٌ مرديةٌ موبِقَةٌ[2] وللحسنةِ بأنّها زائنةٌ منجيَةٌ مربِحَةٌ .

وأما الإِثابةُ والتنكيلُ فإنّه يسرُّ نفسَه بتذَكّرِ تلك الحَسناتِ ويرْجو عواقبَها وتأميلَ فضْلِها ويعاقبُ نفْسهُ بالتذكّر للسيئاتِ والتبشّع بها والإِقشعرارِ منْها والحُزْن لَها .

● **فأفضلُ ذوي الألبابِ** أشدّهُمْ لنفْسه أخْذاً وأقلّهم عنْها فترةً .

وعلَى العاقلِ أن يذكرَ الموتَ في كلّ يومٍ وليلةٍ مراراً ذكْراً يباشرُ به القلوبَ ويقذعُ[3] الطّماحَ فإنّ في كثرةِ ذكرِ الموْتِ عصْمة من الأشرِ وأماناً بإذنِ الله من الهَلَع .

●

١ ـ **وعلَى العَاقلِ** أنْ يُحْصِيَ علَى نفْسه مساويَها في الدّينِ وفي الرّأيِ وفي الأخْلاقِ وفي الآدابِ فيجمعَ ذلكَ كلّه في صدْره أو في كتابٍ .

---

(١) **الحول**: السنة، العام.

(٢) **موبقة**: مهلكة.

(٣) **قذع** (ه): شتمه ورماه بالفحش وسوء القبول.

ثمّ يكثرَ عرضَه علَى نفسهِ ويكلّفَها إصلاحَه ويوظّفَ ذلك عليها توظيفاً من إصلاحِ الخلّة[1] أو الخلّتين والخِلال في اليومِ أو الجمعةِ أو الشهر، فكلّما أصلحَ شيئاً محاهُ وكلّما نظرَ إلى ثابتٍ اكتأب.

٢ ـ **وعلَى العاقِلِ** أنْ يتفقّدَ محاسِنَ النّاسِ ويحفظَها ويخصِيَها ويصنَعَ في توظيفِها على نفسِه وتعهدِها بذلك مثلَ الذي وصفْنا في إصلاحِ المساو.

٣ ـ **وعلى العاقلِ** أن لا يُخادنَ[2] ولا يصاحبَ ولا يجاورَ منَ النّاس ما استطاعَ إلا ذا فضلٍ في الدينِ والعِلْمِ والأخلاقِ، فيأخذُ عنه أو موافقاً له على إصلاح ذلك فيؤيدُ ما عنْده.

وإن لمْ يكنْ له عليه فضلٌ فإنَّ الخِصالَ الصّالحةَ من البرّ لا تحْيا ولا تنمى إلا بالمُوافقين والمهذّبين والمؤيّدين وليسَ لذي الفضْلِ قريبٌ ولا حميمٌ هو أقربُ إليه وأحبُّ ممّن وافقَه على صالح الخِصال فزادَه وثبّته، ولذلكَ زعَم بعْض الأوّلينَ أن صحبةَ بليدٍ نشأ مع العلَماءِ أحبُّ إليهِم من صحبةِ لبيبٍ نشأ مع الجهّال.

٤ ـ **وعلى العاقلِ** أنْ لا يحزنَ على شيءٍ فاتهُ من الدنْيا أو تولّى وأن ينزلَ ما أصابَ من ذلك ثم انقطعَ عنه منزلةَ ما لمْ يصبْ، وينزلَ ما طلبَ من ذلك ولمْ يدركْه منزلةَ ما لم يطْلبْ.

ولا يدعَ حظّه من السّرور بما أقبلَ منها ولا يبلغنّ سُكْراً ولا طُغْياناً فإنّ مع السكْر النسيانَ ومعَ الطُغيان التهاونَ ومنْ نسيَ وتهاونَ خسِر.

٥ ـ **وعلَى العَاقلِ** أنْ يؤنسَ ذوي الألْباب بنفْسه ويجرّئَهم عليْها حتّى يصيروا حَرَساً على سمْعه وبصرِه ورأيِه، فيَسْتنيم[3] إلى ذلك ويُريح له قلبَه ويعلَم أنّهم لا يغفلونَ عنه إذا هو غفلَ عن نفْسه.

٦ ـ **وعلى العاقلِ** ما لمْ يكن مَغْلوباً على نفْسه أن لا يشغلَه شغلٌ عن أربعِ ساعات:

ساعةٍ يرفعُ فيها حاجَته إلى ربّه وساعةٍ يُحاسب فيها نفسَه وساعةٍ

---

(١) **الخلّة**: الخصلة.

(٢) **يخادن**: يتخذ خدناً أي صاحباً.

(٣) **استنام يستنيم إلى ذلك**: يرتاح أو يسكن إليه.

يُفْضي[1] فيها إلى إخوانهِ وثقاتهِ الذين يُصَدِّقونه عن عيوبهِ وينصَحونَهُ في أمْره، وساعةٍ يخْلي فيها بينَ نفسه وبينَ لذّتها مما يحلّ ويجملُ.

فإنّ هذه الساعات عونٌ على السّاعات الأُخَر، وإن استجمامَ القلوبِ وتوديعَها زيادةُ قوةٍ لها وفضلُ بُلْغَة.

وعلى العاقلِ أن لا يكونَ راغباً إلا في إحدى ثلاثِ خِصال: تزودٌ لمعاد، أو مرمة[2] لمعاشٍ أو لذةٌ في غير مُحَرّم.

٧ ـ **وعلى العاقِل** أن يجعَلَ النّاس طبقتَيْن مختلفَتَيْن متباينتَيْن ويلبسَ لهُم لباسَيْن مختلفَيْن.

فطبقةٌ من العامّة يلبسُ لهم لباسَ انقباضٍ وانحجازٍ وتحرّزٍ[3] وتحفظٍ في كلّ كلمةٍ وخطوةٍ...

وطبقةٌ من الخاصّة يخلَعُ عندَهم لباسَ التشدّد ويلبسُ لباسَ الأنسةِ واللطفِ والبذلةِ والمفاوضةِ ولا يدخل في هذهِ الطبقةِ إلا واحدٌ من ألف، كلّهم ذو فضلٍ في الرأي وثقةٍ في المودَةِ وأمانَةٍ في السر ووفاءٍ بالإِخاء.

٨ ـ **وعلى العَاقلِ** أنْ لا يستصغرَ شيئاً من الخَطأ في الرأيِ والزّللِ في العلمِ والإِغفال في الأمورِ.

فإنّ من استصغرَ الصغيرَ أوشكَ أن يجمعَ إليه صغيراً وصغيراً فإذا الصغيرُ كبيرٌ، وإنما هي ثُلَمٌ[4] يلمُّها العجزُ والتضييعُ فإذا لم تسدَّ أوشكَتْ أن تنفجِرَ بما لا يُطاقُ ولم نرَ شيئاً قطّ إلا وقد أُوتي من قبل الصغير المتهاون به.

●

قدْ رأيْنا **الملكَ** يؤتى من العدوّ المحتقر ورأينا **الصّحةَ** تؤتى من الدّاء الذي لا يُحفَلُ به ورأينا **الأنهارَ** تنبثِقُ من الجَدْول الذي يُسْتخفُّ بهِ.

---

(١) **يفضي إلى إخوانه**: يصل إليهم، ينتهي إليهم.

(٢) **مرمّة**: مصدر رمّ.مرمّة البناء أو الأمر أصلحه وعالجه حتى سوّاه.

(٣) **التحرّز**: التوقّي.

(٤) **الثلم**: الخلل ومحلّ الكسر.

وأقلُّ الأمورِ احتمالاً للضيَاع **المُلْك**. لأنّهُ ليْس منهُ شيءٌ يضيعُ وإن كانَ صَغيراً إلا اتّصل بآخرَ يكونُ عَظيماً.

١ ـ **وعلى العَاقِل** أن يجبنَ عنِ الرأيِ الذي لا يَجِدُ عليْه مُوافِقاً وإنْ ظَنَّ أنهُ على اليقين.

٢ ـ **وعلَى العاقِل** أن يعرفَ أنّ الرأيَ والهوى[1] مُتَعاديانِ وأنَّ من شَأنِ النّاس تسويفُ الرأيِ واسعافُ الهَوى فيخالفُ ذلك ويلتمسُ أنْ لا يزالَ هواه مسوَّفاً ورأيُه مسْعفاً.

٣ ـ **وعلى العاقل** إذا اشتَبَه[2] عليه أَمْران فلمْ يدرِ في أيّهما الصّوابُ أن ينظرَ أهواهما عنْدهُ فيحذرَه.

٤ ـ **ومن نصبَ نفسَه للنّاس** إماماً في الدّين فعليهِ أن يبدأ بتعليم نفْسه وتقويمِها في السّيرة والطعمةِ والرأيِ والأخْدان، فيكون تعليمُه بسيرته أبْلَغَ من تعليمه بلسانهِ.

فإنّه كما أن كلامَ الحكمةِ يونقُ الأسماعَ فكذلكَ عملُ الحكمةِ يروقُ العيونَ والقلوبَ، ومعلّم نفْسهِ ومؤدّبها أحقُّ بالإجلال والتفضيلِ من معلمِ النّاس ومؤدّبهم.

٥ ـ **ولايةُ النّاس بلاءٌ عظيمٌ**.

الوالي **أربعُ خِصال** هي أعمدةُ السّلطان وأركانُه التي بها يقومُ وعليها يثبتُ: **الاجتهادُ** في التخيّر، **والمبالغةُ** في التقدّم، **والتعهدُ** الشديدُ، **والجزاءُ** العتيد[3].

ـ **أما التخير للعمّال** والوزراءِ فإنّه نظامُ الأمر ووضعُ مؤونةِ البعيدِ المنتشر، فإنّه عسى أن يكونَ **بتخيّره** رجلاً واحداً قد اختارَ ألفاً لأنّه منْ كانَ من العمّال خياراً فسيختارُ **كما اختير**.

ولعلَّ عمّال العامِل وعمّال عمّاله يبلغون عدَداً كثيراً فمن تبيّنَ **التخيّرَ** فقدْ أخذَ بسببٍ وثيقٍ ومن أَسّسَ أمرَه على غيرِ ذلك لم يجِدْ لبنيانهِ قواماً.

---

(١) **الهوى**: الرغبة في الشيء وميل المرء إلى ما يشتهي، **والهوى** الحبّ.

(٢) **اشتبه عليه الأمر**: التبس.

(٣) **العتيد**: المهيّأ، الحاضر.

ـ وأما التقديمُ والتوكيلُ فإنه لَيس كلّ ذي لبّ أو ذي أمانةٍ يعرفُ وجوهَ الأمورِ والأعمالِ ولو كانَ بذلك عارفاً لمْ يكنْ صَاحِبَهُ حَقيقاً.

ـ أن يكلَ ذلك إلى علمِه دونَ توقيفِه عليه، وتبيّنه له والإحتجاجِ عليْه بهِ.

ـ وأما التعهدُ فإنّ الواليَ إذا فعلَ ذلك كانَ سميعاً بصِيراً وأنّ العاملَ إذا فعلَ ذلك به كان متحصّناً حريزاً.

ـ وأما الجزاءُ فإنه تثبيتُ المحسنِ والراحةُ من المسيء.

٦ ـ **لا يُستطاعُ السّلطانُ إلا بالوُزراءِ** والأعوانِ ولا ينفَع الوزراءُ إلا بالمودّة والنصيحةِ ولا المَودّةُ إلا معَ الرأيِ والعفاف.

وأعمالُ السلطانِ كثيرةٌ وقلّما تستجمعُ الخصالُ المحمودةُ عنْد أَحدٍ. وإنما الوجْهُ في ذلكَ والسبيلُ الذي يستقيمُ بهِ العمل أن يكون صاحبُ السلطان عالِماً بأمورِ من يريدُ الإستعانةَ به وما عنْدَ كلّ رجلٍ من الرأيِ والغنَاء، وما فيهِ من العَيوب.

فإذا استقرّ ذلك عندَه عن علمِه وعلم من يأتمن، وجّه لكلِ عملٍ من قد عرفَ أنّ عندهِ منَ الرأيِ والنّجدةِ والأمانةِ ما يُحتاج إليه فيه، وإن ما فيه من العيوبِ لا يضرّ بذلكَ، ويتحفّظَ من أن يوجّه أحَداً وجْهاً لا يُحتاج فيهِ إلى مروءةٍ إن كانتْ عندَه ولا يأمن عيوبَه وما يكرَهُ منه.

٧ ـ **ثم علَى الملوكِ بعدَ ذلك تعهدُ عمّالهم** وتفقّدُ أمورِهم حتى لا يخْفى عليهِم إحسانُ محسنٍ ولا إساءةُ مسيء.

٨ ـ **ثم عليهمْ بعدَ ذلك** أن لا يتركوا مُحْسناً بغيرِ جزَاء ولا يُقِرّوا[١] مُسيئاً ولا عاجِزاً على الإساءة والعَجْز. فإنّهم إن تركُوا ذلك تهاونَ المحْسنُ واجتَرأ المسيءُ وفسدَ الأمرُ وضاعَ العمل.

اقتصارُ السّعي أبقى للجمام[٢] وفي بعْد الهمّةِ يكونُ النّصَب[٣] ومن سألَ فوقَ قدرِه استحقّ الحِرمانَ.

---

(١) أقرّ يقرّ فلاناً على الأمر: قبله منه وأبقاه عليه وثبّته.

(٢) الجمام: الراحة.

(٣) النصب: شدّة التعب، الإعياء.

٩ ـ **سوءُ حمْلِ الغنى أن يكونَ عند الفرحِ مرحاً.**

وسوء حمل الفاقَة أن يكونَ عنْدَ الطلبِ شرِهاً.

وعارُ الفقْر أهونُ من عارِ الغِنى.

والحاجَةُ معَ المحبّة خيرٌ من الغِنى مع البغضَة.

والدّنيا دُوَلٌ فما كانَ منها لكَ أتاكَ على ضعفِك وما كان عليْك لم تدفعْه بقوّتك.

إذا جُعِلَ الكلامُ مثلاً كان أوضَح للمنطقِ وأبينَ في المَعْنى وآنقَ للسمْع وأوسَعَ لشعوبِ الحديث.

١٠ ـ **أشدُّ الفاقةِ[١] عدمُ العَقْل.**

وأشدُّ الوحدة وحدةُ اللّجوج[٢].

ولا مالَ أفضلُ من العَقْل.

ولا أنسَ آنسُ من الإستشارة.

وممّا يعتبر به صلاحُ الصّالح وحسنُ نظرهِ للنّاس أن يكونَ إذا استعتَبَ المذنبَ ستوراً لا يشيع ولا يذيع، وإذا استشير سمحاً بالنصيحة مجتهداً للرأي وإذا استشارَ مطَّرحاً للحَياء معترِفاً للحَق.

●

● **القسمُ الذي يُقْسم للنّاس** ويمتعونَ به نحوان فمنْه حارسٌ ومنه محروسٌ فالحارسُ العقلُ والمحروسُ المال.

● **والعَقْلُ بإذْنِ اللّهِ هوَ الذي يُحْرزُ الحَظّ** ويؤْنِسَ الغربةَ ويُنْفي الفاقَةَ ويعرف النكرةَ ويثمرُ المكسبةَ ويطيبُ الثمرةَ ويوجّه السوقة[٣] عنْد السلطانِ ويستنزلُ للسلطانِ نصيحةَ السوقةِ ويكسب الصديقَ وينفي العدوّ.

● **كلامُ اللبيب** وإن كانَ نزْراً أدبٌ عظيم، ومقارفَةُ المَأثمِ وإنْ كانَ محتَقراً مصيبةٌ جليلةٌ ولقاءُ الأخوانِ وإن كانْ يَسيراً غُنمٌ حسَنٌ.

---

(١) **الفاقة**: الفقر والعوز الشديد.

(٢) **اللّجوج**: الملحاح، الذي يكثر من السؤال والطلب.

(٣) **السّوقة**: الرعيّة من النّاس.

● **قد يسْعى إلى أبوابِ السّلطانِ أجْناسٌ من النّاس كثيراً:**

أما الصّالح فمدعُوٌ وأمّا الطّالح فمقتحَمٌ وأما ذو الأدَب فطالِب، وأما منْ لا أدبَ له فمحتبسٌ وأما القويّ فمدافِعٌ وأما الضّعيفُ فمدفوعٌ، وأما المحسنُ فمستثيبٌ[1] وأما المُسيء فمستَجيرٌ[2]...

فهوَ مجمعُ البرّ والفاجرِ والعالمِ والجاهلِ والشّريفِ والوضيع.

● **النّاسُ إلا قليلاً ممّن عصمَ اللّهُ** مدخولون في أمورِهم فقائلُهم باغٍ، وسامعهُم عيّاب، وسائلُهم مُتَعَنِّت، ومجيبُهم متكلّفٌ، وواعظُهم غيرُ محقّق لقولِهِ بالفِعل، وموعوظُهم غيرُ سليمٍ من الاستخفافِ.

والأمينُ منهم غيرُ متحفّظٍ من إتيان الخِيانة، وذو الصدقِ غيرُ محترسٍ من حديثِ الكذْبة، وذو الدّين غيرُ متورّعٍ عن تفريطِ الفجرةِ.

والحازمُ منهم غيرُ تاركٍ لتوقّع الدوائر... يتناقضون البنى، ويترقبون الدول، ويتعاطون القبيح، ويتعايبون بالغمز؛ مولعونَ في الرّخاء بالتحاسُدِ، وفي الشّدة بالتّخاذل.

● **كمْ قد انترعَتِ الدّنيا ممّن قدْ استمكَنَ منْها** واعتكفَتْ له فأصبحتْ الأعمالُ أعمالَهم والدنيا دنيا غيرِهِم، وأَخَذَ متاعهم منْ لمْ يحْمَدْهُم وخَرَجُوا إلى مَنْ لا يعْذِرُهُم:

فأصبَحْنا خَلَفاً من بعْدهم نتوقّعُ مثلَ الذي نزلَ بهم فنحنُ إذا تدبّرنا أمورَهم أحقاءَ أن ننظرَ ما نغْبطهمْ به فنتبعَه وما نخافُ عليْهم منه فنجْتَنِبُهُ.

● **كانَ يُقال إنّ اللّهَ تَعالى قدْ يأمرُ بالشّيء ويبتلي بثقله** ويَنْهَى عنِ الشّيء ويبتَلي بشَهْوته. فإذا كنتَ لا تعمَلُ من الخَير إلا ما اشتهيتَ ولا تتركُ من الشرّ إلا ما كرهتَ فقد أطلعتَ الشيْطان على عورَتِكَ[3] وأمكنْتهُ من رميك[4] فأوشكَ أن يقتحمَ عليْك فيما تحبّ من الخيرِ فيكرهُه إليك، وفيما تكرَهُ منَ الشرّ فيحبّبه إليك.

---

(١) المستثيب: الذي يطلب الثواب.

(٢) المستجير: المستغيث والمستعيذ، واستجار بفلان التجأ إليه من فلان.

(٣) العورة: كل ما يستحيا منه من العيوب والنقائص.

(٤) رميك: مصدر رماه بكذا أي اتهمه وعابه.

ولكنْ ينبغي لكَ في حبّ ما تحبّ من الخيْر التحاملُ على ما يَسْتَثْقَلُ منه، وينبغي لك في كراهةِ ما تكره من الشرّ التجنّبُ لما تحبُّ منه.

• **الدّنيا زخرفٌ** يغلبُ الجوارحَ[1] ما لم تَغْلبْه الألبابُ، والحَكيمُ من يغْضي عنْه طرفَه ولم يشغلْ به قلبَه، أطلعَ من أدناه فيما وراءَه وذكرَ في بدئهِ لواحقَ شرّه، فأكلَ مرّة وشربَ كَدَرَه ليحلوليَ له، ويصْفوَ في طولِ من إقامةِ العيشِ الذي يبقى ويدومُ غيرَ عائفٍ للرشدِ، إنْ لمْ يَلْقَهُ برضَاه ولمْ يأتِهِ منْ طريق هَوَاه.

• **لا تألفِ المستوخَمَ**[2]، ولا تُقِمْ علَى غيرِ الثقةِ.

• قدْ بلغَ فضْلُ اللّهِ علَى النّاس من السّعةِ وبلغَتْ نعْمتُه عليهمْ من السّبوغ، ما لو أنّ أخسَّهم حَظاً وأقلّهم منه نَصيباً وأضعفَهم عِلْماً وأعجزَهم عَمَلاً وأعياهم لِساناً بلغَ من الشّكرِ له والثناءِ عليْه بما خُلصَ إليه منْ فضْله ووصَل إليه من نِعْمته، ما بلغَ لهُ منه أعظمهُم حظاً وأوفرُهم نصيباً وأفضلهُم علْماً وأقواهم عمَلاً وأبسطهُم لِساناً لكان عَمّا استوجبَ اللّهُ عليه مُقَصّراً وعنْ بُلوغِ غايةِ الشكر بعيداً.

ومِنْ أخذَ بحَظِه منْ شكرَ اللّهَ وحمدَه ومعرفة نعمه والثناء عليه والتحميد لهُ فقد استوجبَ بذلك من أدائِه إلى اللّهِ والقربةِ عنْده والوسيلةِ إليه والمزيدِ فيما شكرَه عليه، خيرَ الدنيا وحسنَ ثوابِ الآخرة.

• **أفضلُ ما يُعلَمُ** بهِ عِلْمُ ذي العِلْم وصَلاحُ ذي الصّلاحِ أنْ يسْتَصْلِحَ بما أوتيَ من ذلكَ من استطاعَ منَ النّاس ويرغّبهم فيما رغبَ فيه لنفْسه مِنْ حُبّ الله وحبّ حكمتِه، والعملِ بطاعتهِ والرجاءِ لحسنِ ثوابهِ في المَعاد إليه، وأن يبينَ الذي لهُم من الأخْذِ بذلكَ والذي عليْهِم في تَرْكِهِ، وأنْ يورثَ ذلك أهلَه ومعارفَه ليلحقَه أجرهُ منْ بعدِ الموْت.

٥ ـ **الديـنُ أفضـلُ** المـواهـب التـي وصلَـتْ منَ الله تـعالـى إلى خَلْقه وأعظمُها منفعةً وأحمَدُها في كلّ حكمةٍ.

---

(١) الجوارح: جمع جارحة وهي العضو من الجسم.

(٢) استوخم (الطعام): توخّمه أي وجده وخيماً والوخيم الثقيل.

ـ فقد بلغَ فضلُ الدينِ والحكمةِ أنْ مُدحا على ألسنةِ الجهال، على جهالتهم بهما وعمَاهم عنهما.

● **أحقُّ النّاس** بالسّلطان أهلُ المعرفةَ وأحقهُم بالتّدبيرِ العُلماء وأحقُّهم بالفَضْل أعودُهم على النّاس بفضْلِه.

ـ وأحقّهم بالعِلْم أحسنُهم تأديباً وأحقهُم بالغِنى أهلُ الجود.

ـ وأقربُهم إلى الله أنفذُهم في الحقّ عِلْماً وأكملُهم به عَملاً.

ـ وأحكمُهم أبعدهم من الشكّ في الله تعالى، وأصوبُهم رجاءً أوثقهم بالله وأشدُّهُم انتِفاعاً بعِلْمهِ أبعدُهم منَ الأذى.

ـ وأرْضاهُم في النّاسِ أفشاهُمْ معْروفاً وأقواهُمْ أحسنُهم معونةً وأشجَعُهُم أشدُّهُم على الشّيطان وأفلجُهم[1] بالحجّة أغلبهُم للشّهوةِ والحِرْصِ.

ـ وآخَذُهُمْ بالرأيِ أتركهم للهوى، وأحقُهم بالمودّة أشدُّهم لنفسِه حُباً وأجودُهم أصوبُهم بالعَطية موضِعاً وأطولُهم راحَةً أحسنُهم للأمور احتمالاً وأقلّهم دهشَاً أرحبهُم ذراعاً.

ـ وأوسعهم غنى أقنعُهم بما أُوتي.

ـ وأخفضُهم عيْشاً أبعدُهم من الإفراط وأظهرُهم جَمالاً أظهرُهم حَصَافةً.

ـ **وآمنهمُ** في النّاس آكلهُم ناباً ومِخْلباً.

ـ **وأثبتهُم** شهادةً عليهم أنطقهُم عنهم.

ـ **وأعدلُهم** فيهم أدومُهم مسالمةً لهم.

ـ **وأحقُّهم** بالنّعم أشكرُهم لما أُوتي منْها.

● **أفضلُ** ما يُورثُ الآباءُ الأبناءَ الثناءُ الحسنُ والأدبُ النّافعُ والأخوانُ الصّالحون.

● **فضلُ ما بينَ الدّينِ والرّأي** أنّ الدينَ يسلمُ بالإيمان، وأنَّ الرأيَ يثبُتُ بالخُصومة فمنْ جعلَ الدينَ خُصومةً فقدْ جعلَ الدين رأياً. من جَعَلَ الرأيَ

---

(١) **أفلجهم بالحجّة**: فاز عليهم بها من فلج القوم وعلى القوم أي فاز وظفر بما طلب.

ديناً فقدْ صارَ شارِعاً[1] ومن كانَ هو يشرعُ لنفسِه الدينَ فلا دينَ له.

ـ **قد يشتبهُ الدينُ والرأيُ في أماكنَ لولا تشابههما لم يحتاجا إلى** الفَصل.

● **العُجْبُ آفةُ العَقْل** واللجاجةُ[2] قعودُ الهوى، **والبخلُ لقاحُ الحرصِ** والمِراءُ فسَادُ اللسانِ والحَمِيَّةُ سببُ الجَهْل والأنفُ توأمُ السّفه[3] والمنافسَةُ أختُ العداوة.

● **إذا هممتَ بخَيْرٍ** فبادِرْ هوَاكَ لا يغلبكَ، وإذا همَمْتَ بشَرّ فسوّفْ هَواكَ لعلك تظفر، فإنّ ما مضَى بمن الأيام والساعاتِ على ذلك هو الغُنْم.

● **لا يمنعنّك** صغرُ شأنِ امرئٍ من اجتناءِ ما رأيتَ من رأيِهِ صوَاباً والاصطفاءِ لما رأيْتَ من أخلاقِه كريماً، فإنَّ اللؤلؤةَ الفائقةَ لا تُهانُ لهوانِ غائصِها الذي استخرَجها.

● **من أبوابِ الترفّقِ والتوفيقِ** في التّعليم أن يكونَ وجهُ الرجلِ الذي يُتَوَجَّهُ فيه العلمُ والأدبُ فيما يوافقُ طاعةً ويكونُ لهُ عندَه محملٌ وقبول، فلا يذهبُ عناؤه في غيرِ غنَاء ولا تفْنى أيامُه في غيرِ دركٍ، ولا يُسْتفرغُ نصيبُه فيما لا ينجَعُ فيه، ولا يكونُ كرجلٍ أرادَ أن يعمرَ أرضاً تهمة[4]. فغرسَها جوزاً ولوزاً.. وأرضاً جَلْساً[5]. فغرسَها نخلاً وموزاً.

● **العلمُ زينٌ لصاحبه** في الرخاءِ ومنجاةٌ له في الشِدَة.

● **بالأدبِ** تعمرُ القلوبُ وبالعلم تستحكَمُ الأحلامُ:

فالعقْلُ الذاتيّ غيرُ الصنيعِ كالأرضِ الطيبةِ الخَراب.

● **وممّا يدل** على معرفة الله (وهو) سببُ الإِيمانِ أنْ يوكَلَ بالغَيْبِ لكلّ ظاهِرٍ منَ الدّنيا صغير أو كبير عيْناً فهو يصرفهُ ويحرّكُهَ، فمَنْ كان معتبراً

---

(١) **الشارع**: اسم فاعل من شرع القوانين أي سنّها.

(٢) **اللجاجة**: شدّة الإلحاح في الطلب.

(٣) **السّفه**: الجهل، رداء الخلق.

(٤) **التهمة**: الفاسدة.

(٥) **الأرض الجلس**: المستوية.

بالجَليلِ منْ ذلك فلينظُرْ إلى السّماءِ فيعلَمِ أنّ لها ربّاً يُجْري فلكَها ويدبّر أمرَها.

ومنِ اعتبرَ بالصّغير فلينظرْ إلى حبّةِ الخردَل فيعرفَ أن لها مدبّراً ينْبتها ويزكيّهاويقدّرُ لها أوقاتَها منَ الأرضِ والمَاءِ يوقت لها زمانَ نباتِها وزمانَ تهشّمها.

● وأمرُ النبوةِ والأحلام وما يحدثُ في أنفسَ النّاس من حيثُ لا يعلمونَ ثمّ يظهرُ منهمْ بالقولِ والفعْلِ، ثمّ اجتماعُ العلماءِ والجهّال والمهتَدين والضّلال على ذكرِ الله تعالى وتعظيمهِ واجتماعُ من شكَّ في الله تعالى وكذّب به على الإقرار بأنهم أنشأوا حَديثاً ومعرفتهم أنهمْ لم يحْدثوا أنفسَهم...

فكلّ ذلك يهْدي إلى الله ويدل على الذي كانتْ منه هذه الأمورُ معَ ما يزيدُ ذلك يقيناً عند المؤمنين بأنّ الله حقّ كبيرٌ ولا يُقْدّرُ أحدٌ أنه باطِل.

●

١ ـ إنّ للسّلطانِ المقْسِطَ حَقاً[1] لا يصلحُ لخاصّة ولا عامّة أمرٌ إلا بإرادتهِ، فذو اللبّ حقيقٌ أن يخلصَ لهم النصيحةَ ويبذلَ لهم الطاعةَ ويكتمَ سرّهم ويزّينَ سيرتَهم ويذبَّ[2] بلسانِه ويدِه عنهم، ويتوخى مرضاتَهم ويكونَ منْ أمرِه المواتاة[3] لهُمْ، والإيثارُ لأهوْائهم ورَأْيِهم على هواه ويقدّرَ الأمورَ على موافقتِهم وإنْ كانَ ذلك لهُ مخالفاً.

● وأنْ يكونَ منهِ الجدُّ في المُخالَفَةِ لمَنْ جانَبهُمُ[4] وجَهِلَ حقّهم، ولا يواصلَ من النّاس إلا مَنْ لا تباعد مواصلتهُ إيّاه منهمْ، ولا تحمله عداوةُ أحدٍ له ولا إضرار به على الأضطغانِ[5] عليهِمْ ولا مُواتاة أحدٍ على الإستخفافِ بشيءٍ من أُمُورِهِمْ والإنتقاصِ لشيءٍ من حَقّهم...

● ولا يكتمَهُمْ شيئاً منْ نصيحَتِهِمْ ولا يتثاقلَ عنْ شيءٍ من طاعتِهم ولا

---

(١) الحقّ: الأمر المقضيّ، والجدير.
(٢) يذبّ عنهم: يدافع عنهم، يذود.
(٣) المواتاة: الموافقة مصدر واتى (ه): أي جاراهُ.
(٤) جانبهم: تحاشاهم وجفاهم وابتعد عنهم.
(٥) الأضغان: الحقد.

يبطرَ إذا أكرموهُ ولا يجترىءَ عليْهم إذا قربُوه، ولا يطْغى إذا سلّطوه ولا يُلْحِفَ إذا سألَهُم ولا يُدْخِلَ عليْهم المؤونةَ ولا يستثقلَ ما حمّلوه ولا يغترَّ بِهم إذا رضُوا عنه ولا يتعيرَ لهمُ إذا سخِطوا عليْه وأن يحمدَهم على ما أصابَ من خير منهم أو منْ غيرهم، فإنّه لا يقدرُ أحدٌ على أن يصيبَه بخير إلا بدفاع الله عنه بهم.

٢ ـ **مما يدلُّ على علم العالمِ** معرفتهُ بما يدركُ منَ الأمورِ وإمساكهُ عمّا لا يدركُ وتوبيخه نفسَه بالمَكارمِ وظهورُ علمِه للنّاس منْ غيرِ أنْ يظهرَ منه فخرٌ ولا عَجَبٌ، ومعرفتُه بزمانه الذي هوَ فيه وبصرُه بالنّاس وأخذُه بالقِسْط وإرشادُه المسترشِدَ وحسنُ مخالقتِه خلطاءَه[1]، وتسويتُه بينَ قلبِه ولسانِه وتحرّيه العدلَ في كلِّ أمرٍ ورحبُ ذرْعه فيما نابَه[2] واحتجاجُه بالحجج فيما عمِل وحسنُ تبْصيره منْ أرادَ أن يبصرَ شيئاً من علمِ الآخرةِ فبالعلمِ الذي بهِ يُعرف ذلك.

٣ ـ **ومن أرادَ أن يبصرَ شيئاً من علمِ** الدّنيا فبالأشياءِ التي هي تدلُّ عليه:

- ليكن المرءُ سَؤولاً وليكنْ فَصُولاً بينَ الحقَ والباطلِ،
- وليكنْ صَدوقاً ليؤمنَ على ما قال،
- وليكنْ ذا عهدٍ ليوفى له بعْده،
- وليكنْ شكوراً ليستوجبَ الزيادة،
- وليكنْ جواداً ليكونَ للخير أهلاً،
- وليكنْ رحيماً بالمضرورين لِئلا يُبْتلى بالضرّ،
- وليكن ودَوداً لئلا يكون معْدِناً لأخلاق الشيطان،
- وليكنْ حافِظاً للسانِه مُقْبِلاً على شأنِهِ لئَلا يؤخَذَ بما لمْ يجترمْ[3]،
- وليكُنْ متواضِعاً ليفرحَ له بالخير ولا يُحسدَ عليه،

---

(١) الخلطاء: جمع خليط وهو الصاحب والعشير والجار... الخ.

(٢) نابه: ألمّ به، أصابه.

(٣) اجترم: أذنب.

الحسَدُ،

- وليكنْ حذِراً لِئلا تطولُ مخافَتُه،
- ولا يكنْ حَقوداً لِئلا يضرّ بنفسه إضراراً باقياً،
- وليكنْ ذا حياءٍ لئَلا يستذمَ للعُلماء فإنّ مخافةَ العالِم مذمّةَ العلماءِ أشدُّ من مخافته عقوبةَ السّلطان.

حياةُ الشَيطانِ تركُ العِلْم وروحُه وجسَدُه الجهلُ، ومعدنهُ في أهْلِ الحْقدِ والقَساوة ومثْواه في أهلِ الغضَب، وعيْشه في المُصَارَمة[1] ورَجاؤه في الإِصرارِ على الذنَوب.

٤ ـ وقالَ: **لا ينبغي للمَرْء** أنْ يعَتدَّ بِعِلْمهِ ورَأْيه ما لمْ يذاكرهُ ذوو الألبابِ ولَمْ يجامِعوه عليه فإنّه لا يستكملُ علمُ الأشياءِ بالعقل الفردِ.

- **أعدلُ السير أن تقيسَ** النّاسَ بنفسِك فلا تأتي إليهم إلا ما ترْضى أن يؤتى إليك.
- **وأنفعُ العقلِ** أن تُحْسِنَ المعيشةَ فيما أُوتيتَ من خيرٍ، وإلا تكثّرتَ منَ الشرَ بما لمْ يصبْك، ومنَ العِلْمِ أن تَعْلَم أنّكَ لا تَعْلَمُ بمَا لا تعلَم.
- **ومِنْ أحسن ذوي العُقول عقْلاً** منْ أحسنَ تقديرَ أمرِ معاشِه ومعادِهِ تقديراً لا يُفْسِدُ عليهَ واحدٌ منهما الآخرَ فإنْ أعياه[2] ذلك رفضَ الأدنى وآثرَ عليه الأعظَم.

٥ ـ وقال: المؤمِنُ بشيءٍ منَ الأشياءِ وإن كانَ سحْراً خيرٌ ممّن لا يؤمنُ بشيء ولا يرْجو مَعاداً.

لا تؤدّي التوبةُ أحَداً إلى النّار ولا الإِصرارُ على الذّنوبِ أحَداً إلى الجنّة.

- **من أفضلِ أعمالِ البرّ ثلاثُ خصال:**

الصدقُ في الغضبِ، والجودُ في العُسْرةِ، والعَفْوُ عندَ المقدرةِ.

---

(١) **المصارمة**: القطيعة، الهجر.

(٢) **أعياه**: أتعبه وجعله يشعر بالعجز.

● **رأسُ الذّنوبِ الكَذب**. . . هو يؤسِّسها وهو يتفقّدها ويثبّتها ويتلونَ ثلاثةَ ألوانٍ بالأمنيةِ والجُحودِ[1] والجَدَلِ[2]: يبدأُ صاحبُه بالأمنية الكاذبة فيما يزينُ له من السوءات فيشجعُه عليها بأنَّ ذلك سيخْفى. فإذا ظهرَ عليه قابلَه بالجُحودِ والمكابرةِ، فإنّ أعيْاه ذلكَ ختمَ بالجَدَل فخاصَم عن الباطلِ ووضعَ له الحججَ والتمسَ به التثبّت وكابرَ به الحَقَّ حتّى يكونَ مسارِعاً للضلالة ومُكابراً بالفَواحش.

● لا يثبتُ دِينُ المرءِ على حالةٍ واحدةٍ أبداً ولكنّه لا يزالُ إمَّا زائداً وإما ناقِصاً.

● **من علامات اللئيم المخادع** أن يكونَ حسنَ القولِ سيءَ الفعْل بعيدَ الغضب قريبَ الحسدِ حمولاً للفحْشِ[3]، مُجازياً بالحِقْد متكلّفاً للجودِ صغيرَ الخطرِ متوسّعاً فيما ليسَ له، ضيّقاً فيما يملك.

٦ ـ **وكانَ يُقال**: إذا تخالَجتك[4] الأمورُ فاستقلَّ أعظمَها خطَراً فإنْ يستبِنْ ذلك فأرجاها دَرَكا، فإن اشتبهَ ذلك فأجدرُها أنْ لا يكونَ له مرجوعٌ حينَ تولّي فرصتُه.

٧ ـ **وكانَ يُقال**: الرجالُ أربَعةٌ:

ـ إثنان يختبَرُ ما عندَهما بالتجربَة، وإثنان قد كفيت تجربتهُما:

فأما اللذان يُحتاجُ إلى تجربتِهما فإن أحدَهما برٌّ كانَ مع أبرارٍ والآخرُ فاجرٌ كانَ مع فجّارٍ، فإنّك لا تدْري لعلَّ البَرّ منهما إذا خالطَ الفجّارَ أن يتبدّلَ فيصيرَ فاجراً، ولعلّ الفاجِر منهما إذا خالَطَ الأبرارَ أن يتبدّل فيصيرَ برّاً فيتبدل البرّ فاجِراً والفاجِرُ برّاً.

● وأما اللذان قد كفيتَ تجربتَهما وتبيّنَ لك ضوءُ أمرِهما فإن أحدَهما فاجرٌ كان في أبرار والآخر برٌّ كانَ في فجار.

---

(١) **الجحود**: الإنكار، جحده حقّه وبحقه: أنكره مع علمه به.

(٢) **الجدل**: الخصومة والمهارة في الخصومة، **والجدل** اعتماد المنطق في النقاش.

(٣) **الفحش**: القبيح من القول والفعل.

(٤) **تخالجتك الأمور**: خامرتك، **وخالجه الأمر**: نازع منه الفكر أو القلب.

● **حقُّ علَى العاقِلِ** أن يتّخذَ مرآتين فينظرَ منْ إحداهما في مساوِئ نفسِه فيتصاغرَ بها ويُصْلِحَ ما استطاعَ منْها وينظرَ منَ الأخرى، في محاسنِ النّاس فيحليَهم بها ويأخذَ ما استطاع مَنها.

● **إحذرْ خصومةَ** الأهْلِ والولدِ والصديقِ والضعيفِ واحتجَ عليهم بالحجج.

● **لا يوقعنّك بلاءٌ** تخلصْتَ منه في آخرَ، لعلك أنْ لا تخلصَ منه.

● **الوَرِعُ**[1] لا يَخْدَعُ والأريبُ[2] لا يُخدعَ، **ومِنْ ورعِ الرجلِ** أن لا يقولَ ما لا يعلمُ ومن الإربِ[3] أن يتثبتَ فيما يعلم.

٨ ـ **وكانَ يقالُ عملُ** الرَّجلِ فيما يعْلم أنّه خطأ هوى، والهَوى آفةُ العَفاف وتركُه العمل بما يعلمُ أنّه صوابٌ تهاونٌ والتهاونُ آفةُ الدين، وإقدامُه على ما لا يدْري.. أصوابٌ هو أم خطأ جماحٌ[4] والجَماح آفةُ العقل.

٩ ـ **وكانَ يُقال وقّرْ** من فوقَك وَلِنْ لمن دونَك وأحسِنْ مواتاةَ أكفائِك، وليكنْ آثرَ ذلكَ عندَك مواتاةَ الأكفاءِ فإنَّ ذلكَ هوَ الذي يشهدُ لكَ أنّ إجلالك مَنْ فوقَك ليسَ بخضوعٍ منك لهُم، وأنَّ لينَك لِمَنْ دونَك ليسْ لالتماسِ[5] خِدْمتِهم.

● **خمسةٌ مفرطون**[6] **في خمسةِ أشياء يندَمونَ عليْها**:

ـ الواهنُ[7] المفرطُ إذا فاتهُ العمل.

ـ والمنقطِعُ من إخوانِه وصديقِه إذا نابَتْه النوائبُ.

ـ والمستمْكِنُ[8] منه عدُوه، لسوءِ رأيِهِ إذا إذا تذاكرَ عجزَه.

---

(١) **الورع**: التقوى والابتعاد عن الإثم.

(٢) **الأريب**: الفطن، الذكيّ.

(٣) **الإرب**: الحاجة.

(٤) **الجماح**: مصدر جمح جمْحاً وجماحاً وجموحاً الفرس تغلّب على راكبه وذهب به لا ينثني، وجمح استعصى، **والجماح** ركوب الأهواء.

(٥) **التماس الشيء**: طلبه.

(٦) **المفرط**: اسم فاعل من **أفرط في الأمر**: جاوز فيه الحد.

(٧) **الواهن**: الضعيف.

(٨) **المستمكن**: الممسك به والمتسلّط عليه.

ـ والمفارقُ الزوجةَ الصالحةَ إذا ابتُلي بالطّالحة.

ـ والجريءُ على الذنوب إذا حضرَه المَوت.

● **أمورٌ لا تصلحُ إلا بقرائنِها:**

ـ لا ينفَعُ العقلُ بغيرِ ورَع.

ـ ولا الحفظُ بغيرِ عقل.

ـ ولا شدّةُ البَطشِ بغيرِ شدّةِ القلب.

ـ ولا الجمالُ بغير حَلاوةٍ ولا الحسبُ بغير أدَب، ولا السرورَ بغير أمْن.

ـ ولا الغِنى بغيرِ جُودٍ ولا المروءة بغيرِ تواضُعٍ ولا الخفض بغير كِفايةٍ ولا الإجتهادُ بغير توفيقٍ.

● **أمورٌ هنّ تبعٌ لأمور:**

ـ فالمرواءاتُ كلّها تبعٌ للعقْل،

ـ والرأيُ تبعٌ للتجربةِ والغِبْطَةُ تبعٌ لحسنِ الثّناء،

ـ والسرورُ تبعٌ للأمنِ،

ـ والقرابةُ تبعٌ للمودّة،

ـ والجدةُ تبعٌ للإنفاق.

● **أصْلُ العقْل** التثبّتُ وثمرتُه السّلامة.

ـ **وأصلُ الورعِ** القناعةُ وثمرتُه الظَفَر،

ـ **وأصلُ التوفيق** العملُ وثمرتُه النّجاح.

● **لا يذكَرُ الفاجِرُ في العُقَلاء ولا الكَذوبُ في الأعفَّاء، ولا الخَذولُ** في الكُرَماء ولا الكَفُور بشيءٍ من الخيرِ.

● **لا تؤاخينّ** خَباً[1] ولا تستنصرنّ عاجزاً ولا تستعيننّ كَسِلاً.

● **إنَّ من أعظمِ ما يروِّحُ به المرءُ نفسَه**، أن لا يجريَ لما يهوى وليسَ كائناً إلا لمَا لا يهوى وهو لا محالة كائن.

---

(١) **الخب**: المخادع.

● **اغتنمْ من الخير** ما تعجلْتَ، ومن الأهواءِ ما سوَّفْتَ، ومن النَّصَبِ ما عادَ عليك، ولا تفرحْ بالبطالةِ ولا تجبُنْ عنِ العمَل.

● **منِ استعظَمَ منَ الدّنيا شيئاً فبطرَ**[1] واستصغرَ من الدّنيا شيئاً فتهاونَ واحتقرَ من الإِثم شيئاً فاجترأ عليْه، واغترّ بعدوٌ وإن قلَّ فلم يحذرْه... فذلك من ضَيَاع العَقْل.

● **لا يستخفّ ذو العَقْل** بأحدِ وأحقُّ منْ لمْ يُسْتَخَفّ به ثلاثة: الأتقياءُ والولاةُ والأخوان:

ـ فإنه من استخفَ بالأتقياء أهلَكِ دينَه ـ ومن استخَفّ بالوَلاةِ أهلَك دُنْياه ـ ومن استخفَّ بالأخوان أفسدَ مروءتَه.

● **من حاولَ الأمورَ** احتاجَ فيها إلى سِتّ:

ـ الرأي والتوفيقُ والفرصةُ[2] والأعوانُ والأدبُ والإِجتهادُ وهن أزواجٌ:

ـ فالرأيُ والأدبُ زوجٌ لا يكمل الأدبُ إلا بالرأيِ ولا يكمُل الرأيُ بغيرِ الأدب.

ـ **والأعوانُ والفرصَةُ زوجٌ** لا تنفعُ الأعوانُ إلا عندَ الفرْصة ولا تنفَعُ الفرصةُ إلا بحضورِ الأعوان.

● والتوفيقُ والإِجتهادُ زوْجٌ فالإِجتهادُ سببُ التوفيق وبالتوفيقِ ينجَحُ الإِجتهاد.

● يسلمُ العاقِلُ من عظامِ الذنوبِ والعيوبِ بالقَناعة ومُحاسبة النّفْسِ.

● **لا تجد العاقلَ** يحدّثُ من يخافُ تكذيبَه، ولا يسألُ منْ يخاف منعَه، ولا يعدُ ما لا يجدُ إنجازهَ، ولا يرجْو ما يعنفُ برجائه ولا يقدِمُ على ما يخافُ العجزَ عنه.

ـ وهو يَسْخى بنَفْسِه عمّا يغبط به القوّالون خُروجاً من عيبِ التكذيب، ويسخَى بنفسِه عمّا ينال به السّائلون سلامةَ من مذلة المَسْألة.

---

(١) بطر: كفر بالنعمة.

(٢) الفرصة: السانحة، النهزة.

ـ ويسخَى بنفسِه عن فرحِ الرجاءِ خوفَ الإكداء[1].

ـ ويسخَى بنفسه عن محمَدَةِ المواعيدِ براءةً من مذمّة الخلفِ.

ـ ويسخَى بنفسه عن مراتبِ المقدّمين ما يرى من فضائحِ المقصّرين.

ـ ويسخَى بنفسه عن فرَح الرجّاء.

● **لا عقلَ لمن أغفلَه** عن آخرته ما يجدُه من لذّة دنياه، وليسَ مِنَ العَقْل أن يحرمَه حظُّه منَ الدنيا بصرُهُ بزوالها.

● **حازَ الخيرَ** رجلان سعيدٌ ومرجوٌ: والسعيدُ الفالحُ، والمرجوُ منْ لمْ يخصمْ ـ والفالحُ الصالح ما دامَ في قيد الحياةِ، وتعرض الفتنَ في مخاصمة الخصماء منَ الأهواء والأعداء.

● **السعيدُ يرغّبه اللّهُ في الآخرة** حتّى يقول: لا شيءَ غيرها فإذا هضَم دنياه وزهدَ فيها لآخرته لم يحرِمْه الله بذلك نصيبَه منَ الدنيا، ولم يُنْقصْه من سروره فيها.

والشّقيُ يرغّبه الشيطانُ في الدّنيا حتّى يقول: لا شيءَ غيرُها فيعجل اللّهُ له التنغيصَ[2] في الدنيا التي آثر مع الخِزي الذي يَلْقى بعدها.

● **الرجال أربعةٌ**: جوادٌ وبخيلٌ ومسرفٌ ومقتصدٌ.

ـ فالجوادُ الذي يوجّهُ نصيبَ آخرته ونصيبَ دنياه جميعاً في أمرِ آخرته.

ـ **والبخيلُ** الذي لا يَعْطي واحدةً منهما نصيبَها.

ـ **والمسرفُ** الذي يجمَعهما لدنياه.

ـ **والمقتصِدُ** الذي يُلحقُ بكل واحدةٍ منهما نصيبَها.

● **أغنى** الناس أكثرهُم إحساناً.

١٠ ـ **قالَ رجلٌ لحكيم**: ما يؤتى المرءُ؟ **قال**: غريزةُ عقل. **قال**: فإنْ لم تكنْ، **قال**: فتعلّمُ علم. **قال**: فإن حرمَه. **قال**: صدقُ اللسان، **قال**: فإنْ حرمَه، **قال**: سكت طويلٌ. **قال**: فإن حُرِمَهُ. ميتةٌ عاجِلة.

---

(١) **الأكداء**: مصدر كدى إكداة أي بخل وأكدى العام: أجدب.

(٢) **التنغيص**: التكدير مصدر نغّص عليه عيشه كدّره وحال دون هناءته.

● **من أشدِّ عيوبِ الإنسانِ** خفاءُ عيوبِه عليْه، فإنّه منْ خفِيَ علَيه عيبُه خفيَتْ عليه محاسِنُ غيْره.

ومنْ خفِيَ عليهِ عيْبُ نفسِه ومحاسَنُ غيره، لم يُقْلِعْ عن عَيْبه الذي لا يعرف، ولنْ ينالَ محاسنَ غيرهِ التي لا يبصرُها أبداً.

● **خصال يسرُّ بها الجَاهل**.. كلّها كائنٌ عليه وبالاً:

منها أن يفخرَ من العلمِ والمروءة بما ليْس عندَه.

ومنْها أن يرَى بالأخيارِ من الإستهانة[1] والجفوةِ[2] ما يشتمهُ بهم.

ومِنها أنْ يناقِل[3] **عالماً** وديعاً منصِفاً له في القَوْل فيشتدّ صوتُ ذلك الجاهل عليه، ثم يُفلجه[4] نظراؤه من الجهّال حولَه بشدّة الصوت وكثرة الضحك.

ومنها أن تفرطَ منه الكلمةُ أو الفعلةُ المعجبةُ للقومِ فيذكرُ بها.

ومنها أن يكونَ مجلسُه في المحفَل أو عند السلطان فوقَ مجالسِ أهل الفضْل عليه.

● **من الدّليل على سخافةِ المتكلّم** أن يكونَ ما يُرى من ضَحِكِه ليْس على حسبِ ما عنْده من القَوْل، أو يجاذِبَ الرجلُ الكلامَ وهو يكلّمُ صاحبَه ليكونَ هو المتكلم، أو يتمنّى أن يكونَ صاحبُه قد فرغ وأنصتَ له فإذا أنصتَ له لمْ يُحسِنِ الكلام.

● **فضلُ العلم في غيرِ الدين** مهلكةٌ وكثرةُ الأدبِ في غيرِ رضوانِ الله ومنفعةِ الأخيار قائدٌ إلى النار.

● **والحفظُ الذكيّ** الوعيُ بغيرِ العلمِ النافعِ مضرٌ بالعملِ الصالحِ والعَقْلُ غيرُ الوازعِ عن الذنوبِ خازِنٌ للشيطان.

● **لا يؤمِننّكَ شرُّ الجَاهل** قرابةٌ ولا جوارٌ ولا إلْفق.. فإنَّ أخوفَ ما يكون الإنسانُ لحريقِ النار أقربُ ما يكونُ منها.

---

(١) **الاستهانة**: الاستحقار الاستهزاء.

(٢) **الجفوة**: الغلظ في المعاشرة.

(٣) **ناقله يناقله**: ناقضه ويناقضه.

(٤) **يفلجه النظراء**: يفوزون عليه.

وكذلك الجاهلُ إنْ جاورك أنصبَك وإن ناسَبكِ جنَى عليكَ وإن ألفَك حملَ عليك ما لا تُطيق، وإن عاشرَك آذاك وأخافَك مع أنّه عندَ الجُوع سبُع ضارٍ وعنْد الشبَع ملِكٌ فقط وعنْد الموافقةِ في الدّين قائدٌ إلى جهنّم، فأنْتَ بالهرَب منه أحقُّ مِنك بالهِرَب من سُم الأساودِ[1] والحرَيق المخوفِ والدَّيْنِ الفادح والدّاء العَيَاء.

١١ ـ **كان يقال** قاربْ عدوَّك بعضَ المقاربة تنَلْ حاجتَك ولا تقارِبْه كلَّ المقاربة فيجترىءُ عليْك عدوّك وتذلّ نفسُك ويرغبُ عنك ناصُرك، ومثل ذلكَ مثلُ العُود المنصوبِ في الشَمس إن أملتَهُ قليلاً زادَ ظلّه وإنْ جاوزْتَ الحدّ في إمالته نَقُصَ الظلُّ.

الحازمُ لا يأمنُ عدوّه على كلِّ حال. . . إن كانَ بعيداً لم يأمنْ منْ معاودتِه[2] وإن كانَ قريباً لم يأمَنْ مواثبته فإنْ رآه منكشِفاً لم يأمن استطرادَه وكمينَه وإن رآهَ وحيداً لم يأمَن مكرَهُ.

● **الملك الحازم** يزدادُ برأي الوزراء الحزمة، كما يزدادُ البحر بموادِه من الأنهار.

● **الظّفَر بالحزمِ**، والحَزْمُ بإجالة الرأيِ، والرأيُ بتكرارِ النّظر وبتحصينِ الأسرار.

●**إن المستشيرَ** وإنْ كانَ أفضَلَ من المستشار رأياً فهو يزدادُ برأيه رأياً كما تزدادُ النار بالودك[3] ضوءاً. وعلى المسْتشارِ موافقةُ المستشير على صَواب ما يَرى والرفقِ به في تبصيرِ خطأ إنْ أتى به وتقليبِ الرأيِ فيما شكا فيه حتّى تستقيمَ لهما مشاورتُهما.

● **لا يطمعنَّ** ذو الكبر في حسنِ الثناء ولا الخَبُّ في كثرَةِ الصّديق، ولا السيءُ الأدبِ في الشَرَف، ولا الشحيحُ في المحمدَة، ولا الحريصُ في الأخوان ولا الملكُ المعجبُ بثباتِ المُلك.

---

(١) **الأساود**: الأفاعي.

(٢) **المعاودة**: الرجوع إلى الأمر الأول.

(٣) **الودك**: الدّسم من اللحم والشحم.

● **صرعةُ اللين** أشدُّ استئصالاً من صرَعةِ المُكابرَة.

● **أربعةُ أشياء لا يستقلّ[1] منها قليلٌ**: النارُ والمرضُ والعدوُّ والدَّينُ.

● **أحقُّ النّاس بالتوقير** الملكُ الحليمُ العالِمُ بالأمرِ وفرصِ الأعمالِ ومواضعِ الشدّة واللينِ والغضبِ والرّضا والمعاجلةِ والأناةِ، الناظرُ في الأمر يومَه وغدَه وعواقِب أعماله.

● **السببُ الذي** يدركُ به العاجزُ حاجتَه هوَ الذي يحولُ بين الحازمِ وبين طلبته.

● **إن أهلَ العقلِ** والكرمُ يبتغون إلى كُلِ معروفٍ وصلةً وسبيلاً، والمودةُ بينَ الأخيارِ سريعٌ اتصالُها بطيءٌ إنقطاعُها، ومثلُ ذلك مثلُ كوبِ الذَهب الذي هو بطيءِ الإنكسار هيّن الإصلاحِ، والمودّةُ بينَ الأشرار سريعٌ انقطاعُها بطيءٌ اتصالُها كالكوزِ من الفَخار يكسرُه أدنى عبثٍ ثم لا وصْلَ له أبداً.

والكريمُ يمنحُ الرجلَ مودّته عن لقاءةٍ واحدةٍ أو معرفةِ يوْم، واللئيمُ لا يصلُ أحداً إلا عنْ رغبةٍ أو رهبة، وإن أهلَ الدنيا يتعاطَوْن فيما بينَهم أمرَيْن ويتواصَلون عليهما ذاتَ النفس وذاتَ اليد، فأما المتباذلون[2] ذات اليدِ فهُم المتعاونون المستمتعِون الذين يلتمسُ بعضُهم الإنتفاعَ ببعضٍ متاجرةً ومكايلَةً.

١٢ ـ ما التّبعُ والأَعْوانُ والصدّيقُ والحَشَمُ[3] إلا للمالِ،

● ولا يُظْهِرَ المروءةَ إلا المالُ، ولا الرأيَ والقوةَ إلا بالمالِ.

ومنْ لا إخوانَ له فلا أهلَ له، ومنْ لا أولادَ له فلا ذِكرَ له، ومن لا عقلَ له فلا دُنيا لهُ ولا آخِرَة، ومنْ لا مالَ لهُ فلا شيءَ له.

---

(١) **استقلّ يستقلّ الشيء**: عدّه ورآه قليلاً، **واستقلّ الشيء** حمله، **واستقلّ بالأمر** أطاقه.

(٢) **المتباذلون**: الذين يتبادلون العطاء.

(٣) **الحشم**: الخدم.

١٣ ـ والفقرُ داعيةٌ إلى صاحبِه مقتَ[١] الناس، وهو مسلبةٌ للعقل والمرّوءة ومذهَبةٌ للعِلْمِ والأَدبِ ومعْدِنٌ للتهْمَةِ ومجمَعَةٌ للبلايا.

● ومن نزَل به الفقرُ والفاقةُ لم يجِدْ بدّاً من ترْك الحياءِ ومن ذهبَ حياؤه ذهبَ سرورُه، ومنْ ذهبَ سرورُه مقتَ، ومن مُقتَ أوذيَ، ومن أُوذيَ حزِنَ، ومن حزِن ذهَب عقلُه واستُنْكِرَ حفظُه وفهمُه، ومن أصيبَ في عقْله وفهْمِه وحفظِه كانَ أكثرُ قولِه وعملِه فيما يكونُ عليْه لا له.

● فإذا افتقرَ الرجلُ اتهمَه منْ كانَ له مؤتَمِناً وأساءَ به الظنُّ منْ كان يَظُنُّ به حسَناً فإنْ أذنَبَ غيرُه أظنّوه، وإنْ كانَ للتّهْمَة وسوءِ الظنّ موضِعاً.

وليْس خلةٌ هي للغني مدْحٌ إلاّ وهي للفَقير عيْباً.

ـ **فإن كانَ** شُجاعاً سُمّي أهوجَ[٢]

ـ **وإن كانَ** جَواداً سمّي مفسِداً.

ـ **وإن كانَ** حليماً سمّي ضعيفاً.

ـ **وإن كانَ** وقَوراً سمّي بليداً.

ـ **وإن كانَ** لسِناً سُمّي مُهْذاراً[٣].

ـ **وإن كانَ** صَموتاً سمّي عيياً.

١٤ ـ **وكانَ يقالُ**: منْ ابتليَ بمرضٍ في جسَده لا يفارقُه أو بفراقِ الأحبّة والإخوانِ أو بالغربةِ حيثُ لا يعرف مبيَتاً ولا مَقيلاً[٤] ولا يرجو إياباً، أو بفاقَةٍ تضطرهُ إلى المسألةِ[٥] فالحياةُ له موْتٌ والموْتُ له راحَةٌ.

● **وجدْنا البَلايا في الدّنيا** إنّما يسوقُها إلى أهلِها الحرْصُ والشرهُ فلا يزالُ صاحبُ الدنيا ينقلبُ في بليةٍ وتعبٍ لأنّه لا يزالُ بخلة الحرصِ والشرهِ.

---

(١) **المقت**: الكره.

(٢) **الأهوج**: ذو الطّيش والتسرّع.

(٣) **المهذار**: الذي يخلط في كلامه ويهذي والهَذَر الكلام الباطل الذي يكثر فيه الخطأ.

(٤) **المقيل**: موضع القيلولة، والنوم والاستراحة في الظهيرة.

(٥) **المسألة**: الحاجة، المطلب.

١٥ ـ وسمعتُ العلماءَ قالُوا:

«لا عقلَ كالتدّبير، ولا ورعَ كالكَفّ، ولا حَسَبَ كحُسْن الخُلُق. ولا غِنى كالرّضى.

«وأحقُ ما صبرَ عليه ما لا سبيلَ إلى تغييره. وأفضلُ البرّ الرحمة. ورأسُ المودَةِ الإِسترسال[1]. ورأسُ العَقل المعرفةُ بمَا يكونُ وما لا يكون.

«وطيبُ النفس حسْن الإِنصرافِ عمّا لا سبيلَ إليه. وليْس في الدّنْيا سرورٌ يعدِلُ صحبَة الإِخوان. ولا فِيها غمٌ يعدِل غمَّ فقدِهم.

● لا يتمُّ حسنُ الكلام إلا بحسن العَمَل. كالمريضِ الذي قدْ علمَ دواءَ نفسه: فإذا هو لم يتداوَ به لم يغْنه علمُه.

● الرجلُ ذو المروءةِ قد يُكرم على غيرِ مال، كالأسَد الذي يُهاب وإن كانَ عقيراً[2].

والرجلُ الذي لا مروءةَ له يُهانُ وإن كثرَ مالُه كالكلبِ الذي يَهونُ على النّاس وإن هو طوّق وخُلخل[3].

● ليحسُن تعاهدُك نفسَك بما تكونُ به للخير أهلاً. فإنّك إذا فعلتَ ذلك أتاك الخيْر يطلبُك. كما يطلبُ الماءُ السيْلَ إلى الحُدور[4].

● وقيلَ في أشياء ليسَ لها ثَباتٌ ولا بقاء: ظِلُّ الغَمَامة، وخلةُ[5] الأشْرار. وعشقُ النّساء والنبأ الكاذِب. والمالُ الكثير.

● وليسَ يفرحُ العاقلُ بالمالِ الكَثير. ولا يحزنُه قلّتُه. ولكنَّ مالَه عقلُه وما قدمُ من صالِح عمله.

● إنَّ أولى النّاس بفضلِ السرورِ وكرمِ العيْشِ وحسْنِ الثّناء منْ لا

---

(١) الاسترسال: الاستئناس.

(٢) العقير: المعقور.

(٣) خلخل: ألبس الخلخال.

(٤) الحدور: الهبوط، النزول.

(٥) خلّة الأشرار: خصلتهم.

يبرَحُ رحله[1] من إخوانهِ وأصدقائهِ من الصّالحين موطوءاً، ولا يزالُ عندَه منهم زحام، يسرّهِم ويسرّونه، ويكون من وراء حاجاتِهم وأمورِهم. فإنّ الكريم إذا عثَر لم يستقلّ إلا بالكرام، كالفيل إذا وحلَ لم يستخرِجْه إلا الفيلة.

● **لا يرى العاقل معروفاً صنعَه**، وإن كان كثيراً.

ولو خاطرَ بنفسه وعرضها في وجوهِ المعروف، لم يرَ ذلك عيباً. بل يعلمُ أنّه إنما أخطرَ الفاني بالباقي، واشترى العظيمَ بالصغير.

● **وأغيظُ الناس** عندَ ذوي العقل أكثرهُم سائلاً منجحاً ومستجيراً آمناً.

● **لا تعدّ غنياً** من لمْ يشارك في مالِه.

ولا تعدّ نعيماً ما كان فيه تنغيصٌ[2] وسوءُ ثناء.

ولا تعد الغُنمَ غنماً إذا ساق غُرماً[3].

ولا الغرمَ غرْماً إذا ساقَ غنْماً ولا تعتد من الحياة ما كانَ في فراقِ الأحبة.

● **ومن المعونةِ** على تسلية الهمومِ وسكونِ النفس لقاءُ الأخ أخاه، وإفضاءُ كلّ واحد منهما إلى صاحبهِ بثّه.

● **وإذا فُرّق بينَ الأليفِ** وأليفِه فقدْ سُلب قرارُه وحُرِمَ سرورُه.

● وقلّ ما ترانا نُخْلِفُ عقبةً من البلاءِ إلا صرْنا في أخرى.

● لقد صدَق القائلُ الذي يقول:

ـ لا يزالُ الرجلُ مستمراً ما لمْ يعثُر، فإذا عثرَ مرةً واحدَة في أرضِ الخبار لجَّ به العَثار، وإن مشَى في جدَد[4].. لأنّ هذا الإنسان موكلٌ به البلا.

---

(١) **الرحل**: المنزل، والرحل ما يجعل على ظهر البعير كالسّرج.

(٢) **التنغيص**: التكدير.

(٣) **الغرم**: ما يعطى من المال على كره.

(٤) **الجدَد**: الأرض المستوية.

ـ فلا يزالَ في تصرفٍ وتقلبٍ لا يدومُ له شيءَ ولا يثبتُ معه. كما لا يدومُ لطالعِ النجوم طلوعُه ولا لآفلها أفولُه. ولكنها في تقلبٍ وتعاقب[1]:
فلا يزالَ الطالعُ يكون آفلاً. والآفِلُ طالعاً.



(١) التعاقب: التتابع والتلاحق.


(٣)
رسالة الصحابة

(٣)
رسالة الصحابة

●

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن المقفّع:

الدعاء للخليفة

١ ـ أما بَعْدُ أصلحَ اللّهُ أميرَ المؤمنين وأتمّ عليه النعمةَ وألبسَهُ المعافاةَ والرحْمة.

فإنَّ أميرَ المؤمنين **حفظَه** اللّهُ يجمَعُ معَ علْمهِ المسألةَ والإستماعَ كما كانَ وُلاة الشرّ يجمعون مع جهْلهمْ العجبَ والإستغْناءَ.

ويستوثقُ[١] لنفْسه بالحجّةِ ويتّخذُها على رعيّته فيما يلطفُ لهُ من الفخْصِ[٢] عنْ أمورِهمْ كما كانَ أولئكَ يكتفونَ بالدّعةِ ويرضَوْنَ بدحوضِ[٣] الحجّةِ وانقطاعِ العُذْرِ في الامتناعِ أنْ يجترىءَ عليهم أحدٌ برأيٍ أو خبرٍ مع تسليطِ الديّان.

الثناء على أمير المؤمنين

٢ ـ وقد عصمَ الله أميرَ المؤمنينَ حينَ أهلكَ عدوَّه وشفَى غليلَه ومكّنَ لهُ في الأرضِ وآتاه ملكَه، وخزَائنَها منْ أنْ يشغلَ نفسَه بالتمنّعِ والتفيْش[٤] والتأثل والإتلاد.

---

(١) استوثق: شدّد في التحفظ، واستوثق منه: طلب منه الوثيقة.

(٢) الفحص عن الأمور: الكشف عنها أو البحث عنها.

(٣) دحوض الحجّة: بطلانها.

(٤) التفيْش: الافتخار والتكبّر.

وأنْ يرضَى ممّن آوى بالمتّاع بهِ وقضاءِ حاجةِ النّفس منه.

وأكرم اللّهُ أميرَ المؤمنينَ باستهانةِ ذلكَ واستصْغاره إيّاه، وذلكَ منْ أبينِ علاماتِ السعادةِ وأنجحِ الأعْوانِ على الخيْر..

وقد قصَّ اللّهُ عزَّ وجلَّ علينا من نبأِ يوسفَ بنِ يعقوبَ أنّه لما تمّتْ نعمةُ اللّهِ عليهِ، وآتاه الملكَ وعلّمه من تأويلِ الأحاديثِ وجمعَ له شملَه وأقرَّ عينَه بأبوَيْه وإخوتهِ.. أثنى على اللّهِ عزّ وجلّ بنعمته.. ثم سَلا عمّا كانَ فيه وعرفَ أن الموتَ وما بعدَه هو أوْلى، فقال: **توَفني مسلماً وألحِقْني بالصّالحين**.

٣ ـ وفي الذي قدْ عرفْنا منْ طريقةِ أميرِ المؤمنينَ ما يُشجّعُ ذا الرأيِ علَى مبادرتهِ[١] بالخبرِ فيمَا ظنَّ أنّه لمْ يبلّغه إياه غيْره، وبالتّذكير بما قد انتهى إليْه ولا يزيدُ صاحبُ الرأيِ علَى أنْ يكونَ مخْبراً ومذَكّراً.

وكلٌّ عندَ أميرِ المؤمنينَ مقبولٌ إنْ شاءَ اللّهُ مع أنّ ممّا يزيدُ ذوي الألْبابِ نشَاطاً إلى إعمالِ الرأيِ فيما يُصْلِحُ اللّهُ بهِ الأمةَ في يومِها أو غابرِ دَهْرها الذي أصبَحُوا قدْ طمِعوا فيه.

٤ ـ ولعلَّ ذلكَ أنْ يكونَ **على يدَيْ أميرِ المؤمنينَ** فإنَّ مع الطمع الجدّ ومع اليأسُ القُنوط[٢].

وقلّما ضعفَ الرجاءُ إلا ذهبَ الرخاءُ. وطلبُ الموئِسِ عجزٌ وطلبُ الطامعِ حزمٌ. ولمْ ندرك النّاسَ نحْنُ وآباؤنا إلا وهُمْ يروْنَ فيها خلالًا يقطعُ الرأيَ ويمسِكُ بالأفواهِ منْ حالٍ والٍ لم يهمُه الإصلاحُ أو أهمّه ذلك ولم يثقْ فيه بفضلِ رأيٍ، أو كانَ ذا رأيٍ ليسَ مع رأيهِ صولٌ بصرامةٍ أو حزم.

أو كانَ ذلكَ استئثاراً[٣] منه على النّاس بنشبٍ أو قلّةِ تقدّمٍ لما يجمعُ أو يقسمُ.

---

(١) **المبادرة**: الإسراع.

(٢) **القنوط**: اليأس، وانقطاع الرجاء.

(٣) **الاستئثار**: مصدر استأثر بالشيء انفرد به وحرم الآخرين منه.

أو حالِ أعوانٍ يُبتلى بهم الولاةُ ليسوا على الخير بأعوان، وليسَ له إلى اقتلاعِهم سبيلٌ لمكانِهم منَ الأمرِ ومخافةَ الدولِ والفسادِ أنْ هوَ هاجَهم أو انتقصَ ما في أيْديهم، أو حالِ رعيةٍ متزرةٍ ليسَ لها من أمرِها النصفُ[1] في نفسِها. . فإن أُخذَت بالشّدة حميَت وإن أُخذت باللين طغَت.

٥ ـ وكلّ هذهِ الخلائقِ[2] قد طهَرَ اللّهُ منها أميرَ المؤمنين فآتاه اللّهُ ما آتاه في نيته ومقدرتهِ وعزمه، ثمّ لمْ يزَل يرَى ذلك منه الناسُ حتَى عرفَه منه جهّالُهم فضلاً عن علمائِهم.

وصنع الله لأميرِ المؤمنينَ ألطفَ الصّنعِ في اقتلاعِ من كانَ يُشركهُ في أمْرهِ على غيرِ طريقتهِ ورأيهِ حتّى أراحَه اللّهُ وأَمنَهُ منهم بما جعلُوا من الحجّةِ والسبيلِ علَى أنفسِهمْ وما قوّى اللّهُ عليه أميرَ المؤمنينَ في رأيهِ واتِّباعهِ مرضاتَه.

وأذلّ اللّهُ لأميرِ المؤمنين رعيتَه بما جمعَ لهُ من اللينِ والعفوِ فإنّ لأن لأحدٍ منهم ففي الألحانِ لهُ شهيدٌ على أنّ ذلك ليسَ بضعفٍ ولا مصانعَةٍ[3]، وإن اشتدّ على أحدٍ منهم ففي العفْو شهيدٌ على أنَّ ذلكَ ليْسَ بعنفٍ ولا خرقٍ مع أمورٍ سوى ذلكَ نكفُّ عنْ ذِكْرها كراهَةَ أن يكونَ كأنّا نصبنا للمدْح.

فما أخلَق هذه الأشياءَ أن تكونَ عتَاداً لكلّ جسيمٍ من الخَيْر في الدّنيا والآخرة واليومِ والغدِ والخاصّةِ والعامّة.

وما أرجَانا لأنْ يكونَ أميرُ المؤمنينَ بمَا أصلحَ اللّهُ الأمةَ من بعده أشدّ اهتماماً منْ بعضِ الوُلاة بما يصلحُ رعيتَه في سُلطانه.

وما أشدَّ ما قدِ استبانَ لنَا أنَّ أميرَ المؤمنينَ أطولُ بأمرِ الأمة عنايةً ولها نظَراً وتقديراً من الرّجل منّا بخاصّةِ أهلهِ ففي دونِ هذا ما يثبت الأملَ وينشطُ للعملِ ولا قوةَ إلا بالله، ولِلّهِ الحمدُ وعلى الله التمام.

●

---

(١) النصف: القسط، العدل.

(٢) الخلائق: جمع خليقة وهي الخلّة وما يتخلّق به.

(٣) المصانعة: المجاملة، المداراة.

أمر الجند

فمنَ الأمورِ التي يذكرُ بها أمير المؤمنين أمتعَ اللّهُ به، أمرُ هذا الجند من أهلِ خراسانَ فإنّهم جندٌ لم يدركْ مثلَهم في الإسلام وفيهم منعةٌ[١] بها يتمّ فضلُهم إن شاء الله.

أما هم فأهلُ بصرٍ بالطّاعة وفضلٍ عندَ النّاسِ وعَفافٍ نفوس وفروج وكفٍّ عن الفَسادِ وذلّ للولاةِ فهذهِ حالٌ لا نعلمُها توجدُ عنْد أحدٍ غيرهم.

وأما ما يحتاجونَ فيه إلى التأديبِ من ذلكَ تقويمُ أيديهم ورأيِهم وكلامِهم فإنّ في ذلك القومِ أخلاطاً[٢] من رأسٍ مفرط غالٍ وتابعٍ متحيرٍ شاك.

ومن كانَ إنّما يصولُ[٣] على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقةَ في الرأي والقولِ والسّيرة.. فهو كراكبِ الأسد الّذي يوجلُ منْ رآه، والراكبُ أشدّ وجَلاً.

فلو أنّ أميرَ المؤمنينَ كتبَ لهم أمَاناً معْروفاً بليغاً وجيزاً مُحيطاً بكلّ شيءٍ يجبُ أن يعمَلوا فيه أو يكفّوا عنهُ بالغاً في الحجّة قاصِراً عن الغلوّ، يحفظهُ رؤساؤهم حتّى يقودوا به دهماءهم[٤] ويتعهدُوا به منهُم منْ لا يؤبَه لهُ من عَرَضِ الناس لكانَ ذلك إنْ شاءَ اللّهُ لرأيِهم صَلاحاً وعلَى منْ سِواهم حجةً وعندَ الله عذراً.

فإنّ كثيراً من المتكلمينَ من قوّاد أميرِ المؤمنين اليومَ إنما عامةُ كلامِهم فيما يأمرُ الآمرُ ويرغمُ الراغمُ وأنّ أميرَ المؤمنين لو أمرَ الجبالَ أن تسيرَ سارَتْ ولو أمرَ أن تستدبرَ القبلةُ بالصلاة فعلَ ذلك.

وهذا كلام قلّما يرتضيه من كان مخالفاً، وقلّما يردُ في سمعِ السامعِ إلا أحدثَ في قلبه ريبةً وشكاً، والذي يقولُ أهلُ القصدِ من المسلمينَ هو أقوى

---

(١) المنعة: العزة والقوة التي تمنع من يريد أحداً بسوء.

(٢) الأخلاط: الأصناف المخلوطة.

(٣) يصول: يسطو، يقهر.

(٤) الدهماء: الجماعة من الناس.

للأمرِ وأعزُّ للسلطانِ وأقمعُ للمخالفِ، وأرضَى للموافقِ وأثبتُ للعذرِ عند اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

فإنّا قدْ سمعْنا فَريقاً من النّاسِ يقُولون: لا طاعةَ للمخْلوق في معصيةِ الخالقِ. بَنوا قولَهم هذا بناءً معوجّاً فقالوا: **إنْ أمَرنا الإمامُ بمعصيةِ اللَّهِ فهوَ أهلٌ أنْ يعْصى. . وإن أمَرنا الإمامُ بطاعةِ اللَّهِ فهوَ أهلٌ أن يُطاعَ.** فإذا كانَ الإمامُ يعْصى في المعصيَة وكانَ غيرُ الإمام يُطاع في الطاعَةِ فالإمامُ ومنْ سواهُ على حقّ الطاعة سواء.

وهذا قولٌ معلومٌ يجدهُ الشيطانُ ذريعةً[1] إلى خلْعِ الطاعَةِ والذي فيه أمنيته لئَلا يكونَ للناسِ نظائرُ ولا يقومَ بأمرِهم إمامٌ ولا يكونَ على عدوّهم منْهم ثِقَل.

سمعْنا آخرين يقُولون. . بلْ نطيعُ الأئمةَ في كلّ أمورِنا ولا نفتشُ عنْ طاعةِ اللَّهِ ولا معصيتهِ، ولا يكونُ أحدٌ منّا عليهم حسيباً. . . . **هم ولاةُ الأمرِ وأهلُ العلم ونحنُ الأتباعُ وعلينا الطاعةُ والتسليمُ.**

وليس هذا القولُ بأقلّ ضرَراً في توهينِ[2] السّلطان وتهجينِ[3] الطّاعة منَ القولِ الذي قبلَه، لأنه ينْتهي إلى الفظيعِ المتفاحشِ من الأمرِ في استحلالِ معصيةِ اللَّهِ جهاراً صُراحاً.

وقالَ أهلُ الفضلِ والصّواب:

قدْ أصابَ الذينَ قالُوا: لا طاعَةَ لمخلوقٍ في معْصيةِ الخالقِ ولم يُصيبوا في تعطِيلِهِم طاعةَ الأئمةِ وتسخيفِهم إيّاها، **وأصابَ الذين أقرّوا بطاعةِ الأئمةِ** لما حقّقوا منها، **ولم يُصيبوا** فيمَا أبهمُوا من ذلكَ في الأُمور كلِّها. .

فأمّا إقرارُنا فإنّه لا يطاعُ الإمامُ في معصيَةِ اللَّهِ فإنّ ذلك في عزائم الفرائضِ والحدودِ التي لم يجعلِ اللَّهُ لأحدٍ عليها سلطاناً. ولو أنّ الإمامَ نهى

(١) **الذريعة:** الحجة والوسيلة، السبب.

(٢) **توهين السلطان:** إضعاف مركزه وهيبته.

(٣) **تهجين الطاعة:** جعلها قبيحة ومعابة.

عنِ الصّلاةِ والصّيامِ والحجِ أو منَع الحدودَ وأباحَ ما حرّم اللّهُ لم يكنْ له في ذلك أمرٌ.

فأما إثباتُنا للإمامِ الطاعَةَ فيمَا لا يُطاعُ فيه غيرهُ فإنَّ ذلكَ في الرأي والتدبيرِ والأمرِ الذي جعَل اللّهُ أزمتَه، وعُراه بأيدي الأئمةِ ليسَ لأحدٍ فيه أمرٌ ولا طاعةٌ من الغزوِ والقفولِ[1] والجمعِ والقسمِ والإستعمالِ والتّركِ والحكمِ بالرأي فيما لم يكن فيه أثر . . .

وإمضاءِ الحدودِ والأحكامِ على الكتاب والسّنةِ ومحاربةِ العدوّ ومخادعتِه، والأخذِ للمسلمين والإعطاءِ عليهم.

وهذه الأمورُ وأشباهُها من طاعةِ الله عزّ وجلّ الواجبةُ وليس لأحدٍ منَ النّاس فيها حقٌ إلا الإمام ومن عصَى الإمامَ فيها أو خذَله فقد أهلكَ نفسه.

وليسَ يفترقُ هذانِ الأمرانِ إلا ببُرهانٍ منَ اللّهِ عزّ وجلّ عظيم، وذلكَ أنّ اللّهَ جعلَ قوامَ النّاسِ وصلاحَ معاشِهم ومعَادِهم في خلّتين[2]: الدين والعقل.

ولم تكن عقولُهم ـ وإن كانت نعمة الله عزّ وجلّ عظمَت عليهم فيها ـ بالغةَ معرفةَ الهُدى ولا مبلغةَ أهلَها رضوانَ الله، إلا ما أكملَ لهمْ منَ النعمَةِ بالدّين الذي شرَع لهُم، وشرحَ بهِ صدَر منْ أرادَ هداهُ منْهم ثمّ لو أنّ الدينَ جاءَ منَ اللّهِ لم يغادرْ حرْفاً منَ الأحكامِ والرأيِ والأمْرِ وجميعِ ما هو واردٌ على النّاس وجارٍ فيهم مذ بعثَ اللّهُ رسولَه ﷺ إلى يومِ يلقوْنَه إلا جاءَ فيه بعزيمَةٍ، لكانوا قد كُلّفوا غيرَ وسْعهِم فضيّقَ عليْهم في دينِهم وآتاهُم ما لمْ تسَع أسماعُهم لاستماعِه ولاقلوبُهم لفهْمه ولحارَتْ عقولُهم وألبابُهم التي أمتنّ اللّهُ بها عليهم . . .

ولكانتَ لغْواً[3] لا يحتاجونَ إليْها في شيءٍ ولا يُعْملونَها إلا في أمر قد

---

(١) القفول: الرجوع، مصدر قفل أي رجع من حرب أو قتال.

(٢) الخلّة: الخصلة.

(٣) اللغو: ما لا يعتدّ به من كلام وغيره.

أتاهُم بهِ تنزيلٌ ولكنَّ الله منَّ عليهم بدينِهم الذي لم يكنْ يسعُه رأيُهم كما قالَ عبادُ الله المتقون: وما كنّا لنهتدي لولا أن هدَانا الله.

ثم جعلَ ما سِوى ذلكَ منَ الأمرِ والتّدبيرِ إلى الرأيِ، وجعَل الرأيَ إلى ولاةِ الأمرِ ليس للنّاس في ذلكَ الأمرِ شيءٌ إلا الإشارة عندَ المشورة والإجابة عندَ الدّعوة والنّصيحة بظهرِ الغيب.

ولا يستحقُ الوالي هذهِ الطاعةَ إلا بإقامةِ العزائمِ والسّننِ ممّا هو في معنى ذلك.

ثمّ ليسَ منْ وجوهِ القولِ وجهٌ يلتمِسُ فيه ملتمس إثباتَ فضلِ أهلِ بيتِ أميرِ المؤمنينِ على أهلِ بيت (منْ سِواه) وغيرِ ذلك ممّا يحتاجُ الناسُ إلى ذكرهِ إلا وهوَ موجودٌ فيه منَ الكلامِ الفاضلِ المعروفِ مما هوَ أبلغُ ممّا يغلو فيه الغالُون فإنّ الحجةَ ثابتةٌ والأمرُ واضحٌ بحمدِ الله ونعمته.

•

النظر في صلاح حال الجند

وممّا يُنظرُ فيهِ لصَلاحِ هذا الجنْدِ ألا يولي أحَداً منهُم شيئاً من الخَراج[1]، فإنّ ولايةَ الخراجِ مفسدةٌ للمقاتلة

ولمْ يزل النّاسُ يتحامَوْن ذلك منهُم وينحونَه عنْهم لأنّهم أهلُ دالّةٍ ودعْوى بلاء.

وإذا جلبوا الدراهمَ والدنانيرَ اجترُوا عليهما، وإذا وقعُوا في الخيانةِ صارَ كلُّ أمرِهم مدْخولاً نصيحتهم وطاعتهم فإنْ حيلَ بينَهم وبينَ وضعهِ أخرجتهُم الحمية[2] معَ أن ولاية الخراجِ داعيةٌ إلى ذلّةٍ وعقوبةٍ وهَوان. وإنما منزلةُ المقاتلِ منزلةُ الكرامةِ واللطف.

ومما يُنْظرُ فيه منْ أمرِهم أنّ منهم من المجْهولين منْ هوَ أفضلُ من

(١) الخراج: الإتاوة، وأصل الخراج ما يخرج من غلّة الأرض.

(٢) الحمية: الإباء والأنفة والمروءة والنخوة.

بعضِ قادَتهم، فلو التمَسوا وصنعُوا كانوا عدةً وقوةً وكان ذلك صَلاحاً لمن فوقَهم من القادَة ومنْ دونَهم من العامّة.

ومنْ ذلكَ تعهدُ أدَبهم في تعلّم الكِتابِ والتفقهِ[1] في السنّة والأمانةِ والعصمةِ والمباينةِ[2] لأهلِ الهَوى وأنْ يَظْهَرَ فيهم منَ القصْد والتّواضعِ واجتنابِ زي المترفين وشكلِهم مثلَ الذي يأخذُ به أميرُ المؤمنين في أمر نفسه.

ولا يزالُ يطلعُ من أميرِ المؤمنين ويخرجُ منه القولُ ما يعرف مقتَه للإتراف والإسرافِ وأهلِهما، محبته القصدَ والتواضع ومن أخذَ بهما حتّى يعلمُوا أن معروفَ أمير المؤمنين محظورٌ[3] عمّن يكنزهُ بخْلاً، أن ينفقَه سَرفاً في العطرِ واللباسِ والمُغالاة بالنّساء والمراتبِ.

فإنّ أميرَ المؤمنين يؤثرُ بالمعروفِ من وجههِ المعروفِ والمؤَاساة.

ومنْ ذلك أمرُ أرزاقِهم أن يوقتَ لهمْ أميرُ المؤمنين فيها وقْتاً يعرفونه في كلّ ثلاثةِ أشهرٍ أو أربعةٍ أو ما بدا لَه، وأن يعلمَ عامتهُم العذرَ الذي في تلك من إقامةِ ديوانِهم وجمل اسمائِهم ويعلموا الوقتَ الذي يأخذونَ فيه فينقطعُ الاستبطاءُ والشّكوى.

فإن الكلمة الواحدة تخرجُ من أحدِهم في ذلك أهلٌ أن تستعظمَ وإنَّ بابَ ذلكَ جديرٌ أن يحسمَ، مع أن أميرَ المؤمنين قد علمَ كثرةَ أرزاقِهم وكثرةَ المال الذي يخرجُ لهم وإن هذا الخراجَ وإن يكنْ رائجاً لغلاء السعر فإنّه لا بدّ من الكسادِ والكسر.

وإن لكل شيء درةً وغزارةً، وإنما درورُ خراجِ العراقِ بارتفاعِ الأسعار، وإنما يحتاجُ الجندُ اليومَ إلى ما يحتاجون إليهِ من كثرةِ الرزقِ لغلاءِ السعر.. فمن حسْن التقديرِ إنْ شاءَ الله أن لا يدخلَ على الأرضِ ضرر، ولا بيتِ المالِ نقْصان من قبل الرحمنِ إلا دخلَ ذلكَ عليهم في أرزاقِهم... مع أنّه ليس

---

(١) التفقه في السنّة: تفهم أحكامها.

(٢) المباينة: التباين والاختلاف.

(٣) محظور: ممنوع.

عليهِم في ذلك نقصانٌ لأنهم يشترونَ بالقَليل مثلَ ما كانوا يشترونَ بالكثير . .

فأقولُ لو أنّ أميرَ المؤمنين خلّى[1] شيئاً من الرزقِ فيجعلُ بعضَه طعاماً ويجعلُ بعضَه علَفاً، وأعطوه بأعيانهِ فإن قوّمتَ[2] لهم قيمةً فخرجَ ما خرجَ على حسابهِ قيمةُ الطّعامِ والعلَفِ لم يكنْ في أرزاقِهم لذلك نقصانٌ عاجلٌ يستنكرونَه . . .

وكانَ ذلكَ مدرجةً لثباتِهم في نزالِهم لحمْلِ العدوّ وإنصافِ بيت المالِ من أنفسِهم فيما يستَبْطئون[3] . . . مع أنهُ إنْ زادَ السعرُ أخذُوا بحصّتهم من فضلِ ذلك .

ومن جماعِ الأمْرِ وقوامِه بإذنِ اللّهِ أنْ لا يخفى علَى أميرِ المؤمنينَ شيءٌ من أخبارِهم وحالاتِهم وباطنِ أمرِهم بخراسانَ والعسكَرِ والأطرافِ . . .

وأنْ يحتقرَ في ذلك النفقةَ، ولا يستعينَ فيه إلا بالثقاتِ النصّاح، فإن تركَ ذلك وأشباهَه أحزمُ بتاركهِ من الاستعانةِ فيه بغيرِ الثّقةِ، فتصير مغبّتهُ للجَهالة والكذب، وممّا يذكرُ به أميرُ المؤمنين أمتعَ اللّهَ بهِ أمرَ هذين المصْرين . . . **فإنّهم بعدَ أهلِ خراسانَ أقربُ النّاسِ إلى أن يكونُوا شيعتَه[4] ومُعينيهِ معَ اختلاطِهم بأهلِ خُراسانَ** . . وإنّهم منْهم عامتُهم . . . وإنّما ينظرُ أميرُ المؤمنين منْهم . . صدقَهم ورابطتهم . . . وما أرادَ من أمورِهم معرفتَه استعانَ أهلُ خراسانَ على ذلك من أمرِهم . . معَ الذي في ذلكَ من خبال الأمرِ واختلاطِ النّاس بالنّاس العربِ بالعجمِ، وأهلِ خراسان بالمِصْرَيْن .

●

التوصيةُ بأهل العراقِ

إنّ في أهْلِ العِراقِ يا أميرَ المؤمنينَ من الفِقْهِ والعَفافِ والألْبابِ والألسنةِ

---

(١) خلّى شيئاً من الرزق: تركه.

(٢) قوّم لهم قيمة: حدّدها، يقال قوّم المتاع حدّد له قيمة أو ثمناً.

(٣) استبطأ الأمر: وجده بطيئاً.

(٤) الشيعة (ههنا): الأنصار والمؤيّدون.

شَيْئاً لا يكادُ يشكُّ أنهُ ليس في جميعِ مَنْ سِواهم من أهلِ القِبلَةِ مثلُه ولا مثلُ نصْفه. .

فلَوْ أرادَ أميرُ المؤمنينَ أن يكتفيَ بهِمْ في جميعِ ما يلتمَسُ له بأهلِ الطَّبقةِ من النّاس رجَوْنا أن يكونَ ذلك فيهِم مَوْجوداً.

وقدْ أزرى بأهلِ العِراقِ في تلك الطبقةِ، أنَّ ولاةَ العِراقِ فيما مضَى كانُوا أشرارَ الوُلاةِ وأنَّ أعوانَهم منْ أهلِ أمصارِهم كانوا كَذلك. . . فحمَلَ جميعُ أهلِ العِراق على ما ظهرَ من أولئكَ الفسولِ[1] وتعلّق بذلك أعداؤُهم منْ أهلِ الشّام فنعَوْه عليهِم، ثم كانتْ هذهِ الدولةُ فلم يتعلّقْ من دونِكم منَ الوزراءِ والعُمّال إلا بالأَقْربِ فالأقربِ ممّا دنا منْهمْ أو وجدُوه بسبيلِ شيءٍ منَ الأمرِ، فوقعَ رجالٌ مواقعَ شائنةٍ[2] لجميعِ أهلِ العراقِ حيثُ ما وقَعُوا منْ صحابةِ خليفةٍ أو ولايةِ عملٍ، أو موضعِ أمانةٍ أو موطنِ جهادٍ، وكانَ من رأيِ أهْلِ الفضْل أنْ يقصُدوا حيثُ يُلتمسوا فأبطأَ ذلك بهِمْ أنْ يعرفوا وينتفعَ بهم، وإنْ كان صاحبُ السلطان ممّن لمْ يعرفِ النّاس قبل أن يليهَم ثم لمْ يزلْ يسألُ عنْهم من يعرفُهم، ويستثبت في استقصائِهم زالتِ الأمور عنْ مراكزِها ونزلَت الرجالُ عن منازِلها لأنَّ النّاسَ لا يلقَوْنه إلا متصنّعين بأحسنِ ما يقدرون عليه من الصّمتِ والكلام غيرَ أن أهلَ هذا النقْص همْ أشدّ تصنّعاً وأحلَى ألسنةً وأرفقَ تلطفاً للوزراءِ أو تمحّلاً[3] لأن يُثْنى عليْهم منْ وراءَ وراءَ.

فإذا آثرَ الوالي أنْ يستخلِصَ رجُلاً واحِداً ممّنْ ليس لذلكَ أهْلاً دعا إلى نفْسه جميعَ ذلك النوعِ وطمعُوا فيه واجترأُوا عليهِ وتواردُوه وتزاحمُوا على ما عندَه. . وإذا رأى ذاكَ أهلُ الفضْل كفّوا عنه وباعدُوا منه وكرِهوا أن يرَوا في غيرِ موضعِهم أو يزاحِمُوا غير نظرائهم.

●

---

(١) الفسول: كل مسترذل رديء.

(٢) شائنة: مكروهة ومعيبة.

(٣) التمحّل: الاحتيال في الطلب.

ومما ينظرُ أميرُ المؤمنينَ فيهِ من أمْر هذَين المِصْرين وغيرهما من الأمَصار والنَواحي اختلافُ هذه الأحكام المتناقضةِ التي قد بلغَ اختلافُها أمراً عَظيماً في الدّماء والفروجِ والأموال، فيستحلُ الدمُ والفرجُ بالحيرَة، وهما يحرّمان بالكوفةِ ويكونُ مثلُ ذلك الاختلافِ في جوفِ الكوفةِ فيستحلُ في ناحيةٍ منها ما يحرّمُ في ناحيَةٍ أخرى، غيرَ أنه على كثرة ألوانِه نافذ المسلمين في دمائِهم وحرمهم يقضي به قضاةٌ جائزٌ أمرُهم وحكمُهم مع أنَّه ليسَ مما ينظرُ في ذلك من أهلِ العراق وأهلِ الحجاز فريقٌ إلا قد لجَّ[1] بهم العجبُ بما في أيديهم والاستخفَافُ ممنْ سواهم فأقحمَهم ذلكَ في الأمور التي يغضَب لها من سمعَها من ذوي الألباب.

●

أما منْ يدّعي لزومَ السنةِ منهمُ فيجعلُ ما ليسَ له سنةٌ سنةً حتّى يبلغَ ذلكَ بهِ إلى أنْ يسفكَ الدمَ بغيرِ بيّنةٍ ولا حجّةٍ على الأمرِ الذي يزعمُ أنه سنةٌ.

وإذا سئلَ عن ذلكَ لم يستطعْ أنْ يقولَ هريق فيه دمٌ على عهدِ رسولِ الله ﷺ أو أئمةِ الهُدى من بعده.

وإذا قيلَ له: أيّ دم سفكَ على هذهِ السنةِ التي تزعمون؟ قالوا: فعل ذلك عبدُ الملكِ بنُ مروانَ أو أميرٌ منْ بعضِ أولئكَ الأمراء...

وإنّما يأخذُ بالرأي بهِ الإعتزامُ على رأيهِ أنْ يقولَ في الأمرِ الجسيم من أمرِ المسلمين قوْلاً لا يوافقهُ عليْه أحدٌ من المسلمينَ ثم لا يستوحشُ لانفرادِه بذلكَ وإمْضائهِ الحكمَ عليْه وهو مُقَرٌ أنه رأيٌ منْه لا يحتجُّ بكتابٍ ولا سنّةٍ.

فلو رأى أميرُ المؤمنينَ أنْ يأمرَ بهذه الأقضيَة والسّيَر المختلفَةِ فترفَعَ إليْهِ في كتَابٍ ويرفَعَ معَها ما يحتجُّ بهِ كلُّ قوْم منْ سنّةٍ أو قياس[2].

ثم نظرَ أميرُ المؤمنين في ذلك وأمضَى في كلّ قضية رأيَه الذي يُلهمُه اللّهُ

---

(١) لجّ بهم: ألحّ عليهم.

(٢) القياس: من قواعد المنطق وأصوله وهو قول مركب من قضايا عند التسليم بها يلزم عنها قول آخر كقولنا الطائر له جناحان، العصفور له جناحان إذا العصفور طائر.

ويعزمُ له عليه، وينهى عن القضاء بخلافِه وكتبَ بذلك كتاباً جامِعاً لرجَوْنا أنْ يجعلَ اللّهُ هذه الأحكامَ المختلطةَ الصوابَ بالخَطأ حُكْماً واحداً صواباً.

ورجَوْنا أن يكونَ اجتماعُ السيَر قربةً لإجماعِ الأمر برأيِ أميرِ المؤمنين وعلى لِسانه ثم يكونُ ذلك من إمامٍ آخرَ الدّهر إنْ شاء الله.

فأما اختلافُ الأحكام: إما شيءٌ مأثورٌ[1] عن السّلفِ غيرُ مجمَعٍ عليْه يدبرهُ قومٌ على وجه، ويدبُره آخرون على وجهٍ فينظرُ فيه إلى أحقّ الفريقين بالتّصديقِ وأشبهِ الأمرين بالعدل.

وإما رأيٌ أجراه أهلُه علَى القياس فاختلفَ وانتشرَ بغلَطٍ في أصْلِ المقايَسَة وابتدأ أمرٌ على غير مثاله.

وإما لطولِ ملازمتِهِ القياسَ فإنّ من أرادَ أن يَلْزمَ القياسَ ولا يفارِقَه أبَداً في أمر الدّين والحكم وقعَ في الورَطاتِ ومضَى على الشّبُهات[2] وغَمْضَ على القبيحِ الذي يعرفُه ويبصره فأبى أن يتركَه كراهةَ ترْك القِياس.

وإنما القياسُ دليلٌ يُستَدَلُّ بهِ علَى المحاسِن، فإذا كانَ ما يقودُ إليْه حسَناً معْروفاً أخذَ به، وإذا قادَ إلى القَبيح المستنكَرُ تركَ لأنّ المبتَغي ليس غيرَ القياس يبغي ولكنّ محاسنَ الأمور ومعروفَها وما ألحق الحقَّ بأهلِه.

ولو أنّ شيئاً مستقيماً على النّاس ومنقاداً حيثُ قيدَ لكانَ الصدقُ هو ذلك.. ولا يعتبرُ بالمقايسِ فإنه لو أرادَ أن يقودَه الصدقُ لم ينقَدْ له.

وذلكَ أن رجلاً لو قالَ: أتأمرني أنْ أصدقَ فلا أكذبُ كذبةً أبداً؟ لكانَ جوابُه أن تقولَ نعمْ.

ثمّ لو التمسَ منهُ قولُ ذلك فقال: أتصدقُ في كذا وكذا؟ حتّى يبلغَ به أن يقولَ الصدقَ في رجلٍ هاربٍ استدلّني عليْهِ طالب ليظلمَه فيقتلَه لكسرَ عليْه قياسَه وكانَ الرأيُ لَه أنْ يتركَ ذلك وينصرفَ إلى المجمَع عليْه المعروف المستحسَن.

---

(١) **المأثور من الكلام**: المنقول والمتوارث.

(٢) **الشبهات**: جمع شبهة وهي الالتباس، وكل ما يلتبس فيه الحق بالباطل والحلال بالحرام.

أهل الشام

ومما يذكر به أمير المؤمنين أهل الشام... فإنهم أشَدُّ النّاس مؤونةً وأخوفُهم عداوةً وبائقةً. وليسَ يؤاخذهُمْ أميرُ المؤمنينَ بالعَداوة ولا يَطْمَعُ منْهم في الاستجماعِ على المَوَدَةِ فمِنَ الرأيِ في أمْرهم أنْ يختَصَّ أميرُ المؤمنين منْهم خاصةً ممَن يرجُوَ عنْده صَلاحاً، أو يعرف منْه نصيحةً أو وفاءً... فإنَّ أولئك لا يلبَثون أنْ ينفصِلوا عنْ أصحابِهم في الرأيِ والهَوى ويدخلُوا فيما حُملوا عليه من أمرِهم فقَدْ رأينا أشباهَ أولئكَ منْ أهْلِ العِراق الذين استدخَلَهُم أهلُ الشام ولكن أخذَ في أمْر أهْلِ الشامِ على القِصاص... وحُرِموا كما كانُوا يُحْرمونَ النّاس وجُعلَ فيئهُم[1] إلى غيرِهمَ كما كان فيءُ غيرِهم إليْهم، ونحّوا عنِ المنَابر والمجالسِ والأعمالِ كمَا كانوا ينحوْنَ[2] عنْ ذلكَ منْ لا يجهلونَ فضلَه في السّابقة والمواضِع.

ومنعَت منهم المرافقُ كما كانُوا يمْنعونَ النّاسَ أن ينالُوا معَهم أكلةً من الطعامِ الذي يصنعُه أمراؤُهم للعامَة.

فإن رغبَ أميرُ المؤمنين لنفسِه عنْ هذهِ السيرةِ وما أشبهَها فلمْ يعارضْ ما عابَ ولم يمثل ما سخط كان العدلُ أن يقتصرَ بهم على فيئهم فيجعلَ ما خرج من كورِ الشّام فضلاً عن النفَقات، وما خرجَ من مصر فضلاً عن حقوقِ أهلِ المدينة ومكّة... بأن يجعَل أميرُ المؤمنين ديوانَ مقاتلتهم، ديوانَهم، أو يزيدَ أو ينقصَ غيرَ أنه يأخذُ أهلَ القوةِ والغنَاء بخفةِ المؤونةِ والعفةِ في الطّاعةِ ولا يفضلُ أحَداً منهم على أحَد إلا على خاصّة معلومَةٍ، ويكونُ الديوانُ كالغرض المستأنَف، **ويأمرُ لكلّ جنْد من أجْناد الشام بعدة من العيالةِ يقترعونَ عليْها ويسوي بينَهم فيما لم يكُونوا أسوة[3] فيه فيمن مَاتَ من عيالتِهم ولا يضيع أحدٌ منَ المسلمينَ.**

وأما ما يتخوفُ المتخوفون من نزَواتهم[4] فلعمري لئِن أُخِذُوا بالحقّ ولم يؤخذوا به إنّهم لخلقاءُ ألا تكونَ لهم نَزوات ونزقات[5] ولكنّا على مثْل اليقينِ بحمدِ الله منْ أنهم لم يشغلُوا بذلك إلا أنفسَهم...

وإن الدائرةَ لأمير المؤمنين عليهمْ آخرَ الدهر إنْ شاء الله.

---

(١) الفيء: الخراج، أو الغنيمة.

(٢) **ينحون**: يبعدون.

(٣) **الأسوة**: القدوة.

(٤) **النزوات**: جمع نزوة وهي الوثبة إلى الشرّ ونحوه.

(٥) **النزقات**: جمع نزقة وهي العجلة في الحمق أو الجهل.

فإنّه لمْ يخرج الملكُ من قومٍ إلا بقيَتْ فيهمْ بقيّةٌ يتوثبونَ بها ثم كانَ ذلك التوثّبُ هو سببُ استئصالِهم وتَدويخِهم[١].

أمر الولاة صحابة الخليفة

وممّا يذكرُ بهِ أميرُ المؤمنين أمرُ أصحابه فإنَّ من أوْلى أمر الوالي بالتثبّت والتخير أمرَ أصحابَه الذينَ همْ فناؤه[٢] وزينَةُ مجلسِه وألسنةُ رعيّته والأعوانُ على رأيه ومواضعُ كرامتِهِ والخاصةُ من عامّته.

فإنَّ أمرَ هذه الصحابةَ قد عملَ فيهِ من كانَ وليه من الوزراءِ والكتابِ قبلَ خلافةِ أميرِ المؤمنين عمَلاً قبيحاً مفرطَ القبح مفسداً للحَسَب والأدَب والسّياسةِ، داعياً للأشرارِ طارداً للأخيارِ فصارتْ صحبةُ الخليطِ أمراً سخيفاً، فطمعَ فيه الأوغاد[٣] وتزهدَ فيه من كانَ يرغبُ فيما دونَه.. **حتّى إذا التقينا أبا العبّاس رحمةُ الله عليه**، وكنتُ في ناسٍ من صلحاءِ أهلِ البصرةِ ووجوهِهم فكنتُ في عصابةٍ منهم أبوا أنْ يأتوه.. فمنْهم من تغيبَ فلم يقدِم، ومنْهمْ من هرَب بعدَ قدومِه اختياراً للمعصيَة على سُوء الموضِع، لا يعتذرونَ في ذلك إلا بضياع المكتبِ والدعوةِ والمدخلِ يقولون هذه منزلةٌ كانَ من هو أشرفُ من أبنائنا يرغَبون فيما هو دونَها عندَ من هو أصغرُ أمراء ولاتِنا اليوم، ولكنّها قد كانتْ مكرمةً وحسَباً إذ الناسُ ينظرونَ ويسألُ عنهم فأما اليومَ ونحنُ نرَى فلاناً وفلاناً ينفرُ بأسمائهم على غيرِ قديم سلف ولا بلاءٍ حدث...

فمن يرغب فيما هاهنا يا أميرَ المؤمنين أكرمَك الله إلا أن يصيرَ العدلُ كلّه إلى تقوى اللّهِ عزَّ وجلَّ وإنزالِ الأمور منازلَها فإنَّ الأول قال:

لا يصلحُ الناسُ فوْضى لا سراةَ لهم ... ولا سراةٌ إذا جهالُهم سادُوا[٤]

وقال:

هم سودوا نضراً وكلُّ قبيلة ... يبين عن أحلامِها من يسودها

---

(١) التدويخ: الإذلال والإخضاع.

(٢) الفناء: الساحة، وفناء الرجل أهل عشيرته وأنصاره.

(٣) الأوغاد: الأوباش، الأشرار، جمع وغد.

(٤) السراة: سادة القوم.

وإنّ أمرَ هذهِ الصحابةِ قدْ كانَ فيهِ أعاجيبُ دخلتْ فيها مظالمُ.

أما العجبُ فقدْ سمِعْنا منَ النّاسِ منْ يقُولُ ما رأْينا أعجوبةً قطّ وأعجبُ منْ هذهِ الصحابة ممّن لا ينتهي إلى أدَبِ ذي نباهَةٍ، ولا حَسَبٍ معْروف . . .

ثم هوَ مسخوط[1] **الرأي مشهورٌ بالفجورِ في** أهلِ مِصْره، قد غبر عامةَ دهرِه صانِعاً يعملُ بيدهِ ولا يعتَدُّ[2] معَ ذلك ببَلاءٍ ولا غنَاء . .

إلا أنه مكّنهُ منَ الأمرِ صاغ، فانتَهى إلى حيث أحبَّ فصارَ يؤذنُ لهُ علَى الخليفةِ قبْلَ كثير من أبْناء المُهاجرينَ والأنصار . . . وقَبْل قرابةِ أميرِ المؤمنينَ وأهلِ بيوتات[3] العرَب . . .

ويُجْري عليْه من الرزقِ الضعفَ مما يُجْري على كثيرٍ من بني هاشم وغيرِهم من سرَوات قريش . . .

ويُخرج له من المعونةِ علَى نحوِ ذلك، **لم يضعه بهذا الموضع رعايةُ** رحم ولا فقْهٌ في دين، ولا بلاءٌ في مجاهدةِ عدوٌ معروفةٍ ماضيةٍ شائعةٍ قديمَة، ولا غناءٌ حديثٌ ولا حاجَةٌ إليْه في شيءٍ من الأشياء ولا عُدةٌ يستعدُّ بها وليسَ بفارسٍ ولا خطيبٍ ولا علاّمة . . .

إلا أنه خدمَ كاتباً أو حاجباً فأخبرَه أنّ الدينَ لا يقومُ إلا بهِ حتّى كتَبَ كيفَ شاءَ ودخلَ حيث شاء .

وأما المظلمَةُ[4] **التي دخلَت في ذلكَ فعظيمةٌ** قد خصتْ قريشاً وعمّت كثيراً منَ النّاس وأدخلتْ على الأحسابِ والمروءاتِ محنةً شديدةً وضيَاعاً كثيراً . .

فإن في إذن الخليفةِ في المدْخلِ عليهِ والمجلِس عندَه وما يجْري على صحابته من الرزق والمعونةِ . . . وتفضيلِ بعضِهم على بعضٍ في ذلك **حكْماً عظيماً على النّاس في أنسابِهم وأخطارِهم وبلاءِ أهل البلاء منهم** . . .

وليس ذلك كخواص المعروف ولطيفِ المنازِلِ أو الأعمالِ التي يختصُّ بها المؤلى من أحبّ، ولكنّه بابٌ من القَضَاء جسيمٌ عامٌ يقْضي فيهِ للمَاضين منَ أهلِ

---

(١) **مسخوط الرأي**: مكروهه.

(٢) **شيء لا يعتدّ به**: أي لا يلتفت إليه، واعتدّ بنفسه اعتمد عليها.

(٣) **البيوتات**: البيوت الشريفة.

(٤) **المظلمة**: ما احتملته من الظلم.

السّوابقِ والبَاقين منْ أهْلِ المآثرِ وأهلِ البَلاء والغَناء بالعَدْل أو بمَا يُخالُ فيهِ عليْهم.

فإنَ أحقَ المظالم بتعجيلِ الرّفعِ والتغييرِ ما كانَ ضرّه عائباً، وكان للسلطانِ شائناً ثم لمْ يَكُنْ في رفعه مؤونةٌ ولا شغبٌ ولا توغيرٌ[1] لصدورِ عامّة ولا للقسوةِ والإضرارِ سبب.

ولصحابةِ أميرِ المؤمنين أكرمَه اللّهُ مزيةٌ وفضلٌ، وهي مكرمةٌ سنيةٌ حريةٌ أن تكونَ شَرفاً لأهلِها وحَسباً لأعقابِهم وحقيقةٌ[2] أن تُصانَ وتحظَر ولا يكونَ فيها إلا رجلٌ بدر بخصلةٍ من الخصال.

أو رجلٌ له عندَ أمير المؤمنين خاصةٌ بقرابةٍ أو بَلاء.

أو رجلٌ يكون شرفُه ورأيهُ وعملُه أهْلاً لمجلسِ أمِيرِ المؤمنين وحديثه ومِشورته.

أو صاحب نجْدة[3] يعرفُ بها ويستعدُ لها يجْمعُ مع نجدته حسباً وعفَافاً فيرفع من الجنْد إلى الصحابةِ.

أو رجلٌ فقيهٌ مصْلحٌ يوضعُ بين أظهرِ النَّاس لينتفعوا بصَلاحه وفقْهه.

أو رجلٌ شريفٌ لا يُفسِدُ نفسَه، أو غيرها فأما من يتوسلُ بالشّفاعات فإنّه يكتفي أو يُكْتفَى له بالمعروفِ والبرّ فيمَا لا يهجنُ رأياً ولا يزيلُ أمراً عن مرتبته.

ثم تكونُ تلك الصحابةُ المخلصةُ على منازِلها ومداخلِها لا يكون للكاتبِ فيها أمرٌ في رفع رزقٍ ولا وضعه ولا للحاجبِ في تقديم اذن ولا تأخيره.

ومما يذكرُ به أمير المؤمنين أمر فتيان أهلِ بيته وبني أَبيه وبني علي وبني العباسِ فإنّ فيهم رِجالاً لو متعوا بجسامِ الأمورِ والأعمالِ سدّوا[4] وجوهاً وكانُوا عدّة لأخرى.

ومما يذكرُ به أميرُ المؤمنين أمرُ الأرضِ والخراج فإن أجسمَ ذلك وأعظمَه خطراً وأشدّه مؤونة وأقربه من الضّياع ما بينَ سهلِه وجبلِه ليس لها تفسير على الرساتيقِ والقُرى.

---

(١) **توغير الصدور**: تجييشها بالغيظ والضغينة.

(٢) **حقيقة**: جديرة.

(٣) **النجدة**: الحميّة، والمروءة.

(٤) **سدّوا وجوهاً**: أغلقوها، منعوا التوجه.

فليسَ للعمّال أمرٌ ينتهون إليهِ ولا يحاسبون عليه ويحولُ بينَهم وبيَن الحكْم على أهْلِ الأرضِ بعدما يتأنقونَ لها في العمَارةِ ويرجونَ لها فضلَ ما تعملُ أيديهم.

فسيرةُ العَمال فيهم إحْدى اثنتين:

إما رجلٌ أخذَ بالحذق والعنف حيث وجد، وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممّن وجَدة.

وأما رجلٌ صاحبُ مساحة، يستخرج ممن زرعَ ويترك منْ لمْ يزرع فيعمر من عمّر ويسلم من أخرب، مع **أنَّ أصولَ الوظائف على الكورِ لم يكُنْ لها ثبتٌ ولا علمٌ** وليس من كورة إلا وقد غيرتْ وظيفتَها مراراً فخفيتَ وظائفُ بعضها وبقَيتْ وظائفُ بعض.

فلو أنْ أميرَ المؤمنين أعملَ رأيَه في التوظيفِ على الرَساتيق[1] والقُرى والأرضين وظائفَ معلومةً وتدوينِ الدواوين بذلك، وإثباتِ الأصول حتى لا يؤخذُ رجلٌ إلا بوظيفةٍ قد عَرفَها وضمنَها، ولا يجتهدُ في عمارة إلا كانَ له فضلها ونفعُها لرجَوْنا أن يكونَ في ذلك صلاحٌ للرعّيةِ وعِمارةٌ للأرض وحسْمٌ لأبواب الخِيانة وغشم العمال.

وهذا رأيٌ مؤونته شديدةٌ ورجالُه قليلٌ ونفعُه متأخر.

وليسَ بعد هَذا في أمر الخراج إلا رأي قد رأينا أميرَ المؤمنين أخذَ به، ولم نرَه من أحدٍ قبلَه من تخيّر العمالِ وتفقّدِهم والإستعتابِ لهم والإستبدالِ بهم.

ومما يذكر به أميرُ المؤمنين جزيرةُ العرب من الحِجاز واليمنِ واليَمامة وما سَوى ذلك أن يكونَ من رأيِ أمير المؤمنين إذا سخَتْ نفسُه عن أموالها من الصّدقات وغيرِها أن **يختارَ لولايتِها الخيارَ من أهلِ بيتِه وغيرَهم لأن ذلك من تمام السيرةِ العادلةِ والكلمةِ الحسنَةِ التي قد رزقَ الله أميرَ المؤمنين وأكرمَه بها من الرأي الذي هو بإذنِ الله حمَى ونظامٌ لهذهِ الأمور كلّها في الأمصارِ والأجنادِ والثغورِ والكُوَر**[2].

---

(١) الرساتيق: (لفظة فارسية معربة، ملحقة): معناها بالقرطاس، واحدها رستاق. والرّسداق البيوت المجتمعة ولا يقال رستاق..

(٢) الكور: جمع كورة وهي البقعة التي تتجمّع فيها القرى والمساكن.

إنّ بالنّاسِ من الإستجراحِ والفَسادِ ما قد علِمَ أميرُ المؤمنين وبهمْ من الحاجةِ إلى تَقْويم آدابهم وطرائِقهم ما هوَ اشدّ من حاجتِهم إلى أقواتِهم التي يعيشونَ بها.

أهلُ كلّ مصرِ وجند أو ثغر فقَراء، إلى أنْ يكونَ لهمْ من أهلِ الفقهِ والسنةِ والسّيرِ والنصيحةِ مؤدّبون مقوّمون يذكرون ويبْصرون الخَطأ ويعِظون عنِ الجهل، ويمنَعونَ عن البدَع ويحذرونَ الفتنَ ويتفقدونَ أمورَ عامةِ من هو بين أظهرِهم حتى لا يَخفى عليهم منها مهم.

ثمّ يستصلحونَ ذلكَ ويعالجونَ علَى ما استنكروا منه بالرأيِ والرفقِ والنصحِ يرفعونَ ما أعْياهم إلى ما يرجون قوتَه عليْهم مأمونين على سيرِ ذلَك وتحصينِه، بُصَراء بالرأيِ حينَ يبدو أو أطباء[1] باستئصالِه قبلَ أنْ يتمكن.

وفي كلِّ قوم خواص رجال عندَهم على هذا معونة إذا صنعُوا لذلك وتلطف لهُم وأعينوا على رأيِهم وقووا على معاشِهم ببعضِ ما يفرغُهم لذلك ويبسُطهم له.

وخطرُ هذا جسيمٌ في أمْرين، أحدُهما برجوعِ أهْلِ الفسَاد إلى الصّلاحِ وأهلِ الفرقةِ إلى الألفَةِ.

والأمرُ الآخر أنْ لا يتحركَ متحركُ في أمر من أمورِ العامّة إلا وعينٌ ناصحةٌ ترمقُه[2]، ولا يهمسُ هامِسٌ إلا وأذنٌ شفيقةٌ تصيخُ[3] نحوَه.

وإذا كانَ ذلك لمْ يقدر أهلُ الفسادِ على تَربيصِ الأمور وتلقيحِها، وإذا لم تلقَح كان نتاجُها بإذن الله مأموناً.

وقد عَلِمْنا عِلْماً لا يخالطُه شكّ أنّ عامةً قطّ لم تصلُح من قِبَل أنفسِها ولم يأتِها الصلاحُ إلا من قِبل خاصّتِها.

وأن خاصّةً قطّ لم تَصْلح من قَبل أنفسِها وأنّها لم يأتِها الصّلاح إلا من قبل إمامِها.

---

(١) أطباء باستئصاله: ذوو مهارة وحذق في ذلك.

(٢) ترمقه: تطيل النظر إليه.

(٣) أصاخ إليه: أصغى واستمع.

وذلكَ لأنَّ عددَ الناس في ضَعَفِتهم وجهّالهم الذين لا يستغنونَ برأيِ أنفسِهم ولا يحملونَ العلمَ ولا يتقدّمون في الأمور، فإذا جعلَ الله فيهم خواصَّ من أهلِ الدّينِ والعقولِ ينظرونَ إليهم ويسمعونَ منْهم اهتمَّت خواصُّهم بأمورِ عوامّهم وأقبلوُا عليْها بجدّ ونصْحٍ ومثُابرةً وقوةٍ، جعلَ اللّهُ ذلكَ صَلاحاً لجماعَتهم وسبباً لأهلِ الصلاحِ من خواصّهم وزيادةً فيما أنعمَ الله به عليْهم وبلاَغاً إلى الخيرِ كلّه. **وحاجَة الخواصّ إلى الإمام الذي يُصْلِحُهم اللَّهُ به، كحاجةِ العامَّة إلى خواصِّهم وأعظم من ذلك.**

فبالإمام يُصْلِحُ اللّهُ أمرَهم ويكبتُ[1] أهلَ الطعنِ عليهم ويجمعُ رأيَهم وكلمَتهم، ويبينُ لهمْ عند العامّة منزلتهَم ويجعلُ لهم الحجةَ والأيْدَ في المقالِ على من تكسب عن سبيل حقّهم.

فلما رأينا هذه الأمورَ ينتظم بعضُها ببعض، **وعرَفْنا من أمرِ أميرِ المؤمنين ما بمثلِه جمعَ اللّهُ خواصَّ المسلمين علَى الرغبةِ في حسْن المعاونَة** والمؤازرةِ والسعيِ في صَلاح عامَّتهم طمعْنا لهُم في ذلكَ يا أميرَ المؤمنين وطمعْنا فيه لعامتهم ورجَوْنا أن لا يعمل بهذا الأمر أحدٌ ألا رزقَه اللّهُ فيه والقوةَ عليه.

فإن الأمرِ إذا أعانَ على نفسِه جعلَ للقائلِ مَقالاً وهَيأ للساعي نجاحاً. **ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللّهِ وهو ربُّ الخلق ووليُّ الأمرِ يقْضي في أمورِهم ويدبُر أمْره بِقدرةٍ** عزيزة وعلم سابقٍ فنسأله أن يعزمَ لأميرِ المؤمنين على المراشدِ[2] ويحصّنه بالحِفْظ والثَباتِ والسَلاَم ولله الحمدُ والشّكر.

---

(١) **يكبت أهل الطعن**: يذلّهم ويهينهم.

(٢) **المراشد**: مقاصد الطرق وما استقام منها.

الدرّة اليتيمة وكتاب اليتيمة

●

توطئة

في كثير من المراجع التي تناولت الكلام على ابن المقفع وآثاره، اختلط الأمر عند فريق من الدّارسين بين أثرين من تلك الآثار هما: الدرّة اليتيمة والجوهرة الثمينة في الأدب، وكتاب اليتيمة في الرسائل.

فقد ظُنّ طويلاً أنهما اسمان لمؤلف واحد وحينَ اتضح أنهما كتابان لم يحدّد كثيرون هوية كلّ منهما، تحديداً بيّنا يميّز بين متنيهما ومضمون كل متن فيهما، كما أخطأهم الصواب في التسمية والربط الصحيح بين مأثور كل من الأثرَيْن المذكورَيْن واسمهما، فسميت الدرّة اليتيمة باسم «اليتيمة» كما سمّيت اليتيمة باسم «الدرّة».

وقد كان لزاماً علينا ـ ونحن بصدد هذه المجموعة من آثار ابن المقفّع الكاملة ـ أن نتحرى أثر هذا التباين ونزيل اللبس ونرفع الشبهة في ضوء الدليل القاطع، والبيّنة ذات الدلالة الناصعة، ما استندنا إليه في هذا الكشف عن جلية الموضوع وحقيقته:

أولاً ـ معلومة الباقلاني في «إعجاز والقرآن».

ثانياً: ترجمة ابن المقفع في كتاب «كشف الظنون» لإسماعيل باشا البغدادي.

●

معلومة الباقلاني[1]

جاء في «**إعجاز القرآن**» قول الإمام الباقلاني «**وقد ادّعى قوم أنّ ابن**

(١) **الباقلاني**: أحد كبار علماء الكلام كان جامعاً للعلوم الدينية ذا إلمام عميق بفلسفة اليونان من كتبه «**إعجاز القرآن**» توفي الباقلاني في بغداد سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م).

المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرّة واليتيمة وهما كتابان:

ـ أحدهما يتضمن حكماً منقولة، توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل. .

ـ والآخر في شيء في الدّيانات.

ثم قال الباقلاني:

«وبعد، فليس يوجد له كتاب يدّعى مدعٍ أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدّة، ثم مزّق ما جمع، واستحيا لنفسه من إظهاره. فإن كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد».

وبالنظر فيما قاله الباقلاني عن كتابي ابن المقفّع الآنفين، نخلص إلى ما خلص إليه باحثون آخرون، وهو أنه ليس في هذين الكتابين شيء من الحديث عن الديانات أو التعرّض لقضايا دينية من قريب أو بعيد.

●

ترجمة المقفع في «كشف الظنون»

أوجز صاحب «هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين» من كشف الظنون ترجمة لابن المقفع فقال:

«عبد الله بن المقفع بن المبارك البغدادي الكاتب، أصله من الفرس مجوسي أسلم على يد عيسى بن علي عم السفّاح، توفي قتيلاً بالبصرة سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) صنّف من الكتب آيين نامه في الأصر، الأدب الصغير، الأدب الكبير، التاج في سيرة أنو شيروان، ترجمة كليلة ودمنة. . حكاياته في السير، الدرّة اليتيمة والجوهرة الثمينة في الأدب، كتاب مزدك، كتاب اليتيمة في الرسائل.

ففي ضوء ما قاله الباقلاني من ناحية وما جاء في ترجمة «هدية العارفين. . .» من كشف الظنون، بالإضافة إلى ما قاله أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة (٢٨٠ هـ)، معرّفاً باليتيمة ـ وهو ما سنورده لاحقاً ـ نضع بين يدي القارىء الحقائق الثلاث التالية:

الحقيقة الأولى: وجود كتابين لابن المقفع تداخل اسماهما دون أي تداخل بين متنيهما، وهما:

١ ـ «الدرّة اليتيمة والجوهرة الثمينة في الأدب».

٢ ـ «كتاب اليتيمة في الرسائل».

الحقيقة الثانية: عدم تعرّض ابن المقفع في هذين الأثرين لأية قضايا تتعلق بالديانات.

الحقيقة الثالثة: بطلان زعم القائلين بأن ابن المقفع أراد في هذا الأثر أو في أحدهما معارضة القرآن ـ كما أوضح الإمام الباقلاني ـ، فضلاً عن بطلان الزعم الآخر وهو أن ابن المقفع اشتغل مدّة في تأليف كتاب يعارض فيه القرآن، فالذي لا يقوم عليه دليل قاطع أو برهان محسوس مما يزعم أو يقال يبقى في دائرة الزعم ويسقط كما تسقط المزاعم الباطلة بكرّ الجديدين.

وبعد جلاء هذه المعطيات الهامّة صار بالإمكان عرض ما تبقى من آثار ابن المقفع ونبدأ بـ **«الدرّة اليتيمة والجوهرة الثمينة في الأدب».**

●

(٤)

الدرّة اليتيمة
والجوهرة الثمينة في الأدب

(٤)

الدرّة اليتيمة والجوهرة الثمينة في الأدب

●

قال أحمد بن أبي طاهر المكني بأبي الفضل:

«ومن الرسائل **المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه، وهي أركان** البلاغة ومنها **استقى البلغاء، لأنها في نهاية المختار من الكلام ومن التأليف والنظام، الرسالة التي لابن المقفّع وهي** اليتيمة، وأن الناس مجمعون على أنه لم يعبر أحد عن مثلها ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها».

بسم الله الرحمن الرحيم

أصبحَ الناسَ إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولينَ منقوصينَ، فقائلهمْ باغٍ وسامعهم عيّابٌ، وسائلُهم متعنتٌ[1]، ومجيبهمْ متكلّفٌ، وواعظهمْ غيرُ محققٍ لقولهِ بالفعلِ، وموعظهمْ غيرُ سليم من الهزءِ والإستخفافِ، ومستشيرهمْ غيرِ موطّنٍ[2] نفسهُ على إنفاذِ ما يشارَ به عليه، ومصطبر للحقِ مما يسمعُ، ومستشارهمْ غيرُ مأمونٍ على الغشّ والحسدِ وأنْ يكونَ مهتاكاً للسترِ مشيعاً للفاحشةِ، مؤثراً للهوى، والأمينُ منهمْ غيرُ متحفظٍ من ائتمانِ الخونةِ، والصدوقُ غيرُ محترسٍ من حديثِ الكذبةِ، وذو الدينِ غير متورع من تفريطِ الفجرةِ يتقارضونَ الثناءَ، ويترقبون الدولَ، ويعيبونَ بالهمزِ[3]، يكادُ أحزمهمْ رأياً يلفتهُ عن رأيه أدنَى الرِضا، وأدنى السُخطِ.

---

(١) **المتعنّت**: المتزمت أو المعاند المتشبث في موقف أو رأي.

(٢) **وطّن نفسه على**: حملها على، وجعلها تعزم.

(٣) **الهمز**: الجنون.

ويكادُ يكون أمتنهمْ عوداً أن تسخرَهُ الكلمةُ، وتنكرهُ اللحظةُ، وقد ابتليتُ أن أكونَ قائلاً، وابتليتم أن تكونوا سامعينَ، ولا خيرَ في القولِ إلا من انتفعَ به، ولا يُنتفعُ إلا بالصدقِ، ولا صدقَ إلا مع الرأي، ولا رأي إلا في موضعهِ، وعند الحاجةُ إليه فإن خيرَ القائلينَ من لمْ يكنْ الباطلِ غايتَهُ، ثم لزمَ القصدَ والصوابَ، وخيرَ السامعينَ من لمْ يكنْ ذلك منه سمعةً ولا رياءً، ولم يتخذْ ما يسمعُ عوناً على دفعِ الهدَى ولا بلغة إلى حاجةِ دنيا فإن اجتمعَ للقائلِ والسامعِ أن يرزقَ القائلُ من الناسِ مقة وقبولاً على ما يقوله، ويرزقَ السامعُ اتعاظاً بما يسمَع في أمرِ دنياه، وقد صَلحتْ نياتهما في غيرِ ذلك فعسى ذلك أن يكونَ من الخيرِ الذي يبلغه الله عباده ويعجل لهم من حسنةِ الدنيا ما لا يحرمهمْ من حسنةِ الآخرة، كما أن المريد بكلامهِ أن يعجبَ الناسَ قد يجتمع عليه حرمان ما طلبَ مع سوء النيةِ وحمل الوزرِ، وقد وافقتمْ من مسارعةِ فيما سألتموني طمعاً في أن ينفَع اللّهُ بذلك من يشاء، فإنه من يشاء يقع.

أما سؤالكمْ عن الزمان فإن الزمانَ الناسُ. **والناسُ رجلان**: والٍ ومولًى عليه. **والأزمنةُ أربعةٌ** على اختلافِ حالات الناس، **فخيارُ الأزمنة** ما اجتمعَ فيه صلاحُ الراعي والرعيةُ، فكان الإمام مؤدياً إلى الرعيةِ حقَّهم في الردِ عنهم والغيظ على عدوّهمْ والجهادَ من وراء بيضتهمْ[1] والإختيارَ لحكامهمْ، وتوليةَ صلحائهمْ والتوسعة عليهمْ في معايشهمْ، وإفاضةَ[2] الأمنَ فيهم، والمتابعةَ في الخلقِ لهمْ، والعدلَ في القسمةِ بينهمْ والتقويمَ لأودهم[3]، والأخذَ لهمْ بحقوقِ اللّهِ عزَّ وجلَّ عليهمْ.

وكانت الرعيةُ مؤديةً إلى الإمام حقَّهُ في المودةِ والمناصحةِ والمخالطة وتركِ المنازعةِ في أمره والصبرِ عند مكَروه طاعتهِ، والمعونة له عَلى أنفسهمْ والشدة على من أخلَّ بحقه وخالفَ أمرَه غير مؤثرينَ في ذلك آباءَهمْ ولا أبناءَهمْ ولا لابسين عليه أحداً.

---

(١) **البيضة**: بيضة القوم: ساحتهم، وبيضة البلد أكبر قومه وبيضة الدين عماده ووقايته.

(٢) **إفاضة**: مصدر أفاض إفاضة الأمن فيهم: جعله ينتشر ويمتد.

(٣) **تقويم الأود**: تقويم الاعوجاج.

فإذا اجتمعَ ذلكَ في الإمامِ والرعيةِ، تمَّ صلاحُ الزمانِ، وبنعمةِ الله تتمُ الصالحاتُ، ثم إن الزمانَ الذي يليهِ أن يصلحَ الإمامُ نفسَه ويفسدَ الناسُ، ولا قوةَ بالإمام مع خذلانِ الرعيةِ ومخالفتِهمْ وزُهدهمْ في صلاحِ أنفسهمْ، على أن يبلغَ ذاتَ نفسه في صلاحهم، وذلكَ أعظمُ ما تكونَ نعمةُ اللّهِ على الوالي وحجةُ الله على الرعية بواليهم، فبالحري أن يؤخذوا بأعمالهمْ، وما أخلقهمْ أن لا تُصيبهم فتنةٌ أو عذابٌ أليم.

والزمانُ الثالثُ صلاحُ الناسِ وفسادُ الوالي وهذا دونَ الذي قبله فإن لولاة الناسِ يداً في الخير والشر ومكَاناً ليس لأحدٍ. وقد عرفناه فيما يعتبر به أن ألفَ رجلٍ كلُّهمْ مفسدٌ وأميرُهمْ مَصلحٌ أقلُ فساداً من ألفِ رجلٍ كلُّهم مصلحٌ وأميرُهم مفسدٌ. والوالي أن يصلحَ أدبهُ الرعيةَ أقربُ من الرعيةِ إلى أن يصلح اللّهُ بهم الوالي. وذلك لأنهم لا يستطيعونَ معاتَبتهُ وتقويمهُ، مع استطالتهِ بالسلطانِ، والحمية التي تعلوه.

وشرُ الزمانِ ما اجتمعَ فيه فسادِ الوالي والرعية..

فقولي في هذا الزمان، أنه إلا يكنْ خيرَ الأزمانِ، فليسَ على واليكمْ ذنبٌ، وإلا يكنْ شرَ الأزمانِ، فليسَ لكمْ حمدٌ.

ذلك، غيرَ أنا بحمدِ اللّهِ، قد أصبحنا نرجو لأنفُسنا الصلاحَ بصلاحِ إمامِنا ولا نخافُ عليه الفَسادَ بفسادنا، وقد رأينا حظَّهُ من اللّهِ عزَّ وجلَّ، في التثبتِ والعصمةِ، فلم يبرحِ الله يزيدهُ خيراً، ويزيدُ به رعيتهِ مذ ولاّهُ.

فعندنا من هذا وثائقٌ من عبرٍ وبيناتٍ، ونحتسبُ من اللّهِ عزَّ وجلَّ، أن لا يزالَ إمامُنا يُسارعُ في مرضاةِ ربهِ بالإستصلاح لرعيتهِ، والصبرِ على ما يستنكرُ منهمْ، وقلةِ المواخذة لهمْ بذنوبهم، حتى يَقلبَ اللّهُ له قلَوبهمْ، ويفتحَ له أسماعَهَمْ وأبصارَهِمْ فيجمعُ إلفتَهمْ ويقوّمَ أودَهِمْ، ويلزمَهمْ مراشدَ أمورهمْ وتتمَ نعمةُ اللّهِ على أميرِ المؤمنينَ، بأن يصلحَ له وعلى يديه، فيكونوا رعيةَ خير راعٍ، ويكون راعيَ خيرِ رعيّةٍ إن شاء الله وبه الثقة.

والذي يحمدُ من أمير المؤمنينَ، أنا ذاكرٌ ما تيسّرَ منه.. وقلما نلقى من أهل العقل والمعاينةِ مُنكِراً لنعمةِ الله، بأميرِ المؤمنينَ على المسلمينَ.

ومن أَشدُّ جهلاً وأقطع عذراً ممن لم يعرف النعمة ولم يقبل العافية، نعوذُ بالله أن نكونَ من الذينَ لا يعقلون، فتفهموا ما أنا ذاكرٌ لكمْ، وتدبرّوهُ بالحقِ والعدلِ، فإن المرءَ ناظرٌ بإحدى عيونِ ثلاث، وهما الغاشّتانِ والصادقةُ وهي التي تُوجدُ:

عين مودة تريهِ القبيحَ حسناً، وعينُ شنآنٍ[1] تُريه الحسنَ قبيحاً، وعينُ عدل تريهِ حسنَها حسناً، وقبيحَها قبيحاً.

فتفتكروا فيما جمعَ اللّهُ لأميرِ المؤمنينَ في معدنِه وفي سيرتِه، وفيما ظاهرٌ عليكمْ من النعمةِ والحقِ والحجةِ، بذلكَ فيما عسَى القائلُ أنَ يبتغي فيه المغمزَ والمقال فلعمري إن الشيطانَ من أهواءِ الناسِ وألسنتهمْ في الأمر المصيب... وإن له لمستراحاً حين يستوفي أمنيته، ويصدق عليهمْ ظنَّه، ويوحي إليهم بمكايدهُ، فيجعل الله كيدَهُ ضعيفاً، وحزبه مغلوباً، وجعله وإياهم نصيباً لجهنم من أجوائهِ المقسومةِ، لأبوابها وحطبها ووقودِها وحصبها[2]، ليعد لها.

فمن كان سائلاً عن حقّ أمير المؤمنين في معدنهِ، فإن أعظم حقوقِ الناس منزلةَ، وأكرمَها نسبةَ وأولاها بالفضلِ، حق رسولِ اللّهِ ﷺ نبيِّ الرحمةِ وإمامِ الهُدى ووارثِ الكتابِ والنبوّةِ والمَهيمنِ عليهما وخاتمِ النبيينَ والصدّيقينَ والشهداءَ والصالحينَ، بعثَهُ اللّهُ بشيراً ونَذيراً وداعياً إلى اللّهِ بإذنِه وسراجاً منيراً، ثم هو باعثهُ يومَ القيامةِ مقاماً محموداً، شرعَ الله به دينه وأتمَّ به نورَهُ على عهدِه ومحق به رؤوسَ الضلالةِ وجبابرة الكُفرِ وخوَّلهُ الشفاعةَ وجعلهُ في الرفيقِ الأعلى ﷺ.

---

(١) **عين شنآن**: عين بغضاء.

(٢) **الحصب**: كل ما يرمى في النار كالحطب.



(٥)
كتاب اليتيمة في الرسائل

(٥)
كتاب اليتيمة في الرسائل

●

(١)

الحمدُ للّهِ ذي العظمةِ القاهرةِ[١] والآلاء[٢] الظاهرة، الذي لا يعجزهُ شيء ولا يمتنعُ منه، ولا يدفعُ قضاؤه، ولا أمرُه وإنما قوله إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون.

والحمدُ للّهِ الذي خلقَ الخلقَ بعلمهِ، ودبرَ الأمورَ بحكمهِ، وأنفذَ فيما اختارَ واصطفى منها عزمَهُ، بقدرةٍ منهُ عليها، لا معقبَ لحكمهِ، ولا شريكَ لهُ في شيءٍ من الأمورِ، يخلقُ ما يشاء، ويختارُ ما كانَ للناس الخيرةَ في شيءٍ من أمورهِم، سبحانَ اللّه وتعالى عمّا يشركون.

والحمدُ للّهِ الذي جعلَ، صفو ما اختارَ من الأمورِ دينَهُ الذي ارتضى لنفسه، ولمن أرادَ كرامتهُ، من عبادهِ، فقام به ملائكَتُهُ المقربون، يعظمونَ جلالَهُ، ويقدسون أسماءَهُ، ويذكرون آلاءهُ لا يستحسرون عن عبادتهِ، ولا يستكثرونَ، يسبحونَ الليلَ والنهارَ لا يفترقونِ.

وقامَ به من اختار من أنبيائهِ وخلفائهِ وأوليائهِ في أرضعهِ يطيعونَ أمرَهُ، ويذبّونِ[٣] عن محارمهِ، ويصدقون بوعدهِ، ويفونَ بعهده، ويأخذونَ بحقهِ ويجاهدونَ عدوّه.

---

(١) القاهرة: الغالبة.

(٢) الآلاء: النعم.

(٣) يذبّون عن المحارم: يدافعون عنها ويقاتلون في سبيلها.

وكان لهمْ عند ما وعدَهمْ، من تصديقهِ قولهم وإفلاجه[1] حجتهم، وإعزازة دينهَمْ وإظهارهُ حقهم، وتمكينه لهم.

وكانَ لعدوهِ وعدوهم عند ما أوعدهُم من خزيهِ وإحلاله بأسهمْ وانْتقامهِ منهم، وغضبهِ عليهم، مضى على ذلكَ أمرهَ، ونفذَ فيه قضاؤهُ فيما مضى وهو ممضيه ومنفذه.

على ذلك فيما بقي ليتمَّ نورهِ، ولو كرهَ الكافرونَ، ليحقَ الحقَ، ويبطل الباطلُ، ولو كَرهَ المجرمونَ.

والحمدُ للّهِ الذي لا يقضي في الأمورِ، ولا يدبرُها غيْرهَ، ابتدأها بعمله ومضاها بقدَرتهِ، وهو وليها ومنتهاها، ووليُ الخيرةِ فيها والإمضاء لما أحب أن يمضي منها، يخلقُ ما يشاء ويختارُ ما كان لهم الخيرةُ، سبحان الله وتعالى عما يشركون.

والحمدُ لله الفتّاحُ العليمُ العزيزُ الحكيمُ، ذي المنّ والطول[2] والقدرةِ والحولِ[3] الذي لا ممسكَ لما فتحَ لأوليائهِ من رحمته، ولا دَافعَ لمَا أنزلَ بأعدائِه من نقمته، ولا رادَّ لأمره في ذلك، وقضائه ويفعلُ ما يشاء، ويحكمْ ما يريد. والحمدُ لله المثيبُ بحَمده، ومنه ابتداؤه والمنعمُ بشكره، وعليه جزاؤهُ والمثني بالإيمانِ وهو عطاؤه.

●

(٢)

وكتبَ ابنُ المقفع إلى صديق مهنئاً به بولادة جارية:

بارككَ اللّهُ لكم في الإبنةِ المستفادةِ وجعلَها لكم زيناً وأجرىَ لكم بها خيراً فلا تكرهها فإنهن الأمهاتُ والأخواتُ والعماتُ والخالاتَ ومنهن الباقياتَ الصالحاتُ. وربَّ غلامِ ساءَ أهلَهُ بعد مسرتهِم وربَّ جاريةِ فرَّحتْ أهلها بعد مساءتهم.

●

(١) **الإفلاج**: الظفر بالمطلوب.

(٢) **الطول**: القدرة.

(٣) **الحول**: القدرة.

(٣)

وقال ابن المقفع معزّياً عن ولد

أعظم الله على المصيبةِ أجركَ وأحسنَ على جليلِ الرزءِ ثوابَكَ وعجّلَ لك الخلفَ فيهِ وذخرَ لك الثوابَ عليه.

●

(٤)

وقال أيضاً:

إنما يستوجبُ على اللّهِ وعدَهُ منْ صبرَ لله بحقّهِ فلا تجمعَنّ إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجرِ عليه والعوضَ منه. فإنما أعظمُ المصيبتينِ عليك وأنكى[1] المرزيتينِ لكَ، أخلفَ الله عليكَ بخير وذخر لك جزيل الثوابِ.

●

(٥)

وقال معزيّاً عن بنت.

لا يُنقصُ الله عددكَ ولا يُنزِعُ عنكَ نعمتَهُ التي ألبسكَ وأحسنَ العوضَ لكَ وجعلَ لكَ خيراً مما رزأكَ به وما أعطاكَ خيراً مما قبضَ منك.

●

(٦)

وقال معزيّاً عن ابنة:

جدَّدَ اللّهُ لك من هبتهِ ما يكونَ خلفاً لك بما رزئتَه وعوضاً من المصيبةِ به، ورزقكَ من الثوابِ عليه أضعافَ ما رزأك به منها. فما أقلَّ كثير الدنيا في قليلِ الآخرةِ مع فناءِ هذه ودوام تلك.

●

(٧)

وقال معزيّاً أيضاً:

أعظمَ اللّهُ أجركَ في كل مصيبةٍ وأوزعكَ[2] الشكرَ على كل نعمةً. أعرفُ

---

(١) **أنكى المرزيتين**: من نكأ الجرح قشره قبل أن يبرأ.

(٢) **أوزعك الشكر**: ألهمه إيّاه.

للّه حقّه، واعتصمَ بما أمرَ به من الصبرِ تظفَرْ بما وعدَ من عظيم الأجرِ.

●

(٨)

ومما قاله في التعزية أيضاً:

أَما بعد فإنَ أمر الآخرةِ والدنيا بيد الله، هو يدبرهُما ويقضي فيهما ما يشاءُ لا رادَّ لقضائه ولا معقبَ لحكمهِ. فإن اللّهَ خلقَ الخلْقَ بقدرتهِ ثم كتبَ عليهم الموت بعدَ الحياةِ لئلا يطمعَ أحدٌ من خلقهِ في خلد الدُنيا، ووقّتَ لكل شيء ميقاتَ أجلٍ لا يستأخرونَ عنه ساعةً ولا يستقدمون، فليس أحدٌ مِن خلقِهِ وهو مستيقنٌ بالموتِ لا يرجو بأن يخلصهُ من ذلك أحدٌ.

نسألُ اللّهِ خيرَ المنقلَبْ. وبلغني وفاةُ فلانٍ فكانت وفاتُهَ من المصائب العظامِ التي يحتسبُ ثوابُها من ربنا الذي إليه منقلبُنا ومعادُنا وعليه ثوابُنا. فعليكَ بتقوى اللّهِ والصبر وحسن الظنِ بالله، فإنه جعلَ لأهلِ الصبرِ صلواتٍ منه ورحمةً وجعلهم من المهتدين.

●

(٩)

وقال في السلامة:

أما بعدَ فقد أتاني كتابُكَ فيما أخبرتَنَا عنه من صَلاحِكَ وصلاحِ ما قبلَك، وفي الذي ذكرتَ من ذلكَ نعمةٌ مجللةٌ عظِيمةٌ، نحمدُ عليها ولِيها المنعمَ المفضلَ المحمودَ، ونسألهُ أن يلهمنا وإياكَ من شكرهِ وذكرهِ، ما به مزيدها وتأدية حقّها.

وسألتَ، أن أكتبَ إليكَ بخبرنا، ونحن على حالٍ، لو أطنبتُ[١] في ذكرها، لم يكن في ذلك إحصاءٌ للنعمةِ، ولا اعترافٌ، لكنه الحقّ، فنرغب إلى الذي تزداد نعمةً علينا في كل يومٍ وليلةٍ، تظاهراً ألا يجعل شُكرنا منقوصاً، ولا مدخولاً، وأن يرزِقنا مع كُل نعمة كفاءها من المعرفة بفضله فيها، والعملُ في إداءِ حقّها، إنه وليّ قدير.

(١) **أطنبت في ذكرها**: أسهبت وأطالت من الإطناب وهو الإطالة.

(١٠)

وقال في رسالة للثقفي:

أما بعد، فإن ممّا نمّقَ اللّهُ به مناقبكَ[١] الكريمة المحمودة، الغانيةَ عن القولِ والوصفِ، أنكَ موضعُ المؤوناتِ عن إخوانِكَ، حمّالٌ عنهم أثقالَ الأمورَ، مما وضَعت عنه المؤونةَ، إرتفَاعُكَ عن الأمورِ التي يطأطأ إليها الكلامُ على ألسنةِ الناسِ، إذ أباحوهُ وبهرجوه وضيعوا القولَ ونسوا القصدَ فيه، وأخذوا به في كل فن، وأصفوا بصفوَته غير أهلها، فيما لا ينبغي لهمْ من التشبيهِ والتوفيرِ والتفضيلْ.

كانَ من خبري بعدَكَ، إني قدمْت بلدَ كذا، فتهيأ لي بعضُ ما شخصتُ له، والمحمود على ذلك الله عزّ وجلّ، وأنا على أن يأتيني خبركَ محتاجٌ، فأما جملة خبري في فراقِكَ، فقلبي مكة كلما سواكَ حرامٌ فيها.

●

(١١)

وقال من جوابٍ في السلامة:

أما بعد، فقد أتاني كتابُ الأميرِ، رجعةَ كتابي إليه، فكان فيه تصديقُ الظنِ، وتثبيتُ الرأيِ، ودركُ[٢] البغية، واللّهُ محمودٌ فامتعَ اللّهُ بالأميرِ وأمتعَهُ بصالحِ ما آتاهُ، وزادَهُ من الخيراتِ مستعمراً له فيه مستعملاً بطاعتهِ، التي بها يفوز الفائزون.

والذي رزقَ اللّهُ من الأميرِ، فهو عندي عظيمٌ نفيسٌ، وكل الذي قبلي عن مكافأتِهِ فبمقصرٌ إلا أنه ليس في النيةِ تقصيرٌ ولا بلوغ لشيء من الأمور، إلا بتوفيقِ اللّهِ عزّ وجلّ، ومعونتهِ والسلام.

●

(١٢)

وقال في السلامة أيضاً:

أما بعد، فلقد أتاني كتابُكَ فيما أخبرتَني عنهُ من صلاحكَ وصلاحِ ما

---

(١) **المناقب**: جمع منقبة وهي الفضيلة والمكرمة وما يعتد به من الشمائل والخصال الكريمة.

(٢) **دركُ البغية**: إدراكها والوصول إليها وتحقيقها أو الفوز بها.

قبلِكَ.. وفي الذي ذكرتَ، نعمةٌ مجللةٌ عظيمةٌ، نحمدُ عليها اللَّهَ، المنعِمَ بها، المحمودَ.. ونسأله أن يلهمنا وإياكَ من شكرهِ وذكرهِ ما به مزيدُها وتأدية حقّها..

نحن من عافيةِ اللَّهِ وكفايتهِ ودفاعهِ على حالٍ لو أطنبت في ذكرها لم يكن في ذلك إحصاءٌ للنعمةِ ولا اعترافٌ[1] لكنه الحقُ فنرغبُ إلى الذي يزيدُ في نِعَمهِ علينا تظاهراً ألا يجعل شكرَنا منقوصاً ولا مدخولاً وأن يرزقَنا مع كل نعمةٍ كفاء[2] من المعرفةِ بفضلهِ فيها والعملِ في أداء حقّها.

●

(١٣)

وقال في السلامة أيضاً:

كتبتُ إليكَ وأمير المؤمنينَ وما يأتيهِ من لينِ الطاعةِ واتساقِ الكلمَة عمّت في الداني والقاصي من بلدانِهِ وحواشي سلطانِهِ على ما يحمد الله عليه فإن نعمةَ اللَّهِ على أميرِ المؤمنينَ تجري على أذلالِها وتنقادُ في أسهلِ سبيلها.

●

(١٤)

ومن رسائله في باب الشكر:

أما بعد، فما أعجزَ تعدادي عما أتعرفُ منكَ وأتعرفهُ بكَ دانياً ونائياً، وما أدري ما ابتدأتني به من معروفكَ أرهنُ لشكري أما ما ثنيتَ به من برّك لبدئك بعنايتكَ على نأيكَ، أمَ ما ألبستني جمالهُ على لسانكَ بإطرائك وثنائك أم ما عقدَتهُ لي عند غيركَ بتلطفك وتأتّيك[3].

غير أني أعلم أنك لم تقصر في إستحقاقِ شكر عليّ، وأرجو ألا أكون مقصراً في معرفة ذلكَ منكَ، ومن لم يقصر علمه ولم يؤت في شكره إلا منْ عظمَ المعروفُ عندَهُ مع جهده فقد دخل بالعلم والجهد في الشاكرين.

---

(١) الاعتراف: الإقرار.

(٢) الكفاء: النظير والمثل المساوي.

(٣) التأتي: التهيؤ والتسهل.

غير أن الذي آنستَني به من رفدِكَ وتوطيدِكَ قد زادني وحشةً إليك وأن حفظَ من حفظني فيكَ وإن لم يكن مقصراً قد جدَّدَ لي المعرفة بوثارة مكاني عندك، ولقد بلغت أن أصلحت لي الأمور والرجال وأصلحتني إلى صلاحي لنفسك فليسَ كتابي هذا باستبطاءٍ لأحد حتى يستبطِئهُ ولا شكرٌ حتى يكونَ البدءُ منكَ. . . ولكن روحتُ[1] عن نفسي بذكرِكَ وزينتها بشكرِكَ وزكيتُها بالإقرار بِفضلكَ.

●

(١٥)

وقال أيضاً:

إن الناسَ لم يعدموا أن يطلبوا الحوائجَ إلى الخواصِ من الأخوانِ، وأن يتواصلوا بالحقوقِ ويرغبوا إلى أهل المقاماتِ، ويتوسَّلوا إلى الأكفاءِ[2] وأنتَ بحمد اللّهِ ونعمتهُ من أهل الخيرِ وممَن أعانَ عليه وبذل لأهلِ ثقتهِ المصافين، وإنَّ بذلَ النفوسِ فيه وإعطاءَ الرغيب ليس منكَ ببكرٍ ولا طريفٍ بل هو تليد أتلده أوّلكَمْ لآخركم وأورثه أكابركمُ أصاغِرَكمْ، ومن حاجتي كذا وأنت أحقُ من طلبتُ إليه واستعِنتهُ على حوادثِ الدهرِ وأنزلتُ بِه أمري لقربِ نسبكَ وكريم حسبكَ ونباهتِك[3] وعلو منزلتكَ وجسيم طبائعك وعوام أياديك إلى عشيرتَكِ وغيرها، فليكن من رأيك ما حمَّلتُكَ من حاجتي على قدر ما قسمَ اللّهُ لك من فضلهِ وما عوَّدك من منّهِ ووسعَ غيري من نعمائِكَ وإحسانِكَ.

●

(١٦)

ومن رسائله أيضاً قوله:

أما بعد. فإن من قضَى الحوائجَ لأخوانه، واستوجبَ بذلك الشكر عليهم فلنفسه عملٌ لا لهم، والمعروفُ إذا وضع عندَ من لا يشكرهُ فهو زرعٌ لا بدّ لزرّاعِهِ من حصادهِ أو لعقبه من بعدهِ. وكتبتُ إليك ولحالنا التي نحنُ

---

(١) روّح عن نفسه: خفّف من همومها، وحاول تبديدها.

(٢) **الأكفاء**: ذوو الكفاءة والأهلية.

(٣) **النباهة**: الذكاء والنبوغ.

بها فيما نذكرك حاجةً أول ما فيها معروفٌ تستوجبُ به الشكرَ علينا وتدخرُ به الأيادي قبلنا.

●

(١٧)

ومن رسالة له إلى يحيى بن زياد (الحارثي) ابتدأها في المؤاخاة، أما بعد: فإن أهلَ الفضلِ في اللبِ والوفاءِ في الودِ والكرمِ في الخلقِ لهمْ من الثناءِ الحسن في الناس لسانُ صدقٍ يشيّدُ بفضلهمْ، ويخبرُ عن صحةِ وذهمْ وثقة مؤاخاتهمْ، فيتخيرُ إليهم رغبةَ الأخوانِ ويصطفي[1] لهمْ سلامةَ صدورهم ويجتبى لهم ثمرة قلوبِهم فلا مثني أفضلُ تقريظاً ولا مخبرٌ أصدقُ أحدوثةً منه.

وقد لزمت من الوفاءِ والكرمِ فيما بينكَ وبين الناسِ طريقةً محمودةً نسبتْ إلى مزيتها في الفضلِ وجملَ بها ثناؤكَ في الذكرِ، وشهدَ لك بها لسانُ الصدقِ فعُرفْتَ بمناقبها ووسِمْتَ بمحاسنها فأسرعَ إليك الأخوان برغبتهمْ مستبقينَ، يبتدرونَ ودَكَ ويصلوْنَ حبلك ابتدارَ أهلِ التنافسِ في حظِ رغيبٍ نصبتَ لهم غايةً يجري إليها الطالبون، ويفوز بها السابقون. فمنْ أثبتَ الله عندكَ بموضعِ الحرزِ[2] والثقةِ، وملأَ بكَ يدَهُ من أخي وفاءٍ ووصلة واستنامَ منك إلى شعبٍ مأمونٍ، وعهدٍ محفوظٍ، وصارَ مغموراً بفضلِكَ عليه، في الودِّ يتعاطى من مكافأتِكَ، ما لا يستطيعُ ويطلبُ من أثرك في ذلك غايةَ بلوغها شديد.

فلو كنتَ لا تؤاخي من الأخوانِ إلا من كافأ بودك ويبلغ من الغايات حدكَ ما آخيت أحداً ولصرتَ من الأخوانِ صفراً ولكنَّ إخوانَك يقرْونَ لكَ بالفضلِ وتقبل[3] أنت ميسورَهمْ من الودِّ ولا تجشمهُمْ[4] كلفَ مكافأتَكَ ولا بلوغَ فضلِكَ فيما بينك وبينهم، فإنما مثلكَ في ذلك، ومثلهم كما قال الأول:

---

(١) **يصطفي**: يختار وينتقي ما هو أفضل وأمثل.
(٢) **الحرز**: الموضع الحصين.
(٣) **تقبل ميسورهم**: ترضى بهم.
(٤) **جشمهم**: كلّفهم المشقة والعناء.

ومن يُنازِع سعيدَ الخيرِ في حسبٍ ينزَع طليحاً ويقصر قيدَهُ الصُعُدُ

ولم أُردْ بهذا الثناءِ عليكَ تزكيتَكَ ليكونَ ذلكَ قربةً عندكَ وآخيةً لي لديكَ ولكن تحريتُ فيما وصفتُ من ذلك الحق والصدق وتنكبتُ الإثم والباطلِ فإن القليلَ من الصدق البريءِ من الكذبِ أفضلُ من كثيرِ الصدقِ المشوبِ بالباطلِ.

ولقد وصفتُ من مناقبكَ ومحاسنَ أموركَ وإني لأخافُ الفتنةَ عليكَ، حين تسمعُ بتزكيةِ نفسكَ وذكري ما ذكرتُ من فضلكَ لأن المدحَ مفسدةٌ للقلبِ مبعثةٌ للعجب.

ثم رجوتُ لكَ المنعةَ والعصمةَ لأني لم أذكرْ إلا حقاً والحقُّ ينفي من اللبيبِ العجبَ وخيلاء الكبرِ ويحملهُ على الإقتصاد والتواضع.

وقد رأيتُ إذ كنتَ في الفضلِ والوفاءِ على ما وصفتُ منكَ أن آخذ بنصيبي من ودِكَ، وأصلَ وثيقةَ حبلي بحبلِكَ فيجري بيننا من الإخاء أواصرُ الأسبابِ التي بها يستحكمُ الودُّ ويدومُ العهدُ وعلمتُ أن تركي ذلكَ غبنٌ، وإضاعتي إياهُ جهلٌ، لأن التاركَ للحظِّ داخلٌ في الغبنِ، والعائدُ عن الرشدِ مرجفٌ إلى الغيّ، فارغبْ من ودّي فيما رغبتُ فيه من ودّك.. فإني لم أدعْ شيئاً استتلي به منكَ الرغبةَ واجتريه منك المودّةَ إلا وقد اقتدتُ إليك ذريعته، واعملت نحوك مطيّتَهُ لترى حرصي على مودّتِكَ ورَغبتي في مؤاخاتِكَ والسلام.

وهذا جواب من يحيى بن زياد في صفة الإخاء:

أما بعد فإنا لما رأينا موضعَ الإخاءِ ممنْ يحتملُهُ في تأنيسهِ من الوحشةِ وتقريبهُ لذي البعدةِ ومشاركتهِ بين ذوي الأرحامِ في القربةِ، لم نرضَ بمعرفةِ عينه دون معرفةِ نَسَبتهِ فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبتهِ لا يستحقُّ اسمَ الإخاء إلا بالوفاءِ.

فلما انتقلنا عنه إلى الوفاءِ فنسبناهُ انتسب لنا إلى الصبرِ فوجدنَاهُ محتوياً على الكرمِ والنجدةِ[1] والصدقِ والحياء والنجابة والزكانةِ[2] وسائر ما لا يأتي

(١) النجدة: الإغاثة، المعونة.

(٢) الزكانة: أصابة الظنّ وصدقه.

عليه العددُ من المحامدِ ثمُ إنحدرَنا فيما أصعدنَا فَيه من هذا النسبَ فعدنا إلى الإخاءِ فوجدناهُ لا يَقومُ به إلا مَنْ هذه الخصال كلّها أخلاقه.

ولما استوجبَ الإخاء مسالكَ[1] المحمدةِ[2] كلّها رأينا أن نتخيّرَ له المواضعَ في صوابِ التوزير، وأحكامِ التقديرِ وعلمنا أن الأحتباسَ به أحسنُ من الندمِ بعد بذلِه واستوجبَ إذ كاَن جماع المحامدِ أن نتحيز له محاملَهُ التي كانَ يحملُ عَلَيها.

فكان الناسُ فيما احتسبنا به عنهم من الإخاءِ على صنفينِ فصنفٌ عذرونا بالتحبسِ للتخيرِ إذ كان التخيّر من شأنِهم، وصنفٌ هم ذَوو سرعةٍ إلى الإخاء وسُرعةٍ في الإنتهاء فقدّموا اللائمةَ واستعجلوا بالمودّةِ، وتركوا بابَ التروية، واستحلوا عاجِلَ المحبةِ، ولهوا عن آجلِ الثقةِ فكانوا بذلك أهل لائمةٍ ولم يجد المعذورونَ إلا الصبرَ على تلك والاستعمالَ والإستعدادَ بالعذرِ عند المحاجة[3].

وقد فهمتُ كتابَكَ إليْ بالمودةِ واستحثاثك إيّايَ في الأخوة، وما دنوتَ بهِ من حُرمة المحبة فنازعتُ إليك نفسي بمثل الذي نازعتَ به إلي نفسكَ، فواثبتني عادةُ الإستعمال للتروية في الخبرة والتحيز للمغبةِ[4]، فجلْت عن كتابِكَ جولةً غير نافرة ثم راجعت مقاربتك.

فقلت ألقى إلي أسبابِ المودةِ قبل كشف الغطاء بالخبرة، فخشيتُ أن تُعذرَ نفسك بالتقدمِ وتحدث الزهادة[5] للتعسفِ بالجهالة عند الخبرة، فجلت عن هذا جولةَ كالجولَة الأولى... ثم عاودت إسعافَكَ وطاعَةَ التشوقِ ومعصيةَ التخيرِ.. ثم قلت: ما حالَ من جعلَ الظَّنَ دونَ اليقينِ والتقدمَ قبل الوثيقةِ.

فلما كان الرأيُ لي خصماً تنكبتُ الوقوع في خلافِه.. فلم أجد إلا الإدبارَ عن إقبالِكَ سبيلاً.. ولا من ذلكَ في طاعة الشوقِ حجةً فتغيبت السبيلَ.

---

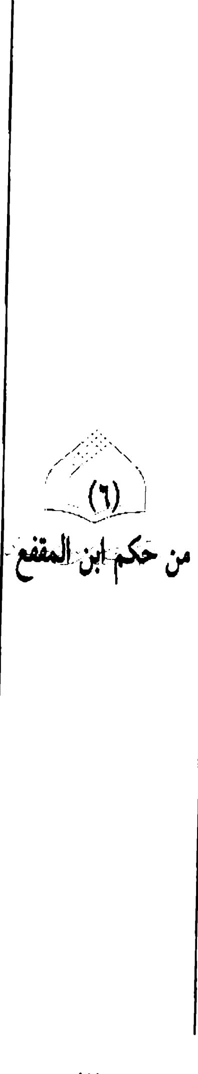
(١) **المسالك**: السبل والدروب، جمع مسلك.

(٢) **المحمدة**: ما يحمد من الأمور.

(٣) **المحاجة**: الجدل والمناظرة بين اثنين أو أكثر على أن يقدّم كل فريق ما عنده من البراهين والبيّنات.

(٤) **المغبة**: عاقبة الشيء.

(٥) **الزهادة**: الإعراض عن الشيء احتقاراً له.



(٦)
من حكم ابن المقفع

(٦)

من حكم ابن المقفع

●

وهذه رسالة أخرى من كلام ابن المقفع محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، كتبها علي بن أحمد الحلبي سنة ٨٤٤ هـ وقال في أولها: إنها **«كتاب الأدب»**.. وذكر أنها كتبت برسم خزانة المقر الأشرف الكريم العالي الجمالي ناظر الخواص الشريفة بالممالك الإسلامية عظم الله شأنه وصانه عما شانه.

قال عبد الله بن المقفع:

● عملُ البرّ خيرُ صاحبٍ.

● أحقّ ما صانَ الرجلُ أمرُ دينِه.

● الآلفُ للدنيا مغترٌ.

● من ألزمَ نفسَه ذكرَ الآخرةِ اشتغلَ بالعَمَل.

● المغبونُ منْ طلبَ ثوابَ الآخرةَ في الدّنيا.

● القلبُ أسرعُ تقلباً منَ الطّرف.

● أحسنُ العفوِ ما كانَ عن عظيمِ الجرمِ.

● الإعترافُ يؤدي إلى التوبةِ.

● الأصرارُ وعاءُ للذنوب.

● الجوادُ من بذلَ ما يضنُّ بهِ.

● المتكلّفُ لما لا يعنيه متعرّضٌ لما يكرَهُ.

- الفكرُ مفتاحُ القلبِ.
- الإستماعُ أسلمُ من القولِ.
- كمونُ الحقودِ ككمونِ النار في العودِ.
- أكرمُ الأخلاقِ التواضعُ.
- التّواضعُ يُورث المحبةَ.
- الكبرُ مقرونٌ به سوء الظنِ.
- من عذُبَ لسانُهُ كَثُرَ إخوانَهُ.
- من استبعدَ الآخرةَ ركَنَ إلى الدُنيا.
- سُرورُ الدنيا كأحلام النائمِ.
- المغبونُ من طلبَ الدنيا بعمَل الآخرة.
- المصيبةُ العظمىَ الرزيةُ فيَ الدّينَ.
- سرورُ الدنيا مخوفُ المغبةِ.
- وَمن أهلكَ نفسه في مرضاةِ غيره عظمتْ جِنايته.
- أنفَعَ الكنوزِ العملُ الصالحُ.
- أحقُ الناسِ بالبرِ أعلَمُهُمْ بالعاقبةِ.
- من أَبصرَ العاقبةَ فآثرها أَمِنَ الندامةَ.
- الوالي من وزرائِه بمنزلة الرأس في أعضائهِ.
- من عرفَ ثمارَ الأعمالِ كان حقيقاً أن لا يغرسَ مرّاً.
- أهن دنيا بائدة تستكملُ كرامة.
- أبقى الجروحِ مضضاً جرحُ الآثام.
- إئت إلى الناسِ ما تحبُ أن يؤتى إليكَ.
- إستصغرِ المشقةَ إذا أدتْ إلى منفعةٍ.
- رأسُ البرّ الورعُ.
- أُطلِبِ الرحمةَ بالرحمةِ.

- خَيرُ الأعمالِ ما دبرَ بالتقوى.
- بالحزم يتمُّ الظفرُ.
- من أحبَّ التزكيةَ تعرّضَ للضحكةِ.
- الدنيا نومُ نائمٍ والدولةُ حلمُ حالمٍ.
- من سالمَ الناسَ ربحَ السلامةَ ومن تعدّى عليهم كسبَ الندامةَ.
- بادرْ لعملِ الخير إذا أمكنكَ.
- من حَصَّنَ سرَّهُ أمِنَ ضررَ ذلك.
- الدنيا قد تُدْرَكُ بالجَهل كمَا تدْرَكُ بالعقل.
- أحسنُ العملِ الصالح ما كان بصدقِ النيّةِ.
- خَسِرَ منْ انفقَ حياتَهُ في غَير حقِّها.
- طوبى لمَن تَركَ دنياه لآخرتِه.
- من الحقّ على السلطانِ رفعُ ذي الفضيلةِ وأن يَسدَّ فاقتَه.
- لا تحمدْ نفسَكَ على ما تركتَ من الذنوب عجزاً.
- بالرسولِ يُعرَفُ قدرُ المرسِل.
- رِفْقُ الرسول يلينُ القلبَ الصعبَ.
- لا رأيَ لمَن انفردَ برأيه.
- من تركَ رأيَ ذي النصيحةِ اتباعاً لما يهوى استوخمَ العاقبةَ.
- المشاورةُ أوثقُ ظهير.
- المستشارُ مؤتمَن.
- اعتبرْ عقلَ الوالي بإصابته موضعَ أصحابِه.
- من صَحِبَ السلطانَ لم يزلْ مروّعاً.
- كثرةُ أعوانِ السوءِ مضرةٌ بالعَملِ.
- بالحزم يتم الظفرُ.
- بإجالة الرأي تظفرُ بالحزمِ.

- استوجَبِ الطاعةَ من ذَوي الرأي بالمودةِ.
- الصنيعةُ عند الكَفور لا تثمرُ إلا مرّاً.
- الملكُ الحازمُ من استمسَكَ برأيِ الحزمةِ من ذوي الرأيِ.
- لا صلاحَ لرعيةٍ واليها فاسدٌ.
- خيرُ مستفادِ الهدى.
- أكثرْ محادثةَ من يَصدقُكَ عن عيوبِكَ.
- حليةُ الملوكِ وزراؤُهمْ.
- أكملُ النصحاءِ من لم يكتمْ صاحبَهُ نصيحةً وإنْ استقلّها.
- فسادُ الوالي أضرُّ بالرعيةِ من جدبِ الزمان.
- استعنْ بالصمتِ على إطفاءِ الغضبِ.
- لا تجنينَّ على نفسكَ عداوةً وبغضةً اتكالاً على ما عندَكَ من العملِ والقوةِ والمنعةِ.
- كنْ في الحرصِ على معرفةِ عيبِكَ بمنزلةِ عدوّكَ في معرفةِ ذلك.
- البصيرُ من عرفَ ضَرَّهُ مِنَ نفعهِ.
- أكرمُ الأخلاقِ التواضعُ.
- الكبرَ مقرونٌ به سوءُ الظنِ.
- ربما تحولَتِ البغضاءُ مودّةً والمودّةُ بغضاء.
- قربُ الصالحينَ داعٍ للصلاحِ.
- أحسنُ العفو ما كانَ عن عظيمِ الجرمِ.
- المالُ عونٌ ومعوانٌ على المروءَةِ.
- من عدمَ مالَه أنكرهُ أهلُهُ.
- خيرُ الملوكِ من يرى أنه لا يضبطُ ملكَهُ إلا بالعدلِ بين رعيتهِ واضيعُهُم الفظُّ المتهاونُ.
- لا يغترُّ الأقوياءُ بفضلِ قوّتِهِمْ على الضعفاءِ.

- الضعيفُ المحترسُ من العداوةِ أقربُ إلى السلامةِ من القويِّ المغترّ.
- أخوفُ الأحقادِ أحقادُ الملوكِ.
- أبصرُ الوزراءِ من بصَّرَ صاحبه عيبَهُ بالأمثال.
- من قلَّ كلامهُ حُمِدَ عقلَهُ.
- من عَرَفَ قدرَهُ قلَّ إفراطُهُ.
- أحسِنْ والدولةُ لك، يُحَسَنُ إليكَ والدولةُ عليكِ.
- من حُرَمَ العقلَ رزىءَ في دنياهُ وآخرتَهُ.
- آفةُ العقل العجبُ.
- الهمُّ مرضُ العقل.
- إحذرْ صولةَ اللئيمِ إذا شبعَ.
- أحسنُ المدحِ أصدقُهُ.
- الإحسانُ يقطعُ اللسانَ.

الفهرس

●

القسم الأول

●

الفصل الأول

ابن المقفّع وآثاره

الفصل الثاني

أضواء على آثار ابن المقفّع

القسم الثاني

●

النصوص الأدبية

